

الجامعة الإسلامية
بالتنوير
بمَجْلَةٍ دَوْرِيَّةٍ تَصْدُرُ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فِي الْعَامِ

السَّنَةُ ١٦

الْعَدَدَانِ

٦٤ و ٦٣

رَجَب - ذُو الْجَمَادِ ١٤٠٥ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَيْئَةُ التَّحْرِيرِ

الأعضاء

رئيس التحرير

د. صلاح بن عبد الله العبود

د. محمد بن عطية الغاندي

د. علي سلطان الشامي

د. بزوفه بن هياك الزهري

مدير التحرير

د. محمد بن عوي الراجحي

الرسالة: ترسل أيام مدير التحرير - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

قَبَسٌ
مِنْ
كِتَابِ اللَّهِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

وَكَلَّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ
مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٤١﴾
وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٤٢﴾ وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ
وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٣﴾

حِكْمَةُ الْعَدْلِ

أَشْتَرِ نَفْسَكَ الْيَوْمَ فَإِنَّ السُّوقَ
قَائِمَةٌ وَالثَّمَنَ مَوْجُودٌ، وَالْبَضَائِعَ
رَخِيصَةً، وَسَيَأْتِي عَلَى تِلْكَ السُّوقِ
وَالْبَضَائِعِ يَوْمٌ لَا تَصِلُ فِيهَا إِلَى قَلِيلٍ
وَلَا كَثِيرٍ، ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ
يَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ..

الفوائد لابن القيم.

كَلِمَةُ التَّحْرِيرِ

لِلدُّكْتُورِ صَبَّاحِ بْنِ حَبِيبٍ (رَبِّ الْعَبُودِ)
رئيس قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأصلى وأسلم على محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد : فإن هذا العدد من مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة هو بداية تحديد اتجاه المجلة إلى الاقتصاد على نشر الأبحاث العلمية التي يسهم فيها أساتذة الجامعة ، ولذا جاء عددنا هذا حافلاً ببحوث علمية في العلوم الإسلامية والعربية لعدد من الأساتذة الفضلاء .

وما من شك أن البحث والنظر والاستدلال والتوثيق يفيد العلم وهو من خصائص الإسلام التي اقتبسها رواد الكشوفات العلمية فاستضاء بها العالم كله . وهذا المنهج من طرق التماس العلم . فسلكه سلوكاً يلتزم بالإسلام وينبثق منه ويستند في دقته ونتائجه على عقيدته الحية كما يستمد منهاجه وخططه من شريعته هو سلوك راشد مشروع يرجى لصاحبه أن يسهل الله له به طريقاً إلى الجنة .

ذلك أن العقيدة الإسلامية هي التي جمعت الصدق والصلاح وسلمت من الضلال والفساد وتضمنت جميع الحكمة والعلم النافع والعمل الصالح وهذا هو سر السيادة وسبب العز والظهور والنصر والغلبة والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة .

إن العقيدة الإسلامية هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى تصديقاً وإقراراً وتسليماً وانقياداً بالقلب واللسان والجوارح وأعلى ذلك شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً ، وعموماً فالإيمان هو طاعة الله تعالى وتحقيق امتثال أمره وأمر رسوله ﷺ ابتداءً من أعلى شعب الإيمان وهي شهادة أن لا إله إلا الله إلى أدناها وهي إمطة الأذى عن الطريق كما شرع الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ والتعبد لله تعالى

بهذه الطاعة حبا ورجاء وخوفاً لله ومنه سبحانه وتعالى تعبدا يصل إلى درجة المراقبة والاحسان وهي أن يعبد الإنسان ربه بذلك كأنه يراه فإن لم يكن يراه استشعر أن الله يراه شعوراً لا يغيب عن باله في جميع أحواله التعبديّة أو غالبها فيثمر تقوى الله في السر والعلن .

إن عقيدة هذه ماهيتها ثمر الأمن والهداية في الدنيا والآخرة وبقدر اعتقادها يتحقق ثمرها من الأمن والهداية فمن اعتقدتها اعتقاداً تاماً كان له الأمن التام والهداية التامة ومن كان اعتقاده دون التمام حصل له من الأمن والاهتداء بقدر اعتقاده . قال الله تعالى :

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ (الأنعام: ٨٢) .

وان من يتأمل الواقع الذي نعيشه في المملكة العربية السعودية يدرك أن ما نحن فيه من أمن يفوق ما فيه أهل عصرنا من الدول وغيرها هو من أثر العقيدة الإسلامية التي دعا إليها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وناصره آل سعود عليها ووازره على إعلاء كلمة الله تعالى فاقبلوا على معرفة ما عند الشيخ من العلم والارادة حتى إذا عرفوا صدق موافقته للحق نفذوا ذلك بالسلطان والإدارة والسيف والعزيمة يريدون ما عند الله تعالى ، فصنع لهم الله من عظيم صنعه ، وأظهر لهم من الدولة ما ظهروا به على سائر العرب ، وكلما كان الأمر على ذلك العهد المبارك كلما كان في بحبوحة العز والنصر والظهور ، ولا نزال والله الحمد ، ننعم بوارف ظلال عقيدة السلف الصالح المبنية على صحة العلم وصلاح العمل تحت دوحتي أهل العلم وأهل العمل من علماء الدعوة وأنصارها .

هذا وإن اقتصار المجلة على نشر البحوث العلمية الموثقة من الأساتذة الجامعيين ليرجى منه أن يجمع قوتها ويركزها على التخصص العلمي النافع فما ذلك إلا استجابة لمتطلبات المسيرة العلمية التي تسيرها الجامعة الإسلامية لتفنى بسد بعض حاجات المجتمع الإسلامي العالمي للتخصص العلمي حسبما يمليه وجودها إذ هي مؤسسة إسلامية عالمية من حيث الغاية ، وعربية سعودية من حيث التبعية ، ذات شخصية اعتبارية مستقلة ، ومن أهدافها إعداد البحوث العلمية وترجمتها ونشرها وتشجيعها في مجالات العلوم الإسلامية والعربية خاصة ، وسائر العلوم وفروع المعرفة الإنسانية التي يحتاج إليها المجتمع الإسلامي عامة ، وتجميع التراث الإسلامي والعناية بحفظه وتحقيقه ونشره .

ونسأل الله التوفيق لما يحبه ويرضاه وأن يسلك بنا سبيل أتباع رسوله ﷺ أهل البصيرة والصدق والاخلاص في العلم والعمل وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه .

آيَةُ الْعُدُدِ

لِلشَيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ بَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ
مُعْتَمِدِ تَفْسِيرِهَا بِالْمَدِينَةِ

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾

الآية (١) من سورة الفاتحة

بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . محمد وآله وصحبه ومن آمن به واهتدى بهداه . . .

وبعد : فإن قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هو الآية الأولى من كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) هذا على ما رجحناه ، وإلا فعند الشافعي رحمه الله أن الآية الأولى هي بسم الله الرحمن الرحيم . وحينئذ فالحمد لله رب العالمين هي الآية الثانية . وعلى كلا المذهبين فآيات الفاتحة سبع لا غير ؛ لقوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ . (الحجر) . وقوله ﷺ : « هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيت » . (الصحيح) .

وبناءً على أن البسمة آية من الفاتحة فالآية السابعة هي : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . وإلا فالآية السابعة هي : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

وفائدة هذا الخلاف أن مَنْ رَأَى البسمة آية من الفاتحة وجب عليه أن يقرأها كلما قرأ الفاتحة في الصلاة ، وإلا بطلت صلاته . وَمَنْ لم يَر أنها آية قرأها أو لم يقرأها فصلاته صحيحة إلا أن قراءتها سرّاً في الصلاة الجهرية أحوط وأكثر أجراً .

ومنشأ هذا الخلاف : أن الفاتحة نزلت مرتين مرةً بالبسمة ومرة بدونها والمقصود من البسمة هو التبرك بذكر اسم الله تعالى والاستعانة به على التلاوة والصلاة فلذا قراءتها أرجح من عدمها ، وإنما نظراً لحديث أنس في الموطأ والصحيحين : « أنه صلى وراء رسول

الله ﷻ ووراء أبي بكر وعمر فكانوا يستفتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين»، فإن الاختيار أن تقرأ البسمة سراً، ثم يجهر بالقراءة في الصلاة الجهرية .
بعد هذه المقدمة نشرح الآية الكريمة فنقول :

شرح الكلمات في الآية :

الحمد : «الـ» فيها لاستغراق الجنس أى أن عامة ألفاظ الحمد وسائر كلمات الثناء والمحامد التى عرفها الناس، وما لم يعرفوا منها هى لله تعالى ، والله مستحق لها جميعها .
وفي الحديث : «اللهم لك الحمد كما أنت أهله» .

والحمد : هو الوصف بالجميل الاختيارى والمدح مثله إلا أنه يُفارقة فيكون بالجميل غير الاختيارى كأن نحمد زيدا فنقول : زيد ذو خلق فاضل، ونمدحُه فنقول : زيدٌ جميل الوجه معتدل القامة . فكان قولنا : زيد ذو خلق فاضل حمداً؛ لأنه على الجميل الاختيارى، وكان قولنا : زيد جميل الوجه معتدل القامة مدحاً؛ لأن جمال وجهه واعتدال قامته حصل له بالاضطرار لا بالاختيار، أى لم يكن هو الذى جعل وجهه وعدل قامته بل الفاعل لذلك هو الله تعالى بخلاف حسن خلقه فإنه حصل له بكسبه واختياره . وصفات الجمال فى الله تعالى كلها اختيارية . لذا يحسن أن نقول حمدنا الله تعالى ونحمدُه، ولا نقول مدحنا الله تعالى ونمدحُه، كما يحسن أن نقول : مدحنا زيدا نمدحه، ولا نقول : حمدنا زيدا نحمده لما علمنا من أن الحمد هو الوصف بالجميل الاختيارى، والمدح هو الوصف بالجميل الاختيارى أو الاضطرارى .

والشكر كالحمد، وفي الحديث الشكر رأس الحمد . إلا أن الشكر هو المدح بالفواضل وهى النعم المتعدية . والحمد هو المدح بالفضائل . وقد يجمع بينها فيقال زيد جميل كريم تصدق بألف . ولذا فالحمد يكون باللسان فقط والشكر يكون باللسان والقلب والجوارح كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا
والشكر بالقلب معناه اعتراف القلب بنعمة المنعم فيحمده عليها بلسانه ويشنى بها عليه بتكراره .

لله : اللام فى لله هى لام الاستحقاق والملك كقولنا الجائزة أو الدار لعمر وأى أن الجائزة مستحقة لعمر والدار ملك له . وجميع المحامد مستحقة لله تعالى ملك له، فليس

لغيره من سائر خلقه حق فيها ولا استحقاق ولا ملك . وسنين ذلك فيما بعد إن شاء الله .

الله : اسم الربّ تبارك وتعالى وهو عَلَمٌ على ذاته عز وجل ، والله تعالى مائة اسم إلا اسماً واحداً للحديث الصحيح . وأعظم تلك الأسماء الحسنى هو اسم ﴿الله﴾ وإذا نودى به تعالى قد يحذف حرف النداء «يا» ويُعوض عنه ميم مشددة تلحق آخره فيقال : اللّهُم . وقد ينادى بدون إلحاق حرف الميم في آخره ، فتقطع همزة الوصل فيه فيقال : يا الله . وهو واسم الرحمان لا يسمى بهما غير الرب تبارك وتعالى . وأما لفظ الربّ فقد يطلق على غير الله تعالى مضافاً نحو : قولنا رب الدار ، ورب السلعة بمعنى مالكها ، ويقال : فلان ربّ ، أو الربّ بلا إضافة . ومن خصائص اسم الجلالة ﴿الله﴾ أنه يوصف ولا يوصف به فيقال : الله الرحمن الرحيم ، أو العزيز الحكيم . ولا يقال الرحمن الله ، أو العزيز الله ، ولذا رجح بعض أهل العلم أن يكون الاسم الأعظم لله تعالى هو ﴿الله﴾ أو مع الحيّ القيوم . ﴿الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم﴾ . وذلك للخبر . . .

ومعنى ﴿الله﴾ : المعبود بحق ، إذ الأصل في تركيبه : إله فحذفت الهمزة منه وعرف بال فصار ﴿الله﴾ وجعل عَلماً على ذات الرب الواجب الوجود سبحانه وتعالى . وعلى القول بأنه مشتق غير مرتجل فإنه مأخوذ من أله يأله إلهة وألوهية : إذا عبده محباً له غاية الحب مُعظماً له غاية التعظيم خاشياً إياه غاية الخشية .

ومادة أله جاءت في لغة العرب لمعان كثيرة منها إله إذا عبد ، وأله إذا تحير ، وإله إذا فزع ، وإله إذا سكن . وكل هذه المعاني صالحة لاسم الله إذ هو تعالى المعبود بحق . قال تعالى : ﴿وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله﴾ أى معبود فيهما معاً . والله تعالى تتحير العقول في معرفة كنه ذاته وتضطرب وتقر بالعجز ؛ إذ ليس كمثل شىء وهو السميع البصير ، وتفزع إليه الخلائق إذا نزل بها أمر تدعوه وتتضرع إليه ليكشف عنها ما نزل بها ، وتسكن إليه القلوب المؤمنة وتطمئن بذكره قال تعالى : ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ فلذا كان أفضل أنواع الذكر لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

رَبّ : الربّ اسم من أسماء الله تعالى ، لا يصح إطلاقه على غير الله تعالى إلا مضافاً كما تقدم بيانه . ولفظٌ يطلق ويراد به معان كثيرة فيكون بمعنى الخالق ، الرازق ، المدبر ، المصلح ، المربى ، المعبود ، ويكون بمعنى السيد والمالك . وكل هذه المعاني مستحقة لله تعالى فلا تطلق على الحقيقة إلا عليه عز وجل وتطلق دون الخالق والمعبود على غير الله

تعالى إطلاقاً إضافياً غير حقيقى ، فيقال فلان مصلح أو مرب أو سيد أو مالك . نحو فلان مصلح السيارات ، ومربى الأولاد ، وسيد البلد ، ومالك الدار ، وما إلى ذلك . ومن شواهد اللغة على إطلاق لفظ الرب على المعبود قول الأعرابى ، وقد وجد ثعلبا شاغراً رجله يبول على صنم كان يعبده :

أربُّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب
وتركه كافراً به فلم يرجع إليه أبداً . . .

وللأستغاثة باسم الرب تعالى أترطيب إذا كانت بلسان صادق وقلب سليم من الشرك إذ قال رسول الله ﷺ : «إذا قال العبد يارب يارب ثلاثاً ، قال الله تعالى عبدى سل تعط» . رواه ابن أبي الدنيا فى الدعاء عن عائشة رضى الله عنها .

العالمين : العالمين جمع واحدُه عالم ، والعالم كل ما سوى الله تعالى ، وسمى كل شىء من المخلوقات عالماً كعالم الملائكة وعالم الجن وعالم الإنسان ، وعالم الدواب وعالم الطير وعالم النبات ، وعالم السموات ، لأنه علامة على خالقه ومدبره ومصلحه وحافظه عز وجل . ومن هنا كان رب العالمين معناه : خالق الخلائق ومالكهم ، ومدبر وجودهم وحياتهم ، ومعبودهم الحق الذى لا معبود لهم على الحقيقة غيره سبحانه وتعالى .

كان ذلك شرح مفردات الآية الكريمة تفصيلاً . وأما تفسير الآية إجمالاً فإنه :

(يجبر تعالى عباده بأن له الحمد كله ، استحققه بخلقه العوالم كلها ، وبملكها كلها ، وتدبيرها كلها ، والقائم على إصلاحها وتربيتها كلها فلا رب لها غيره ، ولا معبود حق لها سواه . وضمن هذا الإخبار الأمر بحمده تعالى والثناء عليه بلفظ الحمد لله . وأنه تعالى يجب أن يحمد على آلائه ، كأنها قال : قولوا الحمد لله رب العالمين) . . .

هذا معنى الآية وأما ما فيها من هداية وأحكام فإلى القارىء الكريم ذلك إزاء الأرقام

التالية :

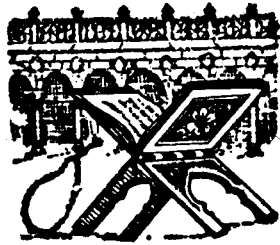
(١) فضل «الحمد لله» حيث قالها الله تعالى لنفسه وأمر بها عباده أن يقولوها له ، وفى الحديث (١) الصحيح الحمد رأس الشكر ، وأن الله تعالى يجب من العبد إذا أكل الأكلة أو شرب الشربة أن يحمده عليها . وما من عبد أنعم الله عليه بنعمة فقال فيها : الحمد

(١) أورد هذه الأحاديث ابن كثير فى تفسير سورة الفاتحة فليراجعها من شاء .

لله ، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ . وما من أحد أحب إليه الحمد من الله تعالى ،
ولذا حمد نفسه بنفسه فقال الحمد لله .

(٢) أن الحمد لا يكون إلا لمن له فضائل أو فواضل اقتضت حمده فلا يحل حمد أو مدح من لا
فواضل له ولا فضائل ؛ إذ مدح البخيل بالكرم زور ، ومدح السخيف بالكمال كذب .
ومدح الجبان بالشجاعة باطل ، ومدح الظالم بالعدل حرام . ودليل هذه الحقيقة أننا
بالاستقراء والتتبع ما وجدنا الله تعالى حمد نفسه إلا وذكر موجب الحمد ومقتضاه مثل
الحمد لله رب العالمين ، الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ،
الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب . . .

(٣) وجوب قول الحمد لله في الصلاة ومشرعيته بالندب عند حصول كل نعمة وتجدها ،
ومن ذلك عند لبس الثوب والفراغ من الأكل أو الشرب ، وعند دخول المسجد والخروج
منه « بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله » وعند افتتاح الخطبة ، وختم
الدعاء . « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب
العالمين » وعند ركوب الدابة أو السيارة والطائرة والسفينة للآية . ﴿ تستووا على ظهوره
ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ﴾ . ولازم ذكر النعمة شكرها والحمد لله رأس
الشكر . اللهم أجعلنا من الحامدين لك الشاكرين لإنعامك وإفضالك بطاعتك وطاعة
رسولك ﷺ . . .



أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْمُطْفِ .. عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى

وَصُوحَ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَدَعَوَاتِ الرَّسْلِ

لِلشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ الْغَنَمَاتِ

٢

رئيس قسم الدراسات العليا

القسم الثانى : توحيد التوجه والقصد بالنفس واللسان والقلب رغبة ورهبة بالعبادة لله وحده والخلوص من الشرك جليله ودقيقه ، فإذا نوى المرأ بماأتى وما يترك التقرب إلى الله تعالى وطلب ما لديه صار موحداً له وبصرفه شيئاً من ذلك لغير الله يكون مشركاً علم أنه شرك أو لم يعلم إذ أساس العبادة سواء كانت لله أو لغيره هو توجه القلب بالذل والخضوع التام المستولى على الخاضع من القوى الغيبية والأمور الخفية التى يرهبها ممن يذل له أو يطمع فيها على غير الأسباب التى يجرى عليها نظام الكون على الدوام سواء كانت تلك القوى الخفية وهمية أو حقيقية ، هذا هو باعث العبادة فى الغالب ، والذى يحمل العابد عليها بالتوجه إلى معبوده بالدعاء وما يتبعه من الأعمال والأقوال ، فرع عن وجودها ودليل على عبودية من صدرت منه ، لأن التوجه إليه شاهد على اتخاذه إلهاً ، والأعمال هى شواهد لله ولعباده على الخلق ، ودليل على صدق ما ادعى أو كذبه مع أن الله لا يخفى عليه خافية .

وما كان من هذا الذل والخضوع خال عن المحبة والتعظيم ، وبدافع الأمور الظاهرة التى تجرى عليها السنن الكونية والأسباب التى ربطها الله بمسبباتها ونتائجها مما يدخل تحت مقدور من يخافه العباد ، أو من يرجونه من الخلق فهو من تنمة العبادة غير أن ما كان جارٍ منها على الطباع لا يقدح فى إخلاص من داخله شىء منه ، لأن الأنبياء فمن دونهم كانوا يخافون من عدوهم ، ومن يقدر على أذاهم ، ويرجون من يملك أن ينفعهم ويعاونهم من اتباعهم وغيرهم ، مع اعتمادهم على الله فى حصول مطلوبهم وهذه من الأسباب التى جعلها الله مقتضية وجود مسبباتها .

ولم يسجل التاريخ نبأ كائن ينكر وجود إله على قدير ، حتى العقائد الوثنية التى كانت ومازالت تؤمن بألهة متعددة ، حتى هذه تدين بالتقديس لإله واحد من آلهتها وتؤمن بأنه فوق الكل عزة وعظمة وقدرة ، وهو مالك الملك رب السماوات والأرض وأنه رب الأرباب ، ومالك كل شىء ، إلا أنهم أشركوا بعض عباده معه فى الدعاء والتوجه إليهم بصفتهم مقربين إليه

ملكهم ما يطلب منهم ، بزعمهم ولكن الذى وقف في وجه دعوة الرسل أمم كانت تعبد مع الله آلهة أخرى .

ولهذا لم تكن رسالة الرسل في دعوة الناس إلى الإيمان بوجود الله أوروبيته ، إذ كان هذا مستقراً في القلوب وإنما كانت دعوة الرسل إلى توحيد الله في إلهيته بأن يعبد وحده لا شريك له والتخلي عما اتخذوه معبوداً من دون الله تعالى ، وأولياء يلجأون إليهم وشفعاء يعبدونهم بالحب والدعاء والخوف والرهبنة والرجاء قال الله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبد الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . والطاغوت كل من أضلك عن سبيل الله ، أو صرفك عن طريق الحق ، أو احتكمت إليه في دينك بحكم يحكم فيه بالهوى أو عبده من دون الله ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ لم يقل لا رب سواى لأن الناس جميعاً يوحدون الله في ربوبيته ولم يقل إني إله لأنهم جميعاً يؤمنون بذلك ولكنه قال : ﴿ لا إله إلا أنا ﴾ وأمر بعد ذلك بعبادته ليوحده الناس في الألوهية ويعبدوه وحده وهذه رسالة الرسل وهى توحيد الله في إلهيته بأن يعبدوه وحده لا شريك له ، وفي يوم النداء من الطور ، في تجلى النور ، كان أول ما أمر به موسى أن يسمعه ويطيعه ، ويبلغه ﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ (سورة طه : ١٤) . وملاك ذلك أن لا يعبد إلا الله ، وأن لا يعبد إلا بما شرع ، فمن ابتغى بعمل غير وجه الله ، فهو مشرك ، ومن عبَدَ الله وحده ، بما لم يأذن به الله ولم يشرعه فهو مبتدع ضال ، ولا يكون الدين لله خالصاً إلا إذا كان كل ما نعمله ونقوله هو لله خالصاً وسواء كان من شئون الدين أو من شئون الحياة مادمننا نرجو الثواب من الله تعالى عليه ، قال ﷺ يقول الله عز وجل : « من عمل عملاً أشرك معي فيه غيرى تركته وشركه » (١) فذكر العمل مطلقاً غير مقيد بكونه عمل دينى أو دنيوى ، ليكون وجود العبد كله في الحياة والاتجاه وغيره لله وحده ، وقال ﷺ : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال قالوا بلى يا رسول الله ؟ . قال : الشرك الخفى يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل » (٢) فمجرد تزين الصلاة لأجل ملاحظة عيون الناس بالاعجاب شرك بالله ، فتوحيد الله لا يتحقق إلا أن يكون ظاهر الإنسان وباطنه سره وعلانته عمله وقوله دينه ودينه كله لله وحده ، فيجب أن يكون هوى قلبك وباعث عملك وغاية جهادك في الحياة لله وحده ، وقد يكفر الإنسان بمعبود في لسانه وقلبه مستكين له ومملوك عليه ، وتشهد عليه أعماله بأنه عبد الدينار وعبد الدرهم ، أو عبد الشيطان ، ألم تر إلى قول إبراهيم عليه السلام : « ياأبت لا تعبد الشيطان » وما كان آزر

(١) رواه مسلم في صحيحه أنظر مسلم بشرح النووي ج٨ ص ١١٥ ، وابن ماجه في سننه ج٢ ص ١٤٠٥ .

(٢) أحمد . أنظر المسند ج٣ ص ٣٠ وسنده صحيح .

يسمى معبوده شيطانياً ولا يؤمن بأنه شيطان، ولكن الذى يصده عن عبادة الله هو الشيطان، أو ولى الشيطان، فهو عونهُ وأخوه قال الله تعالى : ﴿ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان...﴾ (يس : ٦٠) .

وأنواع العبادة كثيرة متعددة : «وهى اسم لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»^(١) وتكون فى القلب كالإخلاص فى الأعمال، واليقين بالأمر الغيبية، والخوف والرجاء، والتوبة، والندم على ما صدر من سىء الأعمال، ومنها ما يدفعه قلب العبد على اللسان من الدعاء، والنداء والاستغاثة ممن يرجو ويتوكل عليه لقضاء حاجة، أو تفريج كربة، ومنها ما يكون باللسان والقلب والجوارح، كالمحبة، فمن أشرك فى الحب الذى لا يصلح إلا لله، مع الله غيره، فقد جانب التوحيد، وأتى بما يضاده، قال تعالى : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾، (سورة البقرة: ١٦٥). ومنها الصلاة والركوع والسجود والذبح قال تعالى : ﴿فصل لربك وأنحر﴾. (سورة الكوثر: ٢). وقال جل وعلا : ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا وأسجدوا وأعبدوا ربكم﴾، (سورة الحج: ٧٧)، ومنها الطواف، فلا يطاف إلا فى بيت الله، والله وحده، قال تعالى : ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾، (سورة الحج: ٢٩)، وأنواعها كثيرة يصعب حصرها جداً .

و ضد التوحيد الشرك وهو أقسام ثلاثة شرك أكبر بأن يجعل شيئاً من العبادة لله وغيره وهذا فاعله إذا مات ولم يتب منه يخلد فى النار، كما قال تعالى : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾. (سورة النساء: ٤٨)

والثانى شرك أصغر مثل يسير الرياء وقوله لرجل ما شاء الله وشئت والحلف بغير الله وما شابه ذلك، ولو كان المحلوف به خاتم النبيين، وأشرفهم ﷺ .

الثالث الشرك الخفى وهذا قد يكون أكبر وقد يكون أصغر، حسب الباعث عليه ولا ترسال معه، ومن أنواع الشرك أن يتوجه الإنسان بالدعاء إلى الله تارة وإلى غيره أخرى سواء قصد ذلك على سبيل الوساطة، أو طلب منه أي من غير الله - غرضه، بالنداء والاستغاثة واللجوء إليه والتمسكن له، فمن فعل ذلك فقد جعل لله عديلاً، ومساوياً، سواء سمي ذلك توسلاً أو شفاعاً، وسواء كان المتوسل به نبياً، أو ولياً، أو عدواً طريداً، فكل ذلك شرك ينافى التوحيد، ومن الأعمال القبيحة سؤال الله بجاه مخلوق، أو ببحقه وعمله لأن من سأل الله بذلك فقد اعتقد أنه يؤثر على الله، كالشفاعة على الرؤساء، ولهذا لا يتوسلون ويسألون الله إلا بجاه من يعتقدون له الجاه العريض، والمكانة الحاملة لله على أن يعطيهم

(١) قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . أنظر الرسالة المعروفة بالعبودية فاتحتها .

حاجتهم بزعمهم والجاه والمنزلة أصبحت في عرف الناس ولغتهم هي النفوذ والقوة المؤثرة، على من يتوجه إليه لتحصيل خيره، أو دفع شره، فعلى هذا ما يسميه توسلا وزورا معيدوا الوثنية، من منتحلي الإسلام، وهو على لغة القرآن والعرب، العبادة بعينها، فإذا التوسل الذي يعنونه هو الشرك الأعظم وهو يشمل عندهم .

أولاً : الطواف عند قبور من يقدسونهم، وتقبيلها وأخذ تراها للاستشفاء به والتبرك بها، وذبح الذبائح لهم، لأنهم يرجون بذلك أن يعطوهم، أضعاف ما قدموا لهم .

الثاني : ما ينفقونه في هذا السبيل، من الحرث والأنعام، طمعا أن يبارك لهم بدعواتهم، وأسرارهم ونفحاتهم الإلهية في أموالهم وأنفسهم وذرياتهم .

الثالث : عمارتهم قبورهم، بالبناء العالى، والقباب المزخرفة، والستائر الفاخرة، والإضاءة عليها وبذل المال في هذا السبيل، وتحمل مشقات السفر إليها .

الرابع : الحلف بهم، والخوف منهم، والتخويف بهم، وتحذير بعضهم بعضا من عقابهم، لاعتقادهم أنهم يقدرون على ذلك، كما يعتقدون فيهم النفع لمن يحبهم، ويفى لهم بالنذور، ويزور أوثانهم .

الخامس : توجههم إليهم بالدعاء والنداء والاستغاثة والاستعانة بهم إذا نزل بهم ضرر، أو مسهم كرب .

السادس : سؤالهم الله بحقهم، وتوسلهم إليه بجاههم ومنزلتهم، وما لهم عنده من الدرجات .

السابع : تعبدتهم وصلاتهم عند قبورهم، وتفضيل البقاع التي يوجدون فيها، اعتقادا منهم أن الدعاء عندهم مقبول، ومستجاب لما لهم من القداسة . وهذا كله شرك بالله وخروج عن دينه الذي جاءت به رسل الله كلهم .

الثامن : السفر إلى مشاهدهم، قصدا للعبادة عندهم، لاعتقادهم أنها في تلك الأماكن أفضل منها في المساجد، وهذا كله مناقضة لشرع الله، الذي جاء به خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه، وإعادة لدين الوثنية، ومن المؤسف أن تصدر مثل هذه الأفعال من خريجي الجامعات، والمتصدرين للفتوى والتوجيه .

وما يتعلق به المشركون قديما وحديثا الشفاعة :

الشفاعة : لقد كانت الشفاعة في قديم الزمان وحديثه طريقا إلى الشرك، ثم أصبحت تطلق على الشرك بعينه كما قال الله تعالى : ﴿ويعبدون من دون الله مالا يضرهم

وما لا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿﴾ ، والشفاعة مأخوذة من الشفع ، وهى ضم طلب الشافع إلى طلب المشفوع له ، وما عبد المشركون فى كل عصر صالحهم إلا بحجة أنهم يشفعون لهم عند الله ، وعملهم لهذه الغاية صادر بلا ريب عن اعتقادهم فى أوليائهم أنهم يملكون الشفاعة ، ولو كان عندهم عقل لأخلصوا العبادة لله وحده ، لأن الشفاعة وغيرها ملكه لا يشاركه فى ذلك أحد ، وهو الرحمن الرحيم الغفور الودود ، وهؤلاء يدعون العبيد الأموات ، أن يمنحهم ما يملكه الله وحده ، ولا يسألون مالك الملك بدل إذلالهم أنفسهم لأصنامهم وطواغيتهم ، وإذا كانوا لا يؤمنون بالقرآن ، يجوز فى عقل الإنسان أن يطلب الشيء ممن لا يملكه ، ان عقل المشركين هو الذى أباح للعبيد أن يسألوا الصخرة الصماء رحيق الجنة والميت امداد البركات ، فى الحياة ، والعاجز الضعيف الفقير أن يهب لهم القدرة ، والقوة والغنى ، وزين الشيطان لهم ، أن رحمة القبور ، أقرب إليهم من رحمة الخلاق الرحيم ، فاستجاروا بمن لا يجير نفسه ، من دود الأرض ، واسترحموا من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

إن الشفاعة ملك خاص لله وحده ، فمن الشرك القول : «نستلك الشفاعة يارسول الله» لأن السائل ذلك يسأله ما يملكه الله وحده ، فيحجب أن يقول : اللهم أجعلنا ممن يستحق شفاعة نبيك . بيد أن الشيطان زين لعباده أنه لا فرق بين الأمرين ، وأن التفريق بينهما تزمت وتنطع ، فى الدين قال الله تعالى : ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ . نفى الله عن سواه كل ما يتعلق به المشركون ، نفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك ، أو يكون عوناً لله ، فلم يبق إلا الشفاعة ، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال : ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ فالشفاعة التى يظنها المشركون ، منفية ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بأذنه﴾ . وأخبر النبى ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة أولاً ، بل يسجد لله ويحمده ثم يأذن له فى الشفاعة بقول الله له اشفع . وقال أبوهريرة : من أسعد الناس بشفاعتك يارسول الله ؟ قال من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» (١) فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص وهى محرمة على المشرك ، وحقيقتها تفضل الله سبحانه على أهل الاخلاص بمغفرته بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه ، وينال المقام المحمود ، فالشفاعة التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، والتى اثبتها هى ما كانت بإذنه ، ولمن رضى عنه ، وقد بين النبى ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والاخلاص .

(١) فتح البارى ج١ ص ١٩٣ وج١١ ص ٤١٨ .

مَنْهَجُ الْأَنْبِيَاءِ فِي الدُّسُخُورِ إِلَى اللَّهِ

فِي الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ

لِلدُّكْتُورِ رَبِيعِ بِنِّ هَارُوقِ مَرْخَلِي
رئيس قسم التنصت بالدراسات العليا بالجامعة

①

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى والدين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

وبعد : فإن الدافع لاختيار هذا الموضوع عدة أمور من أهمها :

أولاً : أن الأمة الإسلامية اختلفت في مناح شتى عقدية وغيرها وتفرقت بها السبل ، فنزل بها من الويلات - نتيجة لهذا التفرق ولعدم الاحتكام في قضايا الخلاف إلى كتاب الله وسنة نبيهم - ما لا يعلم مداه وفداحته إلا الله من تمزق صفوفهم وتأجج نيران الخلاف والخصومات فيما بينهم ، ثم تغلب أعداء الإسلام على أوطانهم واستباحتهم لبيضتهم واستعبادهم واستذلالهم .

ثانياً : حدوث تيارات فكرية برزت في الساحة الإسلامية بطرق ومناهج ، لإصلاح حال الأمة وانقاذها :

- منها السياسي .

ومنها الفكري .

ومنها الروحي .

وكل واحد من هذه التيارات يدعى ممثلوه أنه المنهج الإسلامي الحق الذي يجب اتباعه والذي لا ينقذ الأمة سواه .

هذان السببان مع أسباب أخر دفعتني إلى القيام بواجب من أعظم الواجبات وأهمها

ألا وهويان منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله في ضوء الكتاب والسنة وبيان مزاياه التي لا يشارك فيها وبيان ضرورة اتباعه وحده لأنه الطريق الأوحى الذى يوصل إلى الله ويكسب رضاه وهو السبيل الأوحى لانتفاذ الأمة والموصل إلى السيادة فى الدنيا والسعادة فى الأخرى .

نص المحاضرة مع اضافات واسعة ومهمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

فإن الله تعالى الخالق البارئ المصور العليم الحكيم قد خلق هذا الكون العظيم ودبره ونظمه بعلمه المحيط وحكمته العالية وقدرته الشاملة ، لحكم جليلة وغايات نبيلة بعيدة كل البعد عن العبث والباطل واللعب .

قال تعالى : ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ﴿الدخان : الآيتان ٣٨ ، ٣٩﴾ .

وقال تعالى : ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ (الاحقاف : ٣-١) .

وخلق الجن والإنس وبين الحكمة العظيمة والغاية الكريمة التى خلقهم من أجلها . قال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ . (الذاريات : ٥٦-٥٨) .

وقال تعالى : ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هورب العرش الكريم﴾ . (المؤمنون : ١١٥-١١٦) .

وقال تعالى : ﴿أيجسب الإنسان أن يترك سدى﴾ (القيامة : ٣٦) . أى لا يؤمر ولا ينهى .

وقال تعالى : ﴿تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ، ليلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾ . (الملك : ٢-١) . فأخبر تعالى أنه ما خلقهم إلا للابتلاء ، والاختبار ليتبين أيهم أحسن عملاً بانقياده لمنهج الله واتباعه لرسول الله .

وقال تعالى : ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً ، وأنزل من السماء ماءً ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ . (البقرة : ٢١-٢٢) . فأمرهم أن

يقوموا بالغاية التي خلقهم من أجلها، وبين لهم أنه قد وفر وهياً لهم كل الأسباب التي تساعدكم على القيام بمهمتهم العظيمة، وحذركم من الانحراف عن هذه الغاية، والتنكر لهذه النعم الجليلة، ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ .

وقال تعالى : ﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ . (الاسراء : ٧٠)، وما أكرم الله الإنسان هذا الاكرام وأحله هذه المنزلة الرفيعة إلا لعظم الغاية التي خلق من أجلها، ألا وهي عبادة الله وحده وتعظيمه وتنزيهه، عن كل النقائص وعن اتخاذ الشركاء والأنداد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وكثيراً ما نوه الله بكرامة الإنسان ومنزلته في هذا الكون، وأن هذا الكون، قد سخر لراحته وسعادته، حتى يؤدي وظيفته ويقوم بغايته التي خلق من أجلها على اتم الوجوه وأكملها .

قال تعالى : ﴿قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة، وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال، الله الذى خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ . (ابراهيم : ٣١-٣٣) .

اكرام الإنسان بالعقل والفطره

وإلى جانب هذه النعم العظيمة والاكرام الفائق لهذا الإنسان فقد منحه نعمة العقل الذى يرفعه إلى مستوى التكاليف الإلهية ويؤهله لإدراكها وفهمها، وزوده بالفطرة التى توائم ماياتى به رسل الله عليهم الصلاة والسلام من الوحي الكريم ومن الدين الحق الذى يشرعه الله وينهجه لهذا الإنسان على السنة الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال تعالى : ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (الروم : ٣٠) .

(١) الفطر: الابتداء والاختراع، والفطرة: الحالة، كالجلسة والركبة .

وقال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»، ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه : ﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها...﴾ الآية (١)

وعن عياض بن حمار، المجاشعي رضى الله عنه أن النبي ﷺ خطب ذات يوم، فقال في خطبته : «إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني في يومى هذا كل مال نحلته (٢) عبادى حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء (٣) كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم (٤) عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم، أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا...» (٥) الحديث.

اكرام البشر بارسال الرسل إليهم وأنزال الكتب عليهم

ثم لم يكلهم الله إلى ما آتاهم من فطرة وعقل، بل أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتب لتبين لهم الحق من الباطل ولتكون مرجعاً لهم، فيما يختلفون فيه، حتى لا يبقى للناس أى عذر، ولتقوم عليهم الحجة، فلا يبقى لهم حجة على الله بعد الرسل.

وكلف جميع الأمم بطاعة هؤلاء المصطفين الأخيار واتباعهم والإنقياد لهم وأنزل أشد

= والمعنى : أنه يولد على نوع من الجيلة، والطبع المنهية لقبول الدين فلو ترك عليها لاستمر على لزومها، وإنما يعدل عنه من يعدل بالآفة من آفات البشر والتقليد «النهاية لابن الأثير (٤٥٧/٣).

وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : في الفتح (٢٤٨/٣).

«اختلف الناس في المراد بالفطرة، وأشهر الأقوال، أن المراد بالفطرة : الإسلام قال ابن عبد البر : هو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى : ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ الإسلام.

(١) أخرجه البخاري ٢٣ - كتاب الجنائز ٧٩ - باب إذا أسلم الصبى فمات يصلى عليه، حديث ١٣٥٨، ١٣٥٩، ٩٢ - باب ما قيل في أولاد المشركين حديث ١٣٨٥، ٦٥ - كتاب التفسير، حديث ٤٧٧٥. ومسلم، ٤٦ - كتاب القدر، حديث ٢٢، ٢٣، وأبو داود، ٣٤ - كتاب السنن ١٨ - باب في ذراري المشركين، حديث ٤٧١٤، وأحمد في المسند (٢/٣١٥، ٣٤٦، ٣٩٣)، (٢/٢٣٣، ٢٧٥)، ومالك في الموطأ (١/٢٤١ : ١٦، كتاب الجنائز. حديث (٥٢)، والترمذي في السنن (١/٤٤٧)، ٣٣ - كتاب القدر ٥ - باب ما جاء كل مولود يولد على الفطرة، حديث (٢١٣٨)، وفي لفظ في البخاري ومسند أحمد والموطأ والترمذي «كل مولود يولد على الفطرة».

(٢) نحلته أعطيته، والمراد : كل مال أعطيته عبداً من عبادى فهو له حلال، والمراد : إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصلة والبحيرة والحامي وغير ذلك، وإنما لم تصر حراماً بتحريمهم وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق.

(٣) أي مسلمين.

(٤) أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم، عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل.

(٥) أخرجه مسلم (٤/٢١٩٧)، ٥١ - كتاب الجنة ٢٦ - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار،

حديث ٦٣.

العقاب بمن كذبهم وعاندتهم في الدنيا، وسوف ينزل بهم العذاب الأثكى والأشد، العذاب
السرمدى الخالد في دار الجزاء العادل .

ما هي رسالة هذه الصفوة المختارة من البشر صلوات الله وسلامه عليهم وما الذى
قدموه لأمتهم ؟

إن رسالتهم تشمل كل خير وتبعد من كل شر، فقدموا للإنسانية كل ما يسعدها في
الدنيا والآخرة، فما من خير إلا دلوا الناس عليه، ولا شر إلا حذروا الناس منه .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : كنا في سفر، فنزلنا منزلاً فمنا
من يصلح خبائه، ومنا من ينتضل^(١)، ومنا من هو في جشده^(٢) إذ نادى نادى رسول الله ﷺ
الصلاة جامعة^(٣) فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ، فقال : «إنه لم يكن نبي قبلى إلا وكان حقاً
عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل
عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء، وأمور ينكرونها . وتجيء فتن فيرقق^(٤) بعضها بعضاً،
وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن : هذه مهلكتى ثم تنكشف . وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن :
هذه هذه فمن أحب أن يرحل عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله، واليوم
الآخر، وليأت إلى الناس الذى يجب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً، فاعطاه صفقة يده
وثمره قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر» .

هذه رسالة كل الأنبياء تدل على كل خير وتحذر من كل شر، لكن من أين تنطلق
وبماذا تبدأ وعلى أى شىء تركز ؟

إن هناك دعائم وقواعد وأصولاً تركز عليها دعواتهم وتكون أول منطلقاتهم في دعوة
الناس إلى الله .

تلك الأسس والقواعد هي : (١) التوحيد ، (٢) النبوات ، (٣) المعاد . (٥)
هذه الأسس الثلاثة هي ملتقى دعواتهم وأصولها وقد أهتم بها القرآن غاية الاهتمام
وبينها غاية البيان وهي أهم مقاصده التي يدور عليها ويكررها، ويورد الأدلة العقلية

(١) من المناضلة، وهي : المرامات بالنشاب .

(٢) الجشدر : هي الدواب التي ترعى، وتبيت مكانها .

(٣) الصلاة جامعة، هي : بنصب الصلاة على الإغراء، ونصب جامعة على الحال .

(٤) أي يصير بعضها رقيقاً أي حفيفاً لعظم ما بعده .

(٥) ألف في بيان هذه الأسس الثلاثة الإمام الشوكاني كتاباً سماه : «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد، والمعاد
والنبوات» طبع دار الكتب العلمية بيروت لبنان، وقد ساق أدلته من القرآن والتوراة والأنجيل .

والحسية عليها في جميع سورة وفي غالب قصصه وأمثاله، يعرف ذلك من له كمال فهم وحسن تدبر وجودة تصور. وقد عنيت بها كتب الله بأجمعها واتفقت عليها الشرائع السأوية بأسرها .
وأهم هذه الأسس الثلاثة وأجلها وأصل أصولها هو توحيد الله تبارك وتعالى الذي تضمنته غالب سور القرآن، بأنواعه الثلاثة المشهورة بل تضمنته كل سورة من سور القرآن، فإن القرآن :

- (١) إما خبر عن الله واسمائه وصفاته، وهو التوحيد الخبرى .
 - (٢) وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادى الطلبي .
 - (٣) وإما أمر ونهى والزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد، ومكملاته .
 - (٤) وإما خبر عن اكرامه لأهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء التوحيد .
 - (٥) وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبي من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .
- فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم^(١).

توحيد الألوهية وأهميته

وسوف أتناول توحيد الألوهية وأهميته لسببين :

أولاً : أنه الجانب الأهم من دعوات الرسل الذي عرضه علينا القرآن ولأنه موضوع الصراع الدائر بينهم وبين خصومهم من المستكبرين والمعاندين من كل الأمم، ولا يزال موضوع الصراع إلى اليوم، ولعله يستمر إلى يوم القيامة ابتلاء واختباراً لورثة الرسل ورفعاً لمنزلتهم .

ثانياً : ان أخطر وأشد وأصعب انحراف مني به المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها في هذا الجانب في أكثر جهال المسلمين وفي كثير من مثقفهم والمتسبين إلى العلم منهم .
فلنبداً بعرض دعوات الأنبياء بصفة عامة ثم نعرض دعوات بعضهم بصفة خاصة .

(١) شرح الطحاوية ص ٨٨ الطبعة الأولى ١٣٩٢ نشر المكتب الاسلامي وأصله من كلام الامام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم -

رحمها الله .-

قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، فسيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (النحل: ٣٦)، وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . (الأنبياء: ٢٥)، وقال تعالى بعد أن ذكر قصص عدد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون ﴾ . (الأنبياء: ٩٢)، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل، كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ (المؤمنون: ٥١-٥٢).

قال الحافظ ابن كثير : قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ . يقول : دينكم واحد^(١). وفي معنى الآيتين من السنة، قوله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات^(٢) أمهاتهم شتى ودينهم واحد^(٣) ».

وقال تعالى عن أولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً، والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ (الشورى: ١٣). تلك دعوة الانبياء جميعاً وعلى رأسهم أولوا العزم منهم الأنبياء الذين يبلغ تعدادهم أربعة وعشرين الفا ومائة ألف^(٤) يسرون في دعوتهم في منهج واحد، وينطلقون من منطلق واحد، هو التوحيد، اعظم القضايا والمبادئ التي حملوها

(١) التفسير (٣٦٥/٥).

(٢) العلات - بفتح المهملة : الضرائر، وأصله من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى، كأنه علّ منها، والعلل : الشرب بعد الشرب وأولاد العلات : الإخوة من الأب، وأمهاتهم شتى «فتح الباري (٩/٦) وفي النهاية (٢٩١/٣)، الأنبياء أولاد علات «أولاد علات الذين أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد، أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة».

(٣) أخرجه البخاري ٦٠ - الأنبياء حديث (٣٤٤٣)، ومسلم (٤/١٨٣٧) ٤٣ - كتاب الفضائل، ٤٠ - باب فضل عيسى عليه السلام، حديث (١٤٥) وأحمد في المسند (٢/٣١٩، ٤٠٦، ٤٨٢).

(٤) إشارة إلى حديث أبي ذر أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٥/٤٤٧) وأحمد في المسند (٥/١٧٨) (٥/١٧٩) من طريق المسعودي عن أبي عمر الدمشقي عن عبيد بن الحسحاس عن أبي ذر.

وابن حبان كما في الموارد رقم ٩٤ وأبونعيم في الحلية (١/١٦٦-١٦٨) وأشار إلى طرق أخرى إلى أبي ذر، وأحمد (٥/٢٦٥) وابن أبي حاتم في تفسيره نقلا عن ابن كثير (٢/٤٢٣) والطبراني (٨/٢٥٨).

وهناك طرق أخرى عن أبي إمامه في عدد الرسل وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أخرجه الطبراني (٨/١٣٩) وابن حبان كما في الموارد رقم (٢٠٨٥).

قال ابن كثير وهذا على شرط مسلم وقال الهيثمي رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن خليد الحلبي وهو ثقة.

إلى الإنسانية جميعاً في جميع أجيالهم ومختلف بيئاتهم وبلدانهم وأزمانهم .
مما يدل على أن هذا هو الطريق الوحيد الذى يجب أن يسلك في دعوة الناس إلى
الله، وسنة من سننه التى رسمها لأنبيائه واتباعهم الصادقين، لا يجوز تبديلها ولا العدول
عنها .

نماذج لدعوات بعض الرسل

ثم إن الله تعالى أخبر عن بعض أفراد الأنبياء العظام كيف واجهوا أقوامهم وإذا بهم
يسرون في الخط العام الذى رسمه الله لهم وإذا بهم في المنهج الذى قرره الله لجميعهم لا تند
عنه دعوة أحد منهم :

قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله
إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما نراك إلا بشراً
مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل
نظنكم كاذبين ﴾ (هود : ٢٥-٢٧)

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون ، قال
الملأ الذين كفروا من قومه إننا لترك في سفاهة ، وانا لنظنك من الكاذبين ، قال يا قوم ليس بى
سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي ، وأنا لكم ناصح أمين ،
أوعجبتكم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ، لينذركم ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء
من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون قالوا أجتئنا
لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال قد وقع
عليكم من ربكم رجس وغضب اتجادلوننى في اسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها
من سلطان ، فانظروا إنى معكم من المنتظرين فأنجيناهم والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر
الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ (الأعراف : ٦٥-٧٢) .

وهكذا دعوات كل الأنبياء ، كلهم ساروا في هذا المنهج في الدعوة إلى توحيد الله
وعبادته وحده أولاً وواجههم أقوامهم - إلا من هدى الله - بالسخرية والتكذيب والاستهزاء ،
كما قال تعالى : ﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به
يستهزون ﴾ (الزخرف : ٦-٧) .

وما أشد التكذيب والاستهزاء والسخرية على النفوس المؤمنة الأبية ، إنها أشد عليهم
من وقع السيوف ومن السجون والتعذيب ولقد عبر عن هذا المعنى الشاعر العربى بقوله :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند
ولقد سألت عائشة رضی الله عنها النبي ﷺ فقالت له : «هل أتى عليك يوم كان
أشد من يوم أحد؟ فقال : لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم
العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت،
فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا
أنا بسحابة، قد أظلمتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال : إن الله قد سمع قول
قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال، لتأمره، بما شئت فيهم،
فناداني ملك الجبال، فسلم على، ثم قال : يا محمد! إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا
ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن اطبق عليهم
الأخشاب^(١)، فقال له رسول الله ﷺ : بل ارجو الله أن يخرج من اصلاهم، من يعبد الله
وحده لا يشرك به شيئاً^(٢) .

وقد ذكرت كتب السيرة بعض اجوبة هؤلاء الساخرة ومواقفهم المزرية، وأن رسول
الله ﷺ - عمد إلى نفر من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرافهم وهم أخوة ثلاثة، عبد ياليل
ومسعود، وحبيب... فجلس إليهم، فدعاهم إلى الله وكلمهم لما جاءهم له من نصرة
الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة، إن
كان الله أرسلك، وقال الآخر : أما وجد الله أحداً أرسله غيرك، وقال الثالث : والله لا
أكلمك أبداً، لأن كنت رسولا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك
الكلام، ولأن كنت تكذب على الله، ما كان ينبغي لى أن أكلمك. فقام رسول الله ﷺ،
وقد يئس من خير ثقيف^(٣) .

والشاهد من الحديث، والقصة أن ما يلقاه الأنبياء من السخرية والاستهزاء ومن أذى
المشركين السفهاء أشد على أنفسهم من كل بلاء حتى من المعارك الطاحنة التي تهزق فيها
الأرواح وتراق فيها دماء أصحابهم الزكية. فلقد قتل يوم أحد من أصحاب رسول الله ﷺ

(١) الاخشابان : جبلان بمكة، هما أبو قبيس والجبل الذي تقابله.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩ - كتاب بدء الخلق، حديث (٣٢٣١) ومسلم (١٤٢١/٣)، ٢٩ - باب ما لقي النبي ﷺ من أذى

المشركين والمنافقين، حديث (١١١).

وفي الحديث بيان دعوة رسول الله وصره في سبيلها وحلمه على قومه وانظر كيف استأنى بهم واستبقاهم من الهلاك الماحق الذي
اشفوا عليه املاً في الله ورجاء أن يخرج من اصلاهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً وياها من غاية نبيلة لا يعرفها إلا من ذاق نعمة
التوحيد وعرف مكانته.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١٣٥/٣)، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ط دار الكتب العلمية بيروت

(ص ١٠٥).

أكثر من سبعين شهيداً^(١)، فيهم مصعب بن عمير^(٢) وحمزة بن عبد المطلب^(٣) عم رسول الله ﷺ، وشج رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته^(٤)، ولقي مالقي هو وأصحابه من أذى المنافقين، ولقي مالقي قبل ذلك وهو بمكة وفي يوم بدر وغيرها من المشاهد، ومع كل ذلك يرى أن أشد ما لقيه هو يوم الطائف، لأنه لقي من السخرية والاحتقار ما لا تحتمله النفوس الأبية .

ومن هنا يقول رسول الله ﷺ : «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل»^(٥) فالأمثل ثم الأمثل هم الصالحون السائرون في مناهجهم في الدعوة إلى الله والداعون إلى ما دعوا إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده، ونبد الشرك بما سواه، وبنالهم من الأذى والبلاء مثل ما أصاب أسوتهم الأنبياء .

ومن أجل هذا ترى كثيراً من الدعاة يجيدون عن هذا المنهج الصعب، والطريق الوعر، لأن الداعي الذي يسلكه سيواجه أمه وأباه وأخاه وأحبابه وأصدقاءه وسيواجه المجتمع وعداوته وسخرياته وأذاه، يجيدون إلى جوانب من الإسلام لها مكائنها ولا يتنكر لها من يؤمن بالله لكن هذه الجوانب ليس فيها تلك الصعوبة والشدة والسخرية والأذى خصوصاً في

(١) قال البخاري - رحمه الله في ٦٤ - : المغازي ٢٦ - باب من قتل من المسلمين يوم احد، حديث ٤٠٧٨ حدثنا عمرو بن علي، حدثنا معاذ بن هشام، قال : حدثني أبي عن قتادة، قال : «ما تعلم حيا من أحيا . العرب أكثر شهيداً أغر يوم القيامة من الأنصار قال : قتادة : وحدثنا أنس بن مالك، أنه قتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون» .
(٢) عن خباب - رضى الله عنه - قال : هاجرنا مع النبي ﷺ، ونحن نبتغي وجه الله فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى - أو ذهب - لم يأكل من أجره شيئاً وكان منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطيت رجلاه خرج رأسه فقال النبي (ص) غطوا بها رأسه واجعلوا على رجله إلا ذخر أخرجه البخاري ٦٤ - كتاب المغازي ٢٦ - باب من قتل يوم أحد حديث (٤٠٨٢) ومسلم كتاب الجنائز . (٢/٧) مع شرح النووي . وأحمد في المسند (١٠٩/٥) . والنسائي (٣٢/٤) .

(٣) قصة استشهاده في البخاري ٦٤ - كتاب المغازي ٣٢ - باب قتل حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه - حديث (٤٠٧٢) ومسلم أحمد (٥٠١، ٥٠٠/٣) .

(٤) عن أنس - رضى الله عنه - قال : شج النبي ﷺ يوم أحد فقال : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، فنزلت : ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ (آل عمران ١٢٩) . أخرجه البخاري ٦٤ - كتاب المغازي ٢١ - باب ليس لك من الأمر شيء، بدون رقم ومسلم (١٤١٦/٣)، ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ٣٧ - باب غزوة أحد، حديث ١٠٤ . وفيه حديث سهل بن سعد برقم ١٠١ بلفظ جرح وجه رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه .

(٥) أخرجه الترمذي (٦٠٢/٤)، ٥٦ - باب ما جاء في الصبر على البلاء، حديث (٢٣٩٨) وابن ماجه (١٣٣٤/٢) ١٣ - باب الصبر على البلاء حديث (٤٠٢٣)، والدارمي (٢٢٨/٢) حديث ٢٧٨٦ وأحمد في المسند (١٧٢/١)، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) كلهم من طريق عاصم بن أبي النجود وهو صدوق له أوهام عن مصعب بن سعد قال : الترمذي حديث حسن صحيح . وفي تصحيح الترمذي له نظر وكأنه لاحظ في الحكم شواهدة فإن له شواهد :

١ - عن أبي سعيد الخدري أخرجه ابن ماجه (٢/٢٣٣٤) ٣٢ - باب الصبر على البلاء حديث (٤٠٢٤) قال في الزوائد أسنده صحيح نقلا عن محمد فؤاد . ٢ - من حديث فاطمة بنت اليان أخرجه أحمد (٣٢٩/٦) .

٣ - من حديث أبي هريرة أشار إليه الترمذي بقوله وفي الباب عن أبي هريرة وأخت حذيفة بعد إخراج حديث سعد .

المجتمعات الإسلامية فإن سواد الأمة الإسلامية يلتفون حول هذا اللون من الدعاة ويحيطونهم بهالة من التبجيل والتكريم لا سخرية ولا أذى اللهم إلا إذا تعرضوا للحكام وهددوا كراسيهم فإنهم حينئذ يقيمونهم بكل شدة كاحزاب سياسية تناوى الحكام وتهدد عروشهم، والحكام في هذا الباب لا يحابون قريبا ولا حميما ولا مسلما ولا كافرا .

وعلى كل حال نقول هؤلاء الدعاة مهما شنشنوا وطنظنوا ومهما رفعوا أصواتهم باسم الإسلام أربعوا على أنفسهم فإنكم خرجتم عن منهج الله وصراطه المستقيم اللاحب الذي مرت به مواكب الأنبياء واتباعهم في الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له ومهما تفلسفتم ورفعتم عقيرتكم باسم الإسلام فإنكم عن منهج الأنبياء الذي سنه الله لناكبون .

ومهما بذلت من الجهود وجستم دعوتكم ومنهجمكم فإنكم تشاغلون بالوسائل قبل الغاية وما اقل جدوى الوسيلة إذا أضرت بالغاية وضخمت على حسابها بل ياويل هؤلاء الدعاة ان أصرروا على المضي فيما ابتدعوه من مناهج وحرابوا منهج الأنبياء في الدعوة إلى توحيد الله تحت شعارات براءة تحلب ألباب البهلاء والجهلاء بمنهج الأنبياء .

إن الحديث عن دعوات الأنبياء إلى توحيد الله ومنهجهم وما لا قوا في سبيل ذلك من الأهوال والبلايا والمحن أمر لا يتسع له مجال كهذا .

ولسوف اقتصر على عرض دعوات خمسة منهم صلوات الله وسلامه عليهم وذلك سيجعلنا على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك :

١ — فأولهم نوح، أبو البشر الثاني، وأول رسول إلى أهل الأرض عاش هذا النبي العظيم عمراً مديداً ودهراً طويلاً ألف سنة إلا خمسين عاماً لبثها في دعوة قومه إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، لا يكل ولا يمل، ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً قال تعالى : ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه، أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم، قال: يا قوم إنى لكم نذير مبين، أن اعبدوا الله واتقوه، وأطيعون، يغفر لكم من ذنوبكم، ويؤخركم إلى أجل مسمى، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، لو كنتم تعلمون قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعاءي إلا فراراً، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم، جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكباراً، ثم إنى دعوتهم جهاراً، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً، فقلت: استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً، ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً، ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً، وجعل

القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجاً، والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم أخرجاً والله جعل لكم الأرض بساطاً، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً، قال نوح: رب إنهم عصوني، واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً، ومكروا مكراً كبيراً، وقالوا: لا تذرنا آلهتنا، ولا تذرنا وداً ولا سواعاً، ولا يغوث ويعوق ونسراً، وقد أضلوا كثيراً، ولا تزد الظالمين، إلا ضلالاً مما خطيئاتهم أغرقوا، فادخلوا ناراً، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴿نوح: ٢٥-١﴾ .

ماذا في دعوة هذا الرسول الكريم، وقد قص الله علينا خلاصة دعوته الكريمة التي استغرقت ألف سنة إلا خمسين عاماً .

إنها دعوة جادة إلى توحيد الله وعبادته وحده، في جهد دائم ما ترك وسيلة تمكنه إلا استخدمها لاقناعهم بدعوته سرا وجهاراً وترغيباً وترهيباً ووعداً ووعداً، واحتجاجاً واستدلالاً بالأدلة العقلية والحسية، من واقع أنفسهم وحياتهم ومما بين أيديهم من السماء والأرض، وما فيها من آيات وعبر وكل ذلك لم يجد فيهم نفعا ولا دفعهم إلى استجابة بل أصروا على كفرهم وضلالهم، واستكبروا واستكباراً .

أصروا على التشبث بأصنامهم ومعبوداتهم الباطلة، فكانت النتيجة لهذا الأصرار والاستكبار، الهلاك والدمار، وفي الآخرة الخلود في عذاب النار .

وهنا نساءل لماذا يستمر هذا النبي العظيم كل هذه الأماد الطويلة، ويبذل هذه الجهود الكبيرة، دون كلل أو ملل يدعو إلى مبدء التوحيد؟

ولماذا يمدحه الله ويشئى عليه الشناء العاطر، ويخلد ذكره ويجعله في عداد الرسل أولى العزم؟

هل دعوة التوحيد تستحق كل هذه العناية والاكبار؟، هل هذا المنهج وتحديد هذا المنطلق لهذا النبي الكريم مجانب للمنطق والحكمة والعقل؟ أو أنه عين الحكمة ومقتضى المنطق الصحيح، والعقل الواعي الرجيح لماذا يقره الله على سلوك هذا المنهج في الدعوة طوال ألف سنة إلا خمسين عاماً ويشيد به ويخلد اسمه وقصصه، ويكلف أعظم الرسل وأعقل البشر أن يجعل منه أسوة في دعوته وصبره؟

الجواب المنصف القائم على العقل والحكمة، ومعرفة مكانة النبوة والثقة العظيمة فيها وتقديرها حق قدرها، أن دعوة التوحيد ومحاولة القضاء على الشرك وتطهير أرض الله منه تستحق كل هذا وأنه عين الحكمة ومقتضى الفطرة والعقل .

وأن الواجب على كل الدعاة إلى الله أن يفهموا هذا المنهج، وهذه الدعوة الإلهية العظيمة، والمطلب الكبير، فيكرسوا كل جهودهم وطاقاتهم لتحقيقه ونشره في أرض الله كلها، وأن يتعاونوا ويتكاتفوا ويتحدوا، ويصدق بعضهم بعضاً، كما كان الرسل دعاة التوحيد يبشر سابقهم بلحاقهم ويصدق لاحقهم سابقه ويؤيد دعوته ويسير في مضماره .
يجب أن نعتقد أنه لو كان هناك منهج أفضل وأقوم من هذا المنهج لاختاره الله لرسله وآثرهم به، فهل يليق بمؤمن أن يرغب عنه ويختار لنفسه منهجاً سواه ويتناول على هذا المنهج الرباني وعلى دعائه .

وثانيهم : أبو الأنبياء وإمام الموحدين الحنفاء - إبراهيم خليل الله - الذي أمر الله سيد المرسلين، وخاتم النبيين وأمته باتباعه والائتساء بدعوته والاهتداء بهديه ومنهجه^(١) .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا، قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً، قال هذا ربي، فلما أفل قال لأن لم يهدني ربي، لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة، قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون، إنى وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين ﴾ (الأنعام : ٧٤-٧٩) . دعوة حارة قوية متدفقة إلى توحيد الله، وإخلاص الدين له ونبذ الشرك ورفضه، تبدأ بالأسرة وتمتد إلى الأمة تحارب الشرك بالأصنام، وتزلزل الشرك بالكواكب .

ويسلك خليل الله أقوم الطرق في المناظرة والمحاجة، لإقامة حجة الله ودحض الشرك وباطله وشبهه .

فالتعبير بالأصنام تحقير لآلهتهم المزعومة المصطنعة، وتسفيه لأحلامهم، ورسده للكواكب المذكورة واحداً تلو الآخر وهي تغيب وتأفل عنهم ليأخذ من حالها البرهان الواضح على بطلان ما يزعمون من ألوهيتها فمن يرعاهم ويحفظهم ويدبر شؤونهم وشؤون هذا الكون حين غيابها وأفولها، وإذن فعليهم أن يرفضوا هذه الآلهة المزعومة الباطلة ويكفروا بها،

(١) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ «سورة النحل،

الآية (١٢٢) .

وإلى قوله تعالى : ﴿ قل : صدق الله، فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ سورة آل عمران الآية ٩٥ .

وينفضوا أيديهم منها، ويتجهوا إلى إلههم الحق، الذى فطر السماوات والأرض، والذى لا يغيب ولا يحول يعلم جميع أحوالهم ومطلع على حركاتهم وسكناتهم، ويرعاهم ويحفظهم ويدبر شؤونهم حجج قوية يستمدّها من الواقع الملموس والكون المنظور .

قال تعالى : ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً، إذ قال لأبيه يأبى لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً يأبى إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً يأبى لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً، يأبى إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً، قال أراغب أنت عن آهتى يا إبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً، قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيواً واعتزلكم وما تدعون من دون الله، وأدعوا ربى، عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً، فلما اعتزلهم، وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب، وكلا جعلنا نبياً، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾ (مريم : ٤١-٥٠). دعوة حارة إلى التوحيد، قائمة على العلم والمنطق والعقل وعلى الخلق القويم، وتهدى الضال إلى الصراط المستقيم يقابلها تعصب أعمى يقوم على الهوى والجهل والعناد والمكابرة وإلا فكيف يعبد ويخضع لمن لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنه شيئاً .

إن علم التوحيد أيها القارىء، هو العلم الذى يعتز به جميع الأنبياء وبه يصلون على الباطل والجهل والشرك، فالجهل بهذا العلم - علم الأنبياء الهادى إلى الحق والمنقذ من الضلال والشرك - هو الجهل المميت والسّم القاتل الذى يقتل العقل والفكر. ﴿يأبى إنى قد جاءنى من العلم فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً﴾ .

وبعد هذه الجولات القوية الواعية يقوم بها إبراهيم ﷺ فى ميدان الدعوة إلى الله دعوة الأسرة والأمة التى أقام فيها على أبيه وقومه الحجج الدامغة واجه بهذه الدعوة العظيمة ذلك الحاكم الجبار الطاغية المتأله بكل قوة وشجاعة . قال تعالى : ﴿ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه، أن آتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت، قال أنا أحيى وأميت، قال إبراهيم، فإن الله يأتى بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر، والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ (البقرة : ٢٥٨) .

لقد دعا إبراهيم ﷺ هذا الطاغية المتأله إلى توحيد الله والإيمان بربوبيته وألوهيته، فطغى واستكبر عن الاجابة إلى توحيد الله والتنازل عن دعوى الربوبية . فحاجه إبراهيم وناظره هذه المناظرة النيرة البرهان الواضحة المعالم قال إبراهيم : ﴿ربى الذى يحيى ويميت﴾ أى هو المنفرد بالخلق والتدبير والإحياء والإماتة . فقال الغبى المتجبر : ﴿أنا أحيى

وأमित ﴿ أى أقتل من أردت قتله وأستبقي من أردت استبقاءه . وهذا الجواب فيه تمويه وتضليل للأغبياء وحيدة عن الجواب ، لأن قصد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن ربه ينشئ الحياة فى الإنسان والحيوان والنبات من العدم ، ويردها إلى الأموات بقدرته وأنه هو الذى يميت الناس والحيوانات بأجلها بأسباب ربطها وبغير أسباب ، فلما رآه إبراهيم يموه ويدجل تدجيلا ربما انطلى على الأغبياء والهمج ، قال ملزما له بتصديق قوله إن كان كما يزعم : ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ﴾ أى وقف متحيراً مشدوهاً ، منقطع الحجة قد أقم حجراً وأخرس لسانه وزهق باطله ، ﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ .

وفى هذا درس لمن ألقى السمع وهو شهيد ، إنها دعوة إلى التوحيد تمثل قمة الإخلاص والحكمة ، والعقل ، وتأتى البيوت من أبوابها وتنطلق من حيث أراد الله ، لا مصارعة على الملك ، ولا منافسة على الحكم ، ولو كان هدف إبراهيم عليه الصلاة والسلام الوصول إلى الحكم لسلك منهجا غير هذا المنهج ولوجد من يلتف حوله ويصفق له ولكن يأبى الله وأنبياءه وصالحو الدعوة من اتباع الأنبياء حقاً فى كل زمان ومكان إلا سلوك طريق الهداية والرشاد وبيان الحق وإقامة الحجة على المكابر والمعاندين .

وقد قام إبراهيم عليه السلام بهذا الواجب العظيم على أكمل الوجوه وأتمها أقام الحجة على أبيه وقومه حكومة وشعباً ، فلما رأى منهم الأصرار على الشرك والكفر والإقامة على الباطل والضلال لجأ إلى الإنكار والتغيير باليد والقوة .

فمن أين يبدأ بالتغيير وما هو الأسلوب الرشيد لتغيير هذا الواقع المظلم الجاثم على أمته أيشور على الدولة لأنها منبع الشرور والفساد ومصدر الشرك والضلال كيف لا والحاكم يدعى الربوبية ويصر عليها . لماذا لا يدبر انقلاباً يطيح فيه بهذه الحكومة الكافرة وعلى رأسها جبار متأله وبذلك يقضى على كل الوان الفساد والشرك وتقوم على انقاضه الدولة الإلهية بقيادة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والجواب حاشا الأنبياء وحاشا نزاھتهم من سلوك هذه الطرق أو التفكير فيها فإنها طرق الظلمة والجهلة والسفهاء وطلاب الدنيا والملك .

إن الأنبياء دعاة توحيد ورواد هداية إلى الحق وأنقاذ من الباطل والشرك فإذا امتدت أيديهم إلى التغيير وهم أعلم الناس وأعقلهم فلا بد أن تبدأ بالقضاء على منابع الشرك والضلال الحقيقية وكذلك فعل إبراهيم الحليم الحكيم الرشيد البطل الشجاع .

قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم

وأبأؤكم في ضلال مبين . قالوا أجتئنا بالحق أم أنت من اللاعنين . قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وأنصروا أهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين ﴿ (الأنبياء : ٥١-٧٠) . أتى الله إبراهيم رشده على علم بأنه أهل لذلك هذا النبى الحكيم الرشيد واجه فساداً فى العقيدة وفساداً فى الحكم . أمة انحط تفكيرها وضلت عقولها ، فعبدت الأصنام من الأخشاب والاحجار والكواكب وتحكمها حكومة فاسدة يقودها جبار متأله فأسلسلوا له القياد .

فمن أين يبدأ بالإصلاح ياترى ؟

أبيدأ بمصاولة الحاكم لأنه قطعاً يحكم بغير شريعة الله ويحكم بقوانين وتشريعات جاهلية ، لاشك فى ذلك ، ويدعى الربوبية جهاراً وحق التشريع أويبدأ بإصلاح العقيدة عقيدة الأمة وعقيدة الحكومة الجاهلية .

القرآن يحدثنا عن هذا النبى الرشيد إمام الأنبياء أنه بدأ بإصلاح العقيدة أى الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده ومحاربة الشرك والقضاء عليه وعلى أسبابه واقتلاعه من جذوره فدعاهم فعلاً إلى توحيد الله ونبذ عبادة ما سواه ، وجادلهم فى هذا المجال وجادلوه ، فدمغهم بالحجج القاهرة والبراهين الظاهرة وجردهم من كل سلاح من أسلحة الحجة حتى الجأهم إلى الاعتراف بالظلم والضلال والتعصب الأعمى والجمود القاتل على تقليد الآباء ﴿ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ .

فلما رأى إبراهيم أهواء جامحة وعقولا متحجرة ، دبر لهم مكيده ورسم لهم خطة حكيمة شجاعة لتحطيم آهتهم وتم تنفيذ هذه الخطة بكل قوة وشجاعة وجرأة وأثار هذا العمل البطولى (١) الحكومة والشعب ضده واستدعوه للمحاكمة العلنية ، ووجهوا إليه الإتهام

(١) هذا العمل البطولى العظيم وما سبقه من دعوة حكيمة إلى التوحيد ونبذ الشرك فى ميزان كثير من دعاة الإصلاح اليوم =

﴿أنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم﴾ فأجابهم بأسلوب تهكمى ساخر ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ فكان هذا الجواب التهكمى المفحم كالصاعقة العنيفة هوت على رؤوسهم المخبولة ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ ثم لما اعوزهم سلاح الحجة لجأوا إلى القوة سلاح كل عاجز عن الحجة في كل زمان ومكان، ﴿قالوا حرقوه وانصروا آهتكم إن كنتم فاعلين﴾ ونجى الله خليله إبراهيم ورد الله كيد الكافرين الخاسرين في نحورهم ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ .

وكان في نجاة إبراهيم من تلك النار العظيمة بعد أن حولها الله برداً وسلاماً على إبراهيم آية عظيمة من أعظم آيات الله على نبوته وصدقه وصدق ما جاء به من التوحيد وبطلان ما هم عليه من الشرك والضلال، وكافاً الله إبراهيم عليه السلام على هذه الدعوة الحكيمة وعلى هذا الجهاد والتضحية الرائعة ﴿ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ (الأنبياء: ٧١-٧٣) .

(ثالثهم) : يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم^(١) الذى أنزل الله فى شأنه سورة طويلة تقص لنا حياته الكريمة ومراحلها من طفولته إلى موته وكيف تقلبت به الأحوال، وما واجه من صعاب، فتلقاها بقوة النبوة وصربرها وحكمتها وحلمها .

رأى يوسف عليه السلام، فساد قصور الفراعنة فى مصر وظلمها وعرف عقائد الأمة التى عاش فيها عرف ما فيها من فساد ووثنية تتخذ الأصنام والابقار آلهة مع الله . قصة هذا النبى الكريم عليه السلام - طويلة نأخذ منها الإشارة إلى سجنه ودعوته .

= يعتبر من الاتهامات بالقشور والتوافه فلا حول ولا قوة إلا بالله إنها لا تعمى الأبصار، ولكنها تعمى القلوب التى فى الصدور .

(١) إشارة إلى حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : «الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام» . أخرجه البخارى ٦٠ كتاب الأنبياء باب ١٨ (٣٣٨٢، ٣٣٩٠) وأحمد فى المسند (٩٦/٢) . وإلى حديث أبى هريرة رضى الله عنه : سئل رسول الله ﷺ : «من أكرم الناس ؟ فقال اتقاهم الله، قالوا : ليس عن هذا نسألك، قال : فإكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله، قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا» . أخرجه البخارى ٦٠ الأنبياء، حديث (٣٣٨٣)، والترمذى (٢٩٣/٥) التفسير، باب ١٣، حديث (٣١١٦)، وأحمد فى المسند (٣٣٢/٢، ٤١٦) كلاهما عن طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة بلفظ : «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» .

قال تعالى : ﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً . وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين . قال لا يأتیکما طعام ترزقانه إلا نبأتکما بتأويله قبل أن يأتیکما ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (يوسف : ٣٦-٤٠) .

عاش هذا النبي الكريم عليه السلام فى القصور وعرف مفاصد الحكم والحكام عن كذب ، وذاق من ويلاتهم كيداً وظلماً واضطهاداً وسجناً وعاش بين ظهرانى أمة وثنية تعبد الأصنام والأبقار والكواكب ، فمن أين ينطلق للإصلاح ومن أين تكون نقطة البدء ؟ . هل يبدأ فى الدعوة إلى الله وهو مسجون ظلماً ويشاركه فى السجن مظلومون مثله من أثارتهم وتمييجهم على الحكام الظلمة المستبدين ، وهذا منطلق سياسى لاشك فيه والفرصة متاحة أمامه أو يبدأ بالدعوة من حيث انطلق آباؤه الكرام وعلى رأسهم إبراهيم خليل الله وإمام الدعاة إلى توحيد الله ومن حيث انطلق جميع رسل الله لاشك أن طريق الإصلاح الوحيد فى كل زمان ومكان هو طريق الدعوة إلى العقيدة والتوحيد وإخلاص العبادة لله وحده .

إذن فليبدأ يوسف من هذا المنطلق مقتدياً بآبائه الكرام ومعتزاً بعقيدتهم ومحقراً ومنندداً بسخف المشركين واتخاذهم أرباباً من دون الله من الأصنام والابقار والكواكب .

وبعد هذا البيان الواضح والدعوة الصارخة إلى التوحيد ونبد الشرك يؤكد دعوته وحجته بقوله : ﴿ أن الحكم إلا لله ﴾ (١) ثم يفسر هذه الحاكمة بتوحيد الله وعبادته وحده ﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ﴾ ، ويقول عن التوحيد ﴿ ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

(١) هذه الآية قاعدة أساسية من قواعد التوحيد كما بين الله ذلك على لسان يوسف عليه السلام ومن المؤسف جداً أن ترى كثيراً من دعاة الإصلاح السياسيين قد ابتعدوا بتفسيرها جداً عن مدلولها الأساسى إخلاص العبادة لله وحده إلى مدلول سياسى هو إقامة الدولة التى يزعمون أنها ستطبق شريعة الله فى الأرض بالنيابة عنه وبالغوا فى هذا الاتجاه حتى انسوا الناس المعنى الأصيل للآية ولا يفهمون عنها إلا المعنى الجديد فلا حول ولا قوة إلا بالله وهكذا عاملوا كل أو معظم آيات التوحيد وارتكبوا كل هذا تحت شعار الحاكمة وهذا شىء لم يسبقوا إليه فإلى الله المشتكى .

ويصل يوسف عليه الصلاة والسلام إلى أعلى منصب في هذه الدولة^(١) وهو يدعو إلى توحيد الله وقيم على دعوته ونبوته البينات . قال تعالى في بيان هذه الأمور : ﴿وقال الملك أئتوني به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ (يوسف : ٥٤-٥٥) .

وقال شاكراً لمولاه : ﴿رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفنى مسلماً والحقنى بالصالحين﴾ (يوسف : ١٠١) .

وقال الله في بيان دعوته : ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتهم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا . كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾ (غافر : ٣٤) .

من فقه سيرة يوسف عليه السلام التي عرضتها علينا هذه الآيات الكريمة أن الدعوة إلى التوحيد أمر لا بد منه ، وأن الشرك لا هوادة ولا مدهانة في محاربتة فلا يجوز السكوت عنه مهما كانت ظروف الداعية إلى الله بل لا يجوز لمسلم إطلاقاً أن يجابى ويدهن في أمره وهذا يبين مكانة العقيدة وعظم شأنها عند الله وعند أنبيائه ورسله وأن الفرق والبون شاسع جدا بينها وبين فروع الإسلام فلا يجوز أن يكون المسلم خصوصاً الداعية أن يكون كاهناً من كهنة المشركين أو سادناً لأصنامهم ، فإن فعل ذلك كان من المشركين الضالين .

أما الجانب التشريعي ، فإن قامت دولة الإسلام فلا بد من تطبيق شريعة الله ، والا ﴿فمن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ والكفر حينئذ على ما فصله علماء الإسلام من الصحابة وغيرهم قد يكون كفراً أكبر إذا كان يحتقر شرع الله ويستحل الحكم بغيره ، وقد يكون كفراً أصغر إذا كان يعظم شريعة الله ولا يستحل الحكم بغيرها لكن غلبه هواه فحكم بغير ما أنزل الله .

أما إذا كانت دولة الإسلام غير قائمة ، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها وللمسلم أن يتبوا منصباً في دولة غير مسلمة شريطة أن يقوم بالعدل وأن لا يطيعهم في معصية الله ولا يحكم بغير ما أنزل كما فعل نبي الله يوسف . تبوا منصب النيابة عن ملك كافر وما كان يحكم

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في الحسبة (ص ٧) .

«وكذلك يوسف الصديق كان نائباً لفرعون مصر وهو وقومه مشركون وفعل من العدل والخير ما قدر عليه ، ودعاهم إلى الإيثار بحسب الامكان» .

بشريعته ﴿... ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ (يوسف : ٧٦)، وكان يقوم بالعدل بين الرعية ويدعوهم إلى توحيد الله .

وفي هذا رد حاسم على من يهون من أمر عقيدة التوحيد وبجامل ويداجي في قضية الشرك الذي ملأ الدنيا وينظر إلى دعاة التوحيد وأعداء الشرك بعين الاحتقار والإزدراء ويربأ بنفسه ويشمخ بأنفه أن يهبط إلى مستوى دعاة التوحيد - وهو من دهاة السياسة وما اثقل على سمعه وقلبه أن يسمع أو يقول كلمة توحيد أو شرك . لقد أوقع هذا النوع من الدعاة أنفسهم في هوة سحيقة في حين يظنون أنهم في أعلى القمم الشاخحة . وهل يفلح قوم هذا موقفهم من دعوة الأنبياء إلا أن يتوبوا عما هم فيه إلى الله توبة نصوحاً .

(رابعهم) : موسى كلیم الله ، القوي الأمين ، نرى دعوته تتجه إلى التوحيد وتحمل في طياتها أنوار الهداية والحكمة .

لقد تربى موسى ودرج في قصور أعظم طاغية متأله وعرف من ألوان الفساد والكفر والطغيان والظلم والاستبداد في قصور الحكم عن مشاهدة واطلاع ما يصعب تصوره واحتماله ورأى ما نزل بقومه بنى إسرائيل من استعباد واستذلال واستحياء النساء وقتل الابناء ما فاق كل ظلم عرفته البشرية .

قال تعالى : ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستعطف طائفة منهم تذبح ابناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ (القصص : ٤) وكان قوم فرعون أهل وثنية دون شك .

فكيف كان بدء دعوة موسى هل اتجهت إلى إصلاح عقيدة هذه الأمة الوثنية أو بدأت بالمطالبة بحقوق بنى إسرائيل والمصارعة على الحكم والسعى الجاد في اقامة الدولة الإسلامية وانتزاع السلطة من أيدي الطغاة وعلى رأسهم فرعون المتأله .

لقد كانت دعوة موسى كغيرها من دعوات آبائه واخوته من الأنبياء لقد لقنه ربه أصل التوحيد واصطفاه لحمل رسالته والقيام بعبادته . قال تعالى : ﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلی آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاه نودى ياموسى . إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ . (طه : ٩-١٥) . هكذا في مفتتح

رسالته تملئ عليه عقيدة التوحيد ويكلف شخصياً أن يقوم بها في واقع نفسه ويتمثلها في حياته .

ثم يكلفه بالدعوة لهذا المبدء العظيم فيرسله إلى فرعون ويبين له طريق الدعوة وأسلوبها الحكيم الذي يواجهه به فرعون . قال تعالى : ﴿ اذهب إلى فرعون أنه طغى فقل هل لك إلى ان تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ (النازعات : ١٧-١٩) .

ويشد عضده بأخيه هارون مبالغاً في اقامة الحجة ويعلمها الرفق واللين في الدعوة فإن ذلك أقرب الطرق إلى هداية من يريد الله هدايته ﴿ اذهب إلى فرعون انه طغى . فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ (طه : ٤٣-٤٤) . فنفاذا أمر ربها ودعواه إلى الله قاصدين هدايته وتزكياته ليكون ممن يخشى الله ويتقى عواقب الشرك والظلم ، فلم يستجب لهذه الدعوة الهادئة الحكيمة فبرهن موسى على نبوته وصدق رسالته بآيات كبرى لكن الطاغية فرعون زاد طغيانا وتكذيباً ﴿ فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذ الله نكال الآخرة والأولى ﴾ .

ازدياد طغيان فرعون وعسفه وظلمه ومواجهة موسى وقومه هذا الطغيان بالصبر الجميل والتحمل :

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهتك . قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾ (الاعراف : ١٢٧) .

ما ذنب موسى وقومه في نظر هؤلاء المجرمين ، لا ذنب لهم إلا الدعوة إلى توحيد الله والثبات عليها والكفر بفرعون ومعبوداته ، ثم ما موقف موسى من هذه الانتهاكات البشعة والتي تجاوزت حدود الوحشية والهمجية . إنه الثبات على العقيدة والصبر الجميل والاستعانة بالله في مواجهة هذه الشدائد ثم انتظار العاقبة الطيبة والنصر نتيجة وثمرة حميدة لهذا الثبات والصبر ﴿ قال موسى استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ . (الاعراف : ١٢٨) .

ولما لم يبق أى أمل في إيمان فرعون وقومه واشتد البلاء على بنى إسرائيل كان مطلب موسى الوحيد من فرعون أن يترك لبنى إسرائيل حرية الخروج والهجرة إلى حيث يريد الله لهم انقاذاً لهم من التعذيب والتنكيل ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ﴾ . (طه : ٤٧) . إنها لدعوة سامية إلى توحيد الله فيها النور والحكمة وفيها الحرص على هداية المدعوين وتزكيتهم ،

وفيها أقوى أنواع الصبر في تحمل الأذى وفي مواجهة الطغيان والكبرياء وفيها معالجة المواقف الصعبة بالحكمة والصبر مع قوة الأمل في الله في نصر المؤمنين وإهلاك الظالمين وفيها دروس وعظات لمن يريد بدعوته وجه الله ويريد إصلاح البشر وربطهم بالله وهدايتهم إلى صراطه المستقيم .

(والخامس) : سيد الأنبياء وخاتمهم محمد بن عبد الله صاحب أعظم رسالة وأكملها وأشملها، الذي أرسله الله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ما ترك خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذرهما منه .

بماذا بدأ هذا النبي العظيم من مبادئ الإسلام ؟ ومن أين انطلقت دعوته ؟

إنه عليه الصلاة والسلام بدأ بما بدأ به كل الأنبياء وانطلق من حيث انطلقوا بدعواتهم من عقيدة التوحيد والدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده، من لا إله إلا الله محمد رسول الله وهل يتصور منه أو من أحد من الأنبياء أن يبدأ بغير هذا الأصل العظيم أصل أصول الرسالات كلها . لقد بدأ رسول الله ﷺ بهذا الأصل فأول شيء طرق مسامع قومه قولوا لا إله إلا الله . فقال المستكبرون منهم ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملا منهم أن امشوا واصبروا على آهتكم إن هذا لشيء يراد﴾ . (ص : 5-6) ، واستمر داعياً إلى هذا المبدأ الأسمى والمطلب الأعلى طيلة العهد المكي من رسالته ثلاثة عشر عاماً لا يكمل ولا يمل صابراً على كل ألوان الأذى في سبيل نشر هذا المبدأ فلم يفرض عليه من التشريعات وأركان الإسلام إلا الصلاة في السنة العاشرة من البعثة اللهم إلا ما كان يأمر به قومه من معالي الأخلاق كصلة الرحم والصدق والعفاف ولكن محور الدعوة وموضوع الصراع والخصومة إنما هو ذلك الأصل العظيم .

لقد كلف الله هذا النبي الكريم ﷺ تكليفاً خاصاً أن يقوم بهذا الأصل العظيم . قال تعالى : ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون﴾ . (الزمر : 2-3) .

وقال تعالى : ﴿قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل إنى اخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾ . (الزمر : 11-14) . ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ . (الأنعام : 162-163) .

كما أمره أن يقوم بدعوة الناس جميعاً إلى تحقيق هذا المبدأ والنهوض به . قال تعالى : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . (البقرة : ٢١-٢٢) ، وقال تعالى : ﴿وَالْهَكْمَ إِلَهُ وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ . (البقرة : ١٦٣) ، وقال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا مَنْ قَالَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ . (الاعراف : ١٥٨) . والآيات في هذا كثيرة والذي قدمناه إنما هو نموذج لمنهج رسول الله في الدعوة إلى التوحيد .

أما السنة ففيها الشيء الكثير الدال على افتتاح رسول الله ﷺ دعوته بالتوحيد واختتامها بذلك واستمراره فيها بين ذلك طوال حياته ﷺ :

١ - فعن عمرو بن عبسة السلمي رضى الله عنه قال : «كنت وأنا في الجاهلية ، أظن أن الناس على ضلالة ، وأنهم ليسوا على شيء ، وهم يعبدون الأوثان ، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً ، فقعدت على راحلتي ، فقدمت عليه ، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جراءً عليه قومه فتلطفت ، حتى دخلت عليه ، بمكة ، فقلت له : ما أنت ؟ فقال : أنا نبي . فقلت : وما نبي ؟ قال : أرسلني الله . فقلت : وبأى شيء أرسلك . قال : أرسلني بصلة الأرحام ، وكسر الأوثان ، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء . فقلت : ومن معك على هذا . قال : «حروعبد» . قال : ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به . . . (١) (الحديث) .

٢ - ولما وفد عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة المخزومي كلما النجاشي ملك الحبشة فقالا له يغريانه بالمسلمين المهاجرين إلى الحبشة : «أيها الملك إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنت . . . فسألهم النجاشي فقال : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الأمم ؟ . . . فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له : أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ، يأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا

(١) أخرجه مسلم (٥٦٩/١) ، ٦ - كتاب صلاة المسافرين . ٥٢ - باب اسلام عمرو بن عبسة ، حديث (٢٩٤) . وأحمد في

المسند (١١٢/٤) .

نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفاه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصللة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش، وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، قال فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وأمانا به واتبعناه، على ما جاء به فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك، ورجبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك. . . . (١) الحديث.

وفي أسئلة هرقل لأبي سفيان في مدة صلح الحديبية عن حال رسول الله ﷺ قال لأبي سفيان : ماذا يأمركم ؟ قال أبو سفيان قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمر بالصلاة، والصدق والعفاف، والصلة (٢).

فهذه الأحاديث توضح لنا دعوة رسول الله ﷺ في العهد المكي والمدني .

تعذيب أصحابه من أجل لا إله إلا الله عقيدة التوحيد :

لقد عذب أصحاب رسول الله ﷺ اشد ألوان التعذيب من أجل تمسكهم بالعقيدة وإخلاص العبادة لله وحده ونبذ الشرك والكفر. عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . قال : « أول من أظهر الإسلام سبعة، رسول الله ﷺ ، وأبوبكر وعمار، وأمه سمية، وصهيب وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله تعالى بعمه أبي طالب، وأما أبوبكر، فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم، فأخذهم المشركون، وألبسوهم أذراع الحديد، صهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وآتاهم على ما أرادوا، إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فاعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول : أحد أحد» (٣) .

(١) أخرجه الامام أحمد (٢٠٢/١)، (٢٩٠/٥) قال أحمد: ثنا يعقوب (يعنى ابن ابراهيم ابن سعد الزهرى) ثقة ثنا أبي عن محمد بن اسحاق حدثني محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أبي امية (يعنى أم المؤمنين رضى الله عنها) وهو اسناد صحيح إلا محمد بن اسحاق وقد صرح بالتحديث فحديثه حسن .

(٢) أخرجه البخاري ١ - كتاب بدء الوحي باب ٧ - حديث ٦ وهو حديث طويل .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٨٤/٣)، وصححه، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣٤٨/١) وقال وله اسناد

صحيح، وانظر في الاستيعاب (١٤٥-١٤٦) والخلية لأبي نعيم (١٤٩/١) .

وفي السيرة لابن هشام «وكان أمية بن خلف يخرج (يعنى بلالا) إذا حميت الظهره، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى. فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد(١).

وقال ابن إسحاق : وحدثني حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، قال : قلت لابن عباس أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم . والله إن كانوا ليضربون أحدهم ، ويجيعونه ويعطشونه ، حتى ما يقدر أن يستوى جالساً ، من شدة الضرب الذى نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له أهذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم افتداء مما يبلغون من جهده»(٢)، وهذا اسناد حسن صرح فيه ابن إسحاق بالتحديد فأمن تدليسه .

وتعذب سمية حتى الموت من أجل عقيدة التوحيد، لأنها كانت زعيمة سياسية . فعن مجاهد قال : «أول شهيدة في الإسلام سمية والدة عمار أتى أبو جهل فطعنها بحربة في قبلها»(٣)، وقال ابن سعد : «اسلمت قديماً بمكة، وكانت ممن يعذب في الله لترجع عن دينها، وصبرت ، حتى مر بها أبو جهل يوماً، فطعنها بحربة في قبلها، فماتت»(٤).

الاهتمام بعقيدة التوحيد في العهد المدني :

وبعد أن هاجر رسول الله وأصحابه إلى المدينة، وقامت دولة الإسلام على كواهل المهاجرين والأنصار، وعلى أساس التوحيد ظل الاهتمام بالتوحيد على أشده والآيات القرآنية تنزل به والتوجيهات النبوية تدور حوله ولم يكتف رسول الله ﷺ بكل هذا .
المبايعة
على التوحيد (١) فكان يبايع عليها عظماء الصحابة فضلاً عن غيرهم بين الفينة والفينة وكلما تسنح له فرصة للبيعة عليها . قال تعالى : ﴿يَأْيُمُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا

(١) (٣١٨/١).

(٢) السيرة لابن هشام (١/٣٢٠).

(٣) الطبقات لابن سعد (٨/٢٦٤-٢٦٥) قال أخبرنا اسماعيل بن عمر أبو المنذر، حدثنا سفيان الثوري، عن منصور عن

مجاهد قال : ذكره وهو اسناد صحيح إلى مجاهد .

(٤) الطبقات لابن سعد (٨/٢٦٤).

يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفرهن الله إن الله غفور رحيم ﴿المتحنة: ١٢﴾، وهذه الآية وإن كانت في بيعة النساء فإن رسول الله ﷺ كان يبايع على مضمونها الرجال .

فعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ في مجلس ، فقال : تبايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم - قرأ الآية التى أخذت على النساء ﴿إذا جاءك المؤمنات﴾ - فمن وفى منكم ، فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ، فعوقب به فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه» (١) .

وساق ابن كثير عدداً من الأحاديث التى فيها أن رسول الله كان يبايع النساء بمضمون هذه الآية (٢) منها حديث عائشة ، وحديث اميمة بنت رقيقة ، وحديث أم عطية (٣) ، وحديث سلمى بنت قيس إحدى خالات الرسول (٤) وحديث رائطه بنت سفيان الخزاعية (٥) . ثم قال : « وكان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة . ثم ساق حديث ابن عباس (٦) وأحاديث أخر .

أقول : وكذلك كان يتعاهد الرجال ، فمما يدل على ذلك حديث عبادة بن الصامت السابق ، ومن ذلك حديث عوف بن مالك الأشجعي رضى الله عنه قال : « كنا عند رسول الله ﷺ ، تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ وكنا حديث

(١) رواه البخاري ٢ - كتاب الايمان باب ١١ - حديث ١٨ ، ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ٤٣ - باب وفود الأنصار ، حديث (٣٨٩٢) ، ومسلم ٢٩ - كتاب الحدود ١٠ - باب الحدود كفارات لأهلها ، حديث (٤١-٤٤) ، والنسائي (١٢٨/٧) .

(٢) البخاري ٦٥ - كتاب التفسير تفسير سورة المتحنة ٢ - باب إذا جاءك المؤمنات مهاجرات حديث (٤٨٩١) وابن ماجه (٢/٩٥٩) ٢٤ - كتاب الجهاد ٤٣ - باب بيعة النساء حديث (٢٨٧٤) ٢ - مسند أحمد (٣٥٧/٦) والنسائي كتاب البيعة باب بيعة النساء (١٣٤/٧) .

(٣) أخرجه البخاري ٦٥ - كتاب التفسير تفسير سورة المتحنة ٣ - باب إذا جاءك المؤمنات يبايعنك حديث (٤٨٩٢) ومسلم كتاب الجنائز (٢٣٨/٦) بشرح النووي .

(٤) مسند أحمد (٣٧٩/٦) ٣٨٠-٤٢٣ ، وفي إسناده سليل بن أيوب قال الحافظ : مقبول وقال الذهبي في الكاشف (٣٨٨/١) وثق فهو حسن لشواهد .

(٥) مسند أحمد (٣٦٥/٦) .

(٦) في البخاري ٦٥ - كتاب التفسير ٣ - باب إذا جاءك المؤمنات يبايعنك حديث (٤٨٩٥) ومسلم ٨ - كتاب صلاة العيدين ٨ - باب صلاة العيدين حديث (١) والحديث طويل وفيه «فقال : يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً فتلا هذه الآية حتى فرغ منها ثم قال حين فرغ منها «انترن على ذلك ، فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها منهن : نعم يابى الله . . .» .

عهد بيعة فقلنا : بايعناك يا رسول الله ، ثم قال : ألا تبايعون رسول الله . فقلنا : بايعناك يا رسول الله ، ثم قال : ألا تبايعون رسول الله ؟ قال : فبسطنا أيدينا وقلنا قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نبايعك ؟ قال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس وتطيعوا - وأسر كلمة خفية - ولا تسألوا الناس شيئاً فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه» (١) .

٢ - وكان يرسل دعواته ومعلميه وقضاته وامراءه إلى الملوك والجبابرة في الأقطار المختلفة بدعوة التوحيد . فعن أنس رضى الله عنه - خادم رسول الله ﷺ - أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى (٢) وقيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله ، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ» (٣) .

يوضح ذلك نص كتابه إلى قيصر وأن هدفه الدعوة إلى التوحيد ونصه : «بسم الله الرحمن الرحيم . . . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد - فإنى ادعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فإن عليك إثم الأريسيين (٤) - ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا ، فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون» (٥) .

(١) أخرجه مسلم ١٢ - كتاب الزكاة ٣٥ - باب المسألة للناس حديث ١٨ ، وأبو داود ٣ - كتاب الزكاة ، ٧٢ - باب كراهية المسألة حديث (١٦٤٢) ، وأحمد (٢٧/٦) ، والنسائي (١٨٦/١) . وابن ماجه ٢٤ - كتاب الجهاد ، ٤١ - باب البيعة ، حديث (٢٨٦٧) .

(٢) وانظر كتابه إلى كسرى ملك الفرس في البداية والنهاية (٣٦٩/٤) بقريب من كتابه إلى قيصر .

(٣) أخرجه مسلم ٣٢ - كتاب الجهاد ٢٧ - باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل حديث ٧٥ (١٣٩٧/٣) ، والترمذي ، ٤٣ - كتاب الاستئذان ٢٣ - باب في مكاتبة المشركين ، حديث (٢٧١٦) من حديث أنس . وأحمد (٣٣٦/٣) من حديث جابر ، بلفظ «وكتب رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس إلى كسرى وقيصر ، وإلى كل جبار» .

(٤) الأريسيون : الفلاحون ، ويقال لهم : الأكارون ، والمراد : اتباعه من الضعفاء وغيرهم ، لأنه صار سبباً في استمرارهم على الشرك ، وهذا عدل الله وستته في الزعماء أنهم يحملون أوزارهم ، وأوزار من يتبعوهم في الانحراف عن التوحيد والحق ومخاربه ، قال تعالى : ﴿وليحملن أوزارهم ، وأوزار الذين يضلونهم﴾ ، وقال ﷺ : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، لا ينقص من أوزارهم شيئاً» .

(٥) أخرجه البخاري ١ - كتاب بدء الوحي ٧ - حديث ٦ ، وهو حديث طويل اختصرناه وأحمد (٢٦٢/١) .

وعندما وصل الكتاب النبوي إلى قيصر، أرسل إلى أبي سفيان بن حرب في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي ماد فيها رسول الله ﷺ أبا سفيان، وكفار قريش، فأتوه وهم بابلياء فوجه أسئلة إلى أبي سفيان من جملتها، قال قيصر: «ماذا يأمركم، قال أبو سفيان، قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمر بالصلاة، والصدق والعفاف والصلة»^(١)

(٢) وكان رسول الله ﷺ يجهز جيوشه للجهاد في سبيل الله لأعلاء كلمة التوحيد: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»، ويرشد قواده وجنوده إلى البدء قبل القتال بدعوة الناس إلى التوحيد. فعن بريدة بن الحصيب رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أوصاه بتقوى الله في خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين خيراً، وقال: «إذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال، فإن أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين . . . فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن، فارادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم، فإنكم لا تدرؤن ما يحكم الله فيهم ولكن انزلوهم على حكمكم، ثم اقضوا فيهم بعد ما شئتم»^(٢).

ومثل حديث بريدة حديث النعمان بن مقرن المزني رضى الله عنه أشار إليه كل من مسلم وأبي داود وابن ماجه، بقولهم قال علقمة فحدثت به مقاتل بن حيان، فقال: حدثني مسلم بن هيصم، عن النعمان بن مقرن، عن النبي ﷺ مثل ذلك.

(٤) وبعث معاذاً إلى اليمن أميراً وقاضياً ومعلماً فقال له رسول الله ﷺ في وصيته: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله. وفي

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه مسلم ٣٣ - كتاب الجهاد ٢ - باب تأمير الإمام الأمراء على البعث حديث (٣)، (٣/١٣٥٦-١٣٥٧). وأبو داود، ٩ - كتاب الجهاد ٩ - باب في دعاء المشركين، حديث (١٦١٢) (٨٣/٣)، والترمذي، ٢٢ - كتاب السير، ٤٨ - باب وصية النبي ﷺ في القتال، حديث (١٦١٧) (٤/١٨٢). وابن ماجه ٢٤ - كتاب الجهاد، ٣٨ - باب وصية الإمام، حديث (٢٨٥٨).

رواية إلى أن يوحدها الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فاخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوك لذلك ، فاخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فيأبك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(١) ، ولا يشك أنه كان يوصى كل دعائه وأمرائه وقضاته بمثل هذه الوصية .

(٥) وشرع الجهاد من أجل التوحيد وتطهير الأرض من فتنة الشرك . قال تعالى :

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ .

قال ابن جرير^(٢) رحمه الله : يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ : (وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم ، حتى لا تكون فتنة يعنى حتى لا يكون شرك بالله ، وحتى لا يعبد دونه أحد ، وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والانداد ، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان . . .) ، قال قتادة : حتى لا يكون شرك . وساق اسانيد هذا التفسير إلى قتادة ومجاهد والسدى وابن عباس ، وقال المراد بالدين الذى ذكره الله فى هذا الموضع : العبادة والطاعة لله فى أمره ونهيه . قال ومن ذلك قول الأعشى :

هودان الرباب إذ كرهوا الدين دراكاً بغزوة وحيال

ثم ساق إسناده إلى الربيع (ويكون الدين لله) يقول : حتى لا يعبد إلا الله ، وذلك لا إله إلا الله عليه قاتل رسول الله ﷺ وإليه دعا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله»^(٣) .

وقال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه لأبى بكر الصديق خليفة رسول الله حين عزم على قتال المرتدين بما فيهم مانعى الزكاة فقال له الفاروق رضى الله عنه : «كيف تقاتل

(١) أخرجه البخارى ٦٤ - كتاب المغازى ٦٠ - باب بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ، حديث (٤٣٤٧) ،

٩٧ - كتاب التوحيد ١ - باب ما جاء فى دعاء النبي ﷺ إلى توحيد الله تبارك وتعالى حديث ٧٣٧٢ ، ولفظ البخاري هنا «فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدها الله ، فإذا عرفوا ذلك . . . الحديث ، ومسلم ١ - كتاب الايمان ٧٥ - باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، حديث ٢٩ ، ٣٠ ولفظ الأخير ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل فإذا عرفوا ذلك . . . الحديث .

(٢) التفسير (٢/١٩٤-١٩٥) .

(٣) البخارى ، ٥٦ - الجهاد ، ١٠٢ - باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون

الله ، حديث (٢٩٤٦) . ومسلم - كتاب الإيمان ، ٨ - حديث (٣٣) ، وأبو داود ٩ - الجهاد ١٠٤ - باب على ما يقاتل المشركون ، حديث (٢٦٤٠) وابن ماجه ٣٦ - كتاب الفتن ، باب الكف عن من قال : لا إله إلا الله ، حديث (٣٩٢٧) .

الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله . فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله لا قاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها» (١) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم ، وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله» ثم قرأ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٌ﴾ . (٢) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله» (٣) .

ويلاحظ أن حديث عمر وأبي بكر وأبي هريرة وجابر قد اقتضت على قضية التوحيد ، ولم تتعرض لغيرها . ولعل السبب في ذلك شدة اهتمام الرسول ﷺ بهذه القضية بحيث أنه يحدثهم بها المرة تلو المرة مقتصراً عليها تنبيهاً منه لهم على عظمتها وأهميتها وإدراكا منه صلوات الله وسلامه عليه أنهم يفهمون أن كل أمور الإسلام من مقتضياتها ومستلزماتها وحقوقها خصوصا أركان الإسلام والإيمان .

أقول : وبسبب اقتصار الرسول ﷺ على ما يتعلق بالعقيدة كان استدلال عمر بهذا القدر وكان جواب أبي بكر في تأييد موقفه بقياس الزكاة على الصلاة «والله لا قاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . . .» ولو كان يحفظ ما رواه ابن عمر لاستدل به رأسا ، ولو كان عمر يحفظ ما رواه ابنه لما اعترض على أبي بكر ولو كان الحاضرون وفيهم أبو هريرة يحفظون ما رواه ابن عمر لذكروا الشيخين به ، ولعل السر هو ما أشرنا إليه شدة اهتمام الرسول بالعقيدة وإشادته بها وكثرة حديثه عنها .

(١) أخرجه البخارى ، ٢٤ - كتاب الزكاة ١ - باب وجوب الزكاة ، حديث (١٣٩٩) ومسلم - كتاب الايمان ٨ - باب حديث (٣٣) .

(٢) أخرجه مسلم ١ - كتاب الايمان ٨ ، حديث ٣٥ والترمذي ، ٤٨ - كتاب التفسير ، تفسير سورة الغاشية ، حديث (٣٣٤١) (٤٣٩/٥) ، وابن ماجه ٣٦ - كتاب الفتن ، باب (١) ، حديث (٣٩٢٨) .

(٣) أخرجه البخاري ٢ - كتاب الايمان ١٧ - باب ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم حديث (٢٥) ، ومسلم ، ١ - كتاب الايمان باب ٨ حديث (٣٦) .

ولما كان ابرز جانب وأهمه فيما جاء به الأنبياء من تعاليم ربانية هو توحيد الإلهية ، وكان هو في الواقع اعظم قضايا الصراع مع كل أعداء الأنبياء .

وكان ابرز جانب من جوانب الباطل والضلال مما اعلن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عليه الحرب من جهة واستمات المشركون المكذبون من كل الأمم في الدفاع عنه من جهة أخرى هو عبادة الأصنام والأوثان ، وقبور الصالحين والأنبياء وتقديسها وتقديم القرابين لها وتعلق قلوب البشر حكاما ومحكومين بها حبا ورجاء وخوفا وطمعاً وأملا في شفاعتها لهم عند الله في قضاء مطالبهم ، وكان هذا اللون هو الشرك الأكبر الذي لا يغفر كان لا بد - إلى جانب ما قدمناه من الحديث عن منهج الأنبياء خصوصا في الحديث عن ابراهيم إمام الخفاء ومحطم أصنام السخفاء - من ذكر طرف من حرب رسول الله ﷺ - الشعواء لهذا الشرك الأكبر ممثلة في سحق هذه الأوثان فعلا وفي سد كل ذريعة يستدرج بها الشيطان أوليائه من البشر إلى عبادتها واتخاذها أندادا من دون الله باسم الآلهة أو الأولياء أو تحت أى شعار مضل .

فمن تلك الحرب التي شنها القرآن ورسول منزل القرآن ﷺ قول الله تعالى : ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى الكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى إن هي إلا اسماء سميتنموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ (النجم : ١٩-٢٣) . فهذا تحقير لمعبوداتهم وأى تحقير وحرب عليها أي حرب ، وقول الله تعالى : ﴿... فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله . فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق﴾ (الحج : ٣٠-٣١) ، وقول الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ (المائدة : ٩٠) .

وعن عمرو بن عبسة رضى الله عنه وقد تقدم حديثه وفيه : «قلت : آله أرسلك ، قال : نعم ، قلت : بأى شىء أرسلك ، قال : بأن يوحد الله ، ولا يشرك به شىء ، وكسر الأوثان وصلة الرحم»^(١) .

وفي حديث جعفر بن أبى طالب : «... حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة ، والأوثان...»^(٢) الحديث .

(١) تقدم تخريجه (ص ٤٥) .

(٢) تقدم تخريجه (ص ٤٦) .

وفي حديث أبي سفيان مع هرقل ملك الروم : « يقول - يعنى رسول الله ﷺ - اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم » (١) .

وفي حديث أبي امامة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين . وأمرنى ربي عز وجل بمحق المعازف والمزامير ، والأوثان والصلب ، وأمر الجاهلية . . . » الحديث .

ولقد طاشت ألباب زعماء قريش وضائق ذرعا بهجوم رسول الله ﷺ على أوثانها سواء فيما أنزل عليه من القرآن أو في دعوته السرية والعلنية لأن هذا أمر لا هوادة فيه ، ودعوته الصادقة تقتضيه .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما مرض أبو طالب ، دخل عليه رهط من قريش ، فيهم أبو جهل ، فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ، ويفعل ويفعل ، ويقول ويقول : فلو بعثت إليه ، فنهيته ، فبعث إليه ، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت . . . فقال له أبو طالب : أى ابن أخى ، ما بال قومك يشكونك ، يزعمون أنك تشتم آلهتهم ، وتقول وتقول . قال : وأكثروا عليه من القول ، وتكلم رسول الله ﷺ فقال : يا عم إنى أريدهم على كلمة واحدة ، يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ، ففزعوا لكلمته ، ولقوله وقالوا : كلمة واحدة ! نعم وأبيك عشراً ، فقالوا : ما هى ؟ وقال أبو طالب : وأى كلمة هى يا ابن أخى ، فقال : لا إله إلا الله . فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ، وهم يقولون : اجعل الألهة الهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب » (٢) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « اجتمعت قريش يوماً فقالوا : انظروا اعلمكم بالسحر والكهانة والشعرفيات هذا الرجل الذى فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه ؟ فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة . فقالوا : أنت يا أبا الوليد ، فأتاه عتبة ، فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ

(١) تقدم تخريجه (ص ٤٦) .

(٢) مسند الامام أحمد (٣٦٢/١) والترمذى ٤٨ - كتب التفسير ، تفسير سورة (ص) حديث (٣٢٣٢) وفي اسناده يحيى عمارة ويقال ابن عباد ذكره ابن حبان في الثقات تهذيب التهذيب (٢٥٩/١١) وقال الحافظ مقبول . . . تقريب (٣٥٤/٢) وقال الذهبي : وثق الكاشف (٢٢٤/٣) ورواه ابن جرير (١٦٥/٢٣) باسناده إلى الأعمش ثنا عباد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ورواه من طرق إلى الأعمش عن يحيى بن عمارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ولم أقف لعباد على ترجمة وفي الاسناد ضعف وقد يحتمل التحسين . ملاحظة في مسند أحمد عباد بن جعفر ولم أقف له على ترجمة وقد نص ابن كثير أن أحمد رواه عن عباد غير منسوب انظر تفسير ابن كثير (٤٦/٧) .

فقال : أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال : إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك ، فقد عبدوا الآلهة التي عبت وإن كنت تزعم أنك خير منهم ، فتكلم ، حتى نسمع قولك ، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا ، وعبت ديننا وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً ، والله ما ننظر إلا مثل صيحة الجبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى ، أيها الرجل إن كان إنهابك الحاجة جمعنا لك حتى تكون اغنى قريش رجلاً ، وإن كان إنهابك الباءة فاختر أى نساء قريش فلنزوجك عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : فرغت ؟ قال : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم حتى بلغ - . . . فإن أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فقال عتبة : حسبك ! حسبك ! ما عندك غير هذا ؟ قال : لا . فرجع إلى قريش ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته ، قالوا : فهل أجابك ؟ قال : لا ، والذي نصبها بنية ، ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . قالوا : ويملك أيكلمك الرجل بالعربية ما تدرى ما قال ؟ قال : لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة»^(١) .

تلك الحرب كانت حرباً كلامية ونفسية بالنقد اللاذع والتحقير والسخرية ودمغ المشركين بالضلال والجهل مع اقامة الحججة عليهم ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ، وكان من آثار تلك الحرب ومن آثار تلك الدعوة والبيان أن هدى الله كثيراً من العرب من قريش وغيرهم ومن الأوس والخزرج وفتح الله بصائرهم وعرفوا حقيقة التوحيد ومكانته وعرفوا حقارة الشرك بالأوثان وغيرها وخطورته في الوقت نفسه على المشركين في الدنيا والآخرة .

وهذه ثمار طيبة عظيمة كانت نتيجة لجهاد رسول الله ﷺ وأصحابه وصبرهم في ميدان الدعوة الحقبة إلى الله وحملتهم المكثفة على الطواغيت والأوثان والأنصاب .

(١) المنتخب في مسند عبد بن حميد (ص ٢٠٨) رقم (١١٢١) ومسند أبي يعلى الموصلى (ل ١٠١) كلاهما عن أبي بكر بن أبي شيبة حدثنا علي بن محمد عن الأجلح عن الذيبال بن حرملة الأسدي عن جابر - رضى الله عنه - مرفوعاً قال ابن كثير في تفسيره (١٥١/٧) بعد أن ساق الحديث باسناده عن عبد بن حميد وأبي يعلى : «وقد ساقه البغوى في تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل عن الأجلح وهو ابن عبد الله الكندي وقد ضعف بعض الشيء عن الذيبال . . . » لكن الحافظ قال فيه «صدوق شيعى من السابعة» تقريب (٤٦/١) وقال الذهبي : وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائى وهو شيعى «الكاشف (٩٩/١) وشيخه الذيبال قال الحافظ : عن جابر وابن عمر والقاسم بن مخيمرة وعنه فطر بن خليفة وحسين والأجلح وحجاج بن أرطاة وثقه ابن حبان تعجيل المنفعة (٨٤) وبقيّة رجال الاسناد ثقات .

ثم لما أصبح للمسلمين شوكة ودولة انتقل رسول التوحيد ﷺ إلى خطوة عملية جديدة هي سحق الأصنام وتحطيمها وإبادتها وتطهير الأرض منها ادراكاً منه لخطورتها فهي المصدر الأساسى والخطير على الأجيال البشرية من فجر تاريخها وإلى أن ينتهى تاريخها كما قال إمام الحنفاء : ﴿واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام رب انهن اضلنن كثيراً من الناس﴾ (ابراهيم : ٣٥-٣٦). فمن هنا قرر الرسول الأعظم محمد ﷺ القيام بتطهير الأرض من الأوثان وتسوية القبور لأنها قرينة الأصنام في اضلال البشرية .

فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : دخل النبى ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصبا، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : «جاء الحق وزهق الباطل»، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد»^(١).

وجهاز رسول الله ﷺ جيشاً لذي الخلصة من المدينة إلى خثعم فغزاها. عن جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال : كان بيت في الجاهلية يقال له ذو الخلصة، والكعبة اليمانية، والكعبة الشامية، فقال لى النبى ﷺ : ألا تريحنى من ذى الخلصة ؟ فنفرت في خمسين ومائة فارس من أحمس ، فكسرنه وقتلنا من وجدنا عنده فأتيت النبى ﷺ فاخبرته ، فدعانا ولأحمس ، وفي لفظ للبخارى : وكان ذو الخلصة بيتا باليمن لخثعم وبجيلة فيه نصب تعبد يقال له الكعبة^(٢). ولفظه في البخارى ومسلم وأحمد : «ألا تريحنى من ذى الخلصة» . انظر إلى هذا التعبير النبوى فكان وجود الأوثان يقض مضجعه ويقلقه عليه الصلاة السلام فلا يقر له قرار ولا يجد راحة واعجب من واقع كثير من الدعاة اليوم يرون أمام اعينهم مظاهر الشرك فلا تحرك فيهم ساكنا ولا يحسبون لهذا الواقع المرحسابا بل الأدهى والأمرانهم يتدمرون ممن ينكرو ويتألم لهذا الواقع الجاهلى السىء .

وعن أبى الطفيل عامر بن وائلة، قال : «لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، وكانت على ثلاث سمرات فقطع السمرات، وهدم

(١) أخرجه البخاري ٤٦ - باب المظالم حديث (٢٤٧٧)، و٦٤ - كتاب المغازى ٤٨ - باب أين ركز النبى ﷺ رايته يوم الفتح، حديث (٤٢٨٧) و٦٥ - تفسير سورة الاسراء ١٢ - باب «وقل جاء الحق وزهق الباطل، حديث (٤٧٢٠) ومسلم ٣٢ - كتاب الجهاد ٣٢ - باب ازالة الأصنام من حول الكعبة، حديث (٨٧) والترمذي ٤٨ - كتاب التفسير ١٨ - تفسير سورة الاسراء حديث (٣١٣٨). والإمام أحمد في المسند (٣٧٧/١).

(٢) البخارى ٦٤ - كتاب المغازى ٦٢ - باب غزوة ذى الخلصة، أحاديث (٤٣٥٥، ٤٣٥٦، ٤٣٥٧)، ومسلم ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة، ٢٩ - باب من فضائل جرير بن عبد الله - رضى الله عنه -، حديث (١٣٦، ١٣٧). وأبو داود ٩ - كتاب الجهاد، ١٧٢ - باب بعثة البشراء (٢٧٧٢) (٢١٥/٣) والامام أحمد في المسند (٣٦٢، ٣٦٠/٤).

البيت، الذى كان عليها ثم اتى النبي ﷺ فاخبره فقال : ارجع فإنك لم تصنع شيئاً فرجع خالد فلما ابصرته السدنة وهم حجبته امعنوا فى الجبل، وهم يقولون : يا عزى، يا عزى فأتاها خالد، فإذا هى امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، فاخبره فقال : تلك العزى»^(١).

وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب، فبعث رسول الله ﷺ أبا سفيان ليهدمها وقيل على بن أبى طالب^(٢).

وسألت ثقيف رسول الله ﷺ أن يدع الطاغية وهى اللات، لا يهدمها، ثلاث سنين فأبى رسول الله ﷺ، فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً بعد قدومهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى . وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذرياتهم . . . فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها^(٣)، وعن عثمان بن أبى العاص أن رسول الله ﷺ أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كان طاغيتهم^(٤).

قال ابن جرير^(٥) : وكانوا قد استقوا إسمها من اسم الله فقالوا : اللات يعنون مؤنثة منه تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . وروى بأسانيد إلى قتادة، وابن عباس ومجاهد وابن زيد، إن اللات بتشديد التاء رجل كان يلت السويق للحجاج فهات فعكفوا على قبره فعبدوه .

وقال الإمام البخارى : حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبو الأشهب، حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : اللات والعزى . كان اللات رجلاً يلت سويق الحاج^(٦) .

(١) أخرجه النسائى فى التفسير فى الكبرى كما فى تحفة الاشراف (٢٣٥/٤) أخبرنا على بن المنذر، أخبرنا ابن فضيل، حدثنا الوليد بن جميع، عن أبى الطفيل، لما فتح رسول الله ﷺ مكة . . . الحديث، وهو اسناد حسن . وانظر تفسير ابن كثير (٤٢٩/٧-٤٣٠).

(٢) السيرة لابن هشام (١/٨٥-٨٦).

(٣) السيرة لابن هشام (٢/٥٤٠-٥٤١). وابن جرير (٣/١٤٠)، والبداية والنهاية (٥/٣٢) ط مكتبة المعارف وعيون الأثر لابن سيد الناس (٢/٢٢٨) وزاد المعاد (٣/٤٩٩-٥٠٠).

(٤) ابن ماجه ٤ - كتاب المساجد، حديث (٧٤٣)، وأبوداود ٢ - الصلاة، حديث (٤٥٠) ورجال ثقاة إلا محمد بن عبد الله ابن عياض «مقبول» .

(٥) فى التفسير (٢٧/٥٨، ٥٩)، والسيرة لابن هشام (٧٨-٨٩) وقد أطلال النفس فى الحديث عن أصنام العرب ومعبوداتها وبيان عبادتها .

(٦) فى الصحيح ٦٥ - كتاب التفسير، تفسير سورة النجم ٢ - باب «أفرأيتم اللات والعزى» .

ولما كانت فتنة القبور والأوثان من باب واحد، والرباط بينها وثيق جداً حيث إن الأوثان والأنصاب إنما نحتت وصورت وعبدت حبا وغلوا في الصالحين كما فعل قوم نوح بود وسواع ويعوث ويعوق ونسر لأنهم رجال صالحون كذلك إنما شيدت القبور وشدت إليها الرحال وقدمت لها القرايين حبا وغلوا في رجال صالحين وفي أقوام الله أعلم باحوالهم وبآلهم .

وعلى كل حال فلما كان النوعان من باب واحد لم يدخر رسول الله ﷺ وسعا في الأمر بهدم القبور ونهى أن يبنى عليها أو يزداد عليها ونهى عن تخصيصها ونهى عن الصلاة عليها وإليها وحذر التحذير الشديد من شرها ولعن من يتخذون المساجد عليها، عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لى على بن أبي طالب : ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ ، ألا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته^(١) .

ألا ترى أن رسول الله ﷺ كان يبعث عليا لتسوية القبور كما يبعثه لطمس التماثيل ولا تستبعد أن رسول الله ﷺ كان يجند رجالا هنا وهناك للقيام بهدم الأصنام والقبور كما مر بنا سابقا .

وعن ثمامة بن شفي قال : كنا مع فضالة بن عبيد، بأرض الروم برودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره، فسوى ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها^(٢)، وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : نهى رسول الله ﷺ أن يخصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه^(٣)، وعن أبي مرثد الغنوي رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا تصلوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها»^(٤) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «اللهم لا تجعل قبري وثنا

(١) أخرجه مسلم ١١ - كتاب الجنائز، ٣١ - باب الأمر بتسوية القبر، حديث (٩٣)، وأبو داود ١٥ - كتاب الجنائز، ٧٢ - باب في تسوية القبر، حديث (٣٢١٨)، والترمذي ٨ - كتاب الجنائز. ٥٦ - باب ما جاء في تسوية القبور، حديث (١٠٤٩) والنسائي (٧٣/٤). وأحمد في المسند (١/١٢٩، ٩٦).

(٢) أخرجه مسلم ١ - كتاب ٣١ - باب الأمر بتسوية القبر حديث (٩٢) وأبو داود ١٥ - كتاب الجنائز. ٧٢ - باب في تسوية القبور، حديث (٣٢١٩)، والنسائي (٧٣-٧٢/٤).

(٣) أخرجه مسلم ١١ - كتاب الجنائز، ٣٢ - باب النهي عن تخصيص القبور والبناء عليها حديث (٩٤) وأبو داود ١٥ - كتاب الجنائز، ٧٦ - باب في البناء على القبر حديث (٣٢٢٥)، والنسائي (٧٢/٤).

(٤) أخرجه مسلم ١١ - كتاب الجنائز ٣٣ - باب النهي عن الجلوس على القبر حديث (٩٨، ٩٧) وأبو داود، ١٥ - كتاب الجنائز، ٧٧ - باب كراهية القعود على القبر، حديث (٣٢٢٩).

يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(١).

وتستمر هذه العناية النبوية الواعية، لأخطار الأوثان والقبور إلى آخر لحظة من لحظات حياة الرسول الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه. فعن جندب بن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل، فإن الله قد اتخذنى خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتى خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»^(٢).

وعند احتضاره وبعد اختياره للرفيق الأعلى كان شغله الشاغل خطر فتنة القبور على هذه الأمة التي جهل أكثرها قدر هذه الاهتمامات النبوية وجهلت خطر هذه الفتنة الماحقة.

فعن عائشة أم المؤمنين وابن عباس رضى الله عنهم قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خيصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال: وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر مثل ما صنعوا^(٣).

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذى مات فيه: «ادخلوا على أصحابى، فدخلوا عليه وهو مقنع ببرد معافى^(٤) فكشف القناع، فقال: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٥).

(١) مالك فى الموطأ ٩ - كتاب قصر الصلاة فى السفر ٢٤ - باب جامع الصلاة حديث ٨٥ مرسل وأحمد (٢/٢٤٦) ثنا سفيان عن حمزة بن المغيرة عن سهيل بن أبى صالح عن أبىه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - مرفوعا وابن سعد فى الطبقات (٢/٢٤٠-٢٤١) من طريق مالك به، (٢/٢٤١-٢٤٢) من طريق سفيان عن حمزة به وأبو نعيم فى الحلية (٧/٣١٧) من طريق سفيان عن حمزة به.

(٢) أخرجه مسلم ٥ - كتاب المساجد ٣ - باب النهى عن بناء المساجد على القبور حديث (٢٣)، والنسائى فى الكبرى، كما فى تحفة الأشراف (٢/٤٤٣) وأبو عوانة (١/٤٠١) والطبرانى (٢/١٨٠) حديث (١٦٨٦). وابن سعد فى الطبقات (٢/٢٤٠) مختصراً.

(٣) أخرجه البخارى ٢٣ - كتاب الجنائز. ٦١ - باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، حديث (١٣٣٠) وباب ٩٦ - حديث (١٣٨٩) ومسلم، ٥ - كتاب المساجد باب النهى عن بناء المساجد على القبور حديث (١٩) عن عائشة، وحديث (٢٢) عن عائشة وابن عباس - رضى الله عنهم - والنسائى (٢/٣٣)، والامام أحمد فى المسند (١/٢١٨)، (٦/٣٤) والدارمى (١/٢٦٧).

(٤) برود باليمن منسوبة إلى معافر وهى قبيلة باليمن «النهاية لابن الأثير».

(٥) رواه أحمد فى مسنده (٥/٢٠٤) والطبرانى فى الكبير (١/١٢٧) حديث (٣٩٣)، (١/١٣١) حديث (٤١١) والطيالسى فى مسنده (ص ٨٨) حديث (٦٣٤) وفى اسناده قيس بن الرميح الأسدى قال الحافظ: «صدوق تغير لما كبر وادخل عليه ابنة ما ليس من حديثه، وفيه كثوم الخزاعى قال فيه الحافظ «مقبول» لكنه مع ذلك يصلح فى الشواهد.

وعن أبى عبيدة رضى الله عنه قال : كان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ : « اخرجوا يهود الحجاز من جزيرة العرب ، واعلموا أن شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد»^(١) .
سرح طرفك في مشارق بلاد المسلمين ومغاربها تر العجب العجاب تر واقعاً يتحدى هذه النصوص النبوية ، وإذا قرأت عليهم هذه النصوص وبينت لهم مصادرها وتمسك الصحابة واعيان الأمة بها واجهوك بتأويلات اسخف من تأويل من قالوا : «إنما البيع مثل الربا» . واتهموك بعداء الأولياء .

والآن نتساءل إذا كانت دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تحمل في طياتها كل خير ، وتحذر من كل شر ، فما بالناس نرى فيما قص الله علينا في كتابه وفي دراستنا لسنة وسيرة نبينا محمد ﷺ أن دعواتهم إلى التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره وأسبابه ووسائله قد أخذت مساحة كبيرة جداً من دعواتهم واستغرقت زمناً طويلاً من حياتهم حتى لكأنها كان هذا الجانب هو شغلهم الشاغل . فأين مواقفهم من الحكام الطغاة المستبدين ؟ .

والجواب إن ما انتهجه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو عين الحكمة والصواب ومقتضى العقل السليم .

فليس في مشاكل البشر سياسيتها واقتصاديتها واجتماعيتها من الخطر ما يساوى مشكلة الشرك ومضاره ولا يقاربها ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ، ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ ، ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق﴾ .

فالعقل والحكمة والفطرة تقتضى إذاً أن يبدأ بمحاربة خطر الشرك وأن تستمر دعوات الأنبياء واتباعهم على محاربتهم ما بقيت منه بقية أو بقى له شكل أو مظهر . فإذا أحاطت بأمة مشاكل عقائدية شرك يدمر عقيدتها ومشاكل اقتصادية ومشاكل سياسية فبأيها تبدأ المعالجة الحكيمة .

أما الأنبياء فلم يبدو إلا بمعالجة مشكلة العقيدة بكل قوة والبدء بمعالجة الأمر الأخطر أمر يتفق عليه كل عقلاء البشر . فمثلاً لورأى عاقل ثعباناً ونملة يدبان إلى إنسان لأملى عليه عقله أن يبادر إلى دفع الثعبان أو قتله لشدة خطره على هذا الإنسان ولا يمكن

(١) أخرجه الامام أحمد (١٩٥/١) ثنا أبو أحمد الزبيرى ، ثنا إبراهيم بن ميمون عن سعد بن سمرة عن سمرة بن جندب عن أبى عبيدة بن الجراح أبو أحمد الزبيرى ثقة ثبت / ع وإبراهيم بن ميمون مولى آل سمرة وثقه ابن معين وقال أبو حاتم محله الصدق «تعجيل المنفعة» (ص ٢٠) وسعد بن سمرة وثقة النسائى وابن حبان تعجيل (ص ١٠١) ، فهو اسناد صحيح إن شاء الله .

أن يلقى بالاً للنملة ولا لألف نملة .

ولورأى عقلاء أسداً هجوماً وجماعة من الفئران تهجم عليهم لحملوا حملة واحدة لصد هجوم الأسد وتناسوا الفئران ولو كان معها جماعة أخرى من الضفادع .

ولو أن مسافرين انتهى بهم السير إلى طريقين لا خيار لهم من سلوك أحدهما . أحدهما فيه براكين تقذف بلهبها ونيران تلتهم أشجارها واحجارها ، وثانيهما فيه الأشواك والرمضاء واشعة الشمس اللاهبة لما اختار عقلاؤهم إلا سلوك الطريق الثانى .

لنأخذ الآن أشد المفسد أعنى المفسد السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأشدّها فساد الحكم لنوازنها بفساد العقيدة فهل هما فى ميزان الله وميزان الأنبياء سواء . أو أن أحدهما أشد خطراً وأدهى وأمر عاقبة .

ففى ميزان الله وميزان أنبيائه أن أشدهما خطراً وأجدر بالتركيز عليه على مر الدهور والعصور وفى كل الرسالات إنما هو الشرك ومظاهرة الذى لا يضاويه فساد مهما عظم شأن هذا الفساد ، وبناء على هذا نعود فنقول : إنَّ بدأ جميع الأنبياء بإصلاح الجانب العقائدى ومحاربة الشرك ومظاهرة هو مقتضى الحكمة والعقل وذلك للأمر الآتية :

أولاً : أن المفسد المتعلقة بعقائد الناس من الشرك والخرافات وأنواع الضلال أخطر آلاف المرات من المفسد المترتبة على فساد الحكم وغيره ، فإن لم نقل هذا ونعتقد سفهنا من حيث لا نشعر جميع الأنبياء . ونعوذ بالله من الضلال . إن هذه المفسد تشمل الحاكم والمحكوم فالحكام أنفسهم فى كل زمان ومكان إلا المؤمنين منهم - يخضعون للأصنام والأوثان والقبور ويقومون بتشييدها وحمايتها وعبادتها وتقديم القرابين لها ، ويعتقدون أن لها سلطة غيبية قاهرة فوق سلطانهم المادى ، فهى تضرهم وتنفعهم بذلك السلطان الغيبى فى زعمهم وبتلك القوة القاهرة الخفية أو على أقل تشفع لهم عند الله فى تحقيق مآربهم .

وأوضح مثال لخضوع الحكام للأوثان ذلك الطاغية المتأله فرعون الذى قال متبجحاً : ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ، فقد حكى الله مقالة قومه له وهم يستثرون فيه الحمية والغيرة لأهته ومعبوداته فقال : ﴿وقال الملأ من قوم فرعون اتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآهتك﴾ . (الاعراف : ١٢٧) ألا ترى أكبر طاغية عرفته الأرض مع دعواه الربوبية يخضع للأوثان ويتخذها ألهة .

وهذا النمروذ ملك الكلدانيين الذى ادعى الربوبية يأمر باحراق إبراهيم عليه السلام عندما حطم الأصنام أخذاً بثأر هذه الأصنام لأنها آهته .

وهؤلاء ملوك الهند والفرس يعبدون الأوثان والنيران وملوك الرومان في الماضي وحكام أوروبا وأمريكا في الحاضر يعبدون الصلبان والصور، وكم من حكام المسلمين في الماضي والحاضر من فتنَ بالأموات وشاد عليهم القبور وتعلق بها قلبه حبا ورجاء وخوفا وارتكبوا ما خشيه رسول الله على هذه الأمة وحذر منه .

ومن هنا يتضح لك جدية منهج الأنبياء وأحقيته ، ويتضح لك أهمية مواقف الرسول الحاسمة من الأوثان والقبور كما يتضح لك حكمة إبراهيم وعمق فكره وبعد نظره حينما أطلقها صيحة مدوية تتجلجل في الافاق والأجيال ﴿واجنبنى وبني أن نعبد الأصنام، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم﴾ (إبراهيم ٣٥، ٣٦) .

فترى إبراهيم وهو على غاية من الحق والصواب - يجأر إلى الله من مخاطر الأصنام ولا يجأر إليه من مخاطر الحكام على جسامه فسادهم وخطرهم .

ثانياً : ان الله ما ارسل الرسل إلا ليعلموا الناس الخير وينذروهم بطش الله والشرقال تعالى : ﴿كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ (البقرة : ٢١٣)، وقال تعالى : ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الأنعام : ٤٨)، وقال تعالى : ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ (الكهف : ٥٦)، وقال تعالى : ﴿... رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ (النساء : ١٦٥) .

وقال رسول الله ﷺ : «ولا أحد أحب عليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين»^(١)، وقال تعالى : ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ (النحل : ٣٥)، وقال تعالى : ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ (النور : ٥٤)، وقال تعالى : ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ وهذه مهمة الانذار والتبشير والإبلاغ مهمة جليلة وعظيمة نبيلة يكفيها عظمة ونبلا أنها مهمة الأنبياء وتناسب مع مكائبتهم الرفيعة فإنها أشق وأعظم ما يتحملة البشر أو يتحملة ورثتهم

(١) أخرجه البخارى ٩٧ - كتاب التوحيد ٢ - باب قول النبي ﷺ لا شخص اغير من الله ، حديث (٧٤١٦)، ومسلم ١٩ - كتاب اللعان حديث (١٧) (١١٣٦/٢)، وأحمد في المسند (٢٤٨/٤) . والدارمي (٧٣/٢)، حديث (٢٢٣٣) .

من الدعاة الصادقين المخلصين السائرين في مناهجهم ولهذا قال رسول الله ﷺ : «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل». وقد ذكرنا سلفا مدى ما يواجهه الداعية إلى التوحيد من المشقة وكيف لا يستطيع غيرهم أن يجول في هذا الميدان .

ثالثاً : أن الله سبحانه وتعالى ، لم يكلفهم بإقامة دول وإسقاط أخرى وذلك في غاية الحكمة ، لأن الدعوة إلى إقامة دولة تلوح فيها المطامع لطلاب الدنيا وطلاب الجاه والمناصب وأصحاب الأغراض والأحقاد وأصحاب التطلعات والطموحات فما أسرع ما تستجيب هذه الأصناف للدعوة إلى قيام دولة يرون فيها تحقيق مآربهم وشهواتهم ومطامعهم .

لمثل هذه الاعتبارات - والله أعلم - وغيرها مما يعلمه الله الخلاق العليم الحكيم ابتعدت دعوات الأنبياء ومناهجهم عن استخدام هذا الشعار البراق الملوّح أو المصرح بالأطماع والشهوات العاجلة وسلكت منهجاً حكيماً نزيهاً شريفاً ينطوى على الابتلاء والاختبار فيتبعهم ويؤمن بهم كل صادق مخلص متجرد من كل المطامع والأغراض الشخصية ، لا يريد بإيوانه وتوحيده وطاعة رسل الله عليهم الصلاة والسلام إلا الجنة ومرضاة ربه ، ولا يخاف إلا من غضبه وأليم عقابه . ولهذا لا يتبعهم في الغالب إلا الفقراء والمساكين والضعفاء . قال تعالى - حكاية عن قوم نوح : ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ (الشعراء : ١١١) ، وقال عن قوم صالح : ﴿ وقال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه . قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذي آمتتم به كافرون ﴾ (الاعراف : ٧٥-٧٦) . وجاء في أسئلة هرقل لأبي سفيان ، « فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ . قال أبو سفيان ، فقلت : بل ضعفاؤهم . ثم قال هرقل : وسألتك أشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم اتباع الرسل » .

فالدعوة إلى إقامة دولة أسهل بكثير وكثير ، والاستجابة لها أسرع ، لأن أكثر الناس طلاب دنيا وأصحاب شهوات ولما ذكرنا من الأسباب والعقبات والصعاب في طريق دعوات الرسل نجد أنه لا يتبعهم إلا القليل فنوح ، لبث ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو إلى الله ومع ذلك ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ (هود : ٤٠) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عرضت علي الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق

فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لى هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ﴿١﴾.

وهذا إبراهيم الخليل قامع المشركين بالحجج الدامغة والبراهين قال الله تعالى فى شأنه وشأن من آمن له ﴿فأمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم﴾ (العنكبوت : ٢٦)، وهذا لوط يقول الله فى نجاته من معه من العذاب ولعلهن بناته فقط ﴿فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ (الذاريات : ٣٥-٣٦).

ولا يغض ذلك من منازل الأنبياء مثقال ذرة بل هم فى أعلى المنازل وهم أنبل الناس وأجل الناس وأكرمهم وفوقهم فى كل شأن فى الرجولة والشجاعة والفصاحة والبلاغة والبيان والنصح والتضحية وقد قاموا بواجبهم على أكمل الوجوه من الدعوة إلى التوحيد والتبليغ والتبشير والانداز فإذا قل اتباعهم أو لم يتبع بعضهم أحد فالعيب كل العيب على الأمم التى رفضت الاستجابة لدعوتهم لأنها فى نظرهم - لا تحقق لهم اغراضهم الدنيئة ومع ذلك ما كانوا طلاب ملك بل كانوا دعاة هداية وتوحيد ولا كانوا يعدون اتباعهم للثورات والانقلابات السياسية .

وقد يهدى الله قوم نبي من الأنبياء فيستجيبون له أو كثير منهم فتكون لهم دولة، ثمرة طيبة، لإيمانهم وتصديقهم وأعمالهم الصالحة، فيقومون بواجبهم من الجهاد لإعلان كلمة الله وتطبيق التشريعات والحدود وغيرها من الأمور التى شرعها الله لهم كما حصل لنبينا محمد ﷺ وأصحابه الكرام توج الله إيمانهم وعملهم الصالح وصبرهم الجميل على بغى المشركين وتطاولهم بأن نصرهم، وأظهر دينهم، وممكن لهم فى الأرض كما قال تعالى : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى، لا يشركون بى شيئاً﴾ ولقد عرض على رسول الله الملك بمكة فرفض إلا المضى فى الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك والأوثان أرسلت قريش - لما اقلقها أمر رسول الله ﷺ - عتبة بن ربيعة فأتى رسول الله ﷺ، فقال : «يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة، والمكان فى النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت بهم

(١) أخرجه البخارى ٧٦ - كتاب الطب ١٧ - باب من اكتوى أو كوى غيره حديث (٥٧٠٥)، ومسلم ١ - كتاب الايمان ٩٤ - باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث (٣٧٤). وأحمد فى المسند (٢٧١/١).

أحلامهم وعبت به آلهتهم، ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني اعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها، فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع. قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك حتى لا نستطيع دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال - حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاستمع مني. قال: أفعل. قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ... حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم، فهم لا يسمعون﴾. ثم مضى رسول الله ﷺ يقرأها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك... فذهب عتبة إلى قريش فلما جلس إليهم. قالوا ما وراءك يا أبا الوليد. قال: ورائي إني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يامعشر قريش: أطيعوني واجعلوها لي خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدالكم»^(١).

وروى ابن إسحاق بإسناده إلى ابن عباس أنه اجتمع نفر من قريش وعرضوا على رسول الله ﷺ - عرضاً قريباً من عرض عتبة ومقالاته لرسول الله ﷺ - بقوله: «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم فإن قبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن

(١) أورده ابن إسحاق في السيرة، قال حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال حدثت أن عتبة بن ربيعة وساق القصة. السيرة لابن هشام (١/٢٩٣-٢٩٤) ولها شاهد من حديث جابر أخرجه عبد بن حميد وأبو يعلى تقدم ترجمته وبه تقوى القصة وتعضد.

تردوه على أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم . . .»^(١). ومن هنا رفض رسول الله ﷺ طلب بعض القبائل أن يكون الأمر لهم بعد موته إن صح هذا الخبر .

قال ابن إسحاق : وحدثني الزهري أنه أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم، يقال له بيحرة بن فراس : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب. ثم قال : رأيت ان نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء، فقال له : أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله، كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه»^(٢).

وخلاصة هذا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما جاؤا لاسقاط دول وإقامة أخرى، ولا يطلبون ملكا ولا ينظمون لذلك أحزابا وإنما جاؤا الهداية البشر وانقاذهم من الضلال والشرك واخراجهم من الظلمات إلى النور وتذكيرهم بأيام الله ولوعرض عليهم الملك لرفضوه، ومضوا في سبيل دعوتهم، وعرضت قريش الملك على رسول الله فرفضه وقد عرض عليه أن يكون ملكا نبيا أو عبداً رسولاً فاختار أن يكون عبداً رسولاً. عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : «جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل فقال جبريل : إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل، قال : يا محمد ! أرسلني إليك ربك قال : أفملكاً نبياً يجعلك أو عبداً رسولاً. قال جبريل : تواضع لربك يا محمد، قال : بل عبداً رسولاً»^(٣).

ومن هنا ما كان يبايع الأنصار وغيرهم إلا على اللجنة وكانت بيعة الأنصار في أحلك الظروف وأشدّها فما كان فيها وعد بالمناصب لا الملك ولا الامارات ولا بالمال وبغير ذلك من حظوظ العاجلة. عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : «إنى من النقباء الذين بايعهم

(١) السيرة لابن هشام (٢٩٥-٢٩٦) قال ابن اسحاق حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعن عكرمة مولى ابن عباس، عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنها - قال : اجتمع نفر من قريش عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان . . . وهذا يقوى ما قبله ويشد كل منها الآخر.

(٢) السيرة لابن هشام (٤٢٤-٤٢٥) والسيرة النبوية للذهبي (ص ١٨٩-١٩٠).

(٣) مسند أحمد (٢/٢٣١) وابن حبان كفا في الموارد (ص ٥٢٥) رقم (٢١٣٧) كلاهما من طريق محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال الالباني وهذا اسناد صحيح على شرط مسلم - الصحيحه (٤/٣) - وله شاهد من حديث ابن عباس قال الالباني أخرجه البغوى في شرح السنة (٣/٤٧٣) وسنده ضعيف «لكنى لم أجده في الموضع المشار إليه».

رسول الله ﷺ وقال : بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل النفس التي حرم الله ، إلا بالحق ، ولا ننتهب ، ولا نعصي - بالجنة» .

وعن أبي مسعود الأنصارى رضى الله عنه قال : انطلق رسول الله ﷺ ومعه العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة ، فقال : ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة فإن عليكم من المشركين عيناً ، وإن تعلموا بكم يفضحوكم ، فقال قائلهم - وهو أبو أمامة : سل يا محمد لربك ما شئت ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله عز وجل ، وعليكم إذا فعلنا ذلك . فقال : أسألكم لربي عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأسألكم لي ولأصحابي أن تؤونا وتنصرونا ، وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم . قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : لكم الجنة . قالوا : فلك ذلك» (١) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : «مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة ، وفي المواسم بمنى ، يقول : من يؤينى ، من ينصرنى حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر كذا) فيأتيه قومه ، فيقولون : احذر غلام قريش ، لا يفتنك ، ويمشى بين رجالهم ، وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بعثنا الله إليه من يثرب ، فإويناه ، وصدقناه فيخرج الرجل منا ، فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ، ثم ائتمروا جميعاً ، فقلنا حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ، ويخاف ، فرحل إليه منا سبعون رجلاً ، حتى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين ، حتى توافينا ، فقلنا : يارسول الله نباعك . قال : تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقولوا فى الله لا تخافون فى الله

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٤/١١٩-١٢٠) قال : ثنا يحيى بن أبى زكريا بن أبى زائدة ، حدثنى أبى عن عامر يعنى الشعبى . ثم رواه بهذا الاسناد عن مجالد عامر الشعبى عن أبى مسعود الأنصارى ثم رواه بهذا الاسناد عن اسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى يقول : ما سمع الشيب ولا الشبان خطبة مثلها .

وقد تابع أبى الزبير الإمام الشعبى رحمه الله قال البزار رحمه الله «حدثنا محمد بن معمر ، ثنا قبصة ثنا سفيان عن جابر وداود (هو ابن أبى هند القشيرى ، ثقة متقن ، كان بهم فى آخر حياته تقريب) عن الشعبى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ للنبياء من الأنصار : «تؤونى وتمنعونى قالوا : نعم ، فما لنا . قال الجنة» ، قال البزار لا نعلمه يروى عن الشعبى إلا بهذا الاسناد انظر كشف الاسناد (٣٠٧/٢) .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذه الأحاديث وحكى تصحيح بعضها وحسن بعضها وقوى بعضها أنظر فتح البارى (٧/٢٢٢-٢٢٣) .

لومة لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم، ولكم الجنة. قال: فقمنا إليه فبايعناه وأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو أصغرهم فقال: رويداً يا أهل يثرب، فإننا لم نضرب أكباد الإبل الا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ وأن اخراجه اليوم مفارقة العرب، كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك، وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينة، فبينوا ذلك، فهو عذرکم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلبها أبداً، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة» (١).

ومن هنا أيضاً كان يربى أصحابه على القرآن والسنة وعلى الإيمان والصدق والإخلاص لله في كل عمل بعيداً عن الأساليب السياسية والاغراء بالمناصب العالية. فما كان يمني أحداً منهم قبل دخوله في الإسلام أو بعده بمنصب في الدولة هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحد عظماء الصحابة وأقواهم شخصية ما كان يعده رسول الله ﷺ بالمناصب ولا تتطلع نفسه إليها حتى جاء يوم خيبر أى بعد عشرين سنة من البعثة فاجأهم رسول الله ﷺ بقوله: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه فبات هو والصحابة يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها» وقال عمر رضى الله عنه ما أحببت الإمارة إلا يومئذ (١).

لأى شىء تطلع هؤلاء الصحابة الكرام للإمارة نفسها أم لنيل هذه المنزلة العظيمة حب الله ورسوله؟ ولماذا كان عمر بن الخطاب لا يحب الإمارة لو كان رسول الله ﷺ يحبها إليهم

(١) أخرجه الامام أحمد (٣/٣٢٢): ثنا عبد الرزاق، أنا معمر عن ابن خثيم عن أبي الزبير عن جابر، (٣/٣٣٩): ثنا اسحاق بن عيسى، ثنا يحيى بن سليم، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير أنه حدثه عن جابر أن رسول الله ﷺ وذكر الحديث.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه، كما في موارد الظمان (ص ٤٠٨) والحاكم (٢/٦٢٤) وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) أخرجه مسلم ٤٤ - كتاب الفضائل ٤ - باب فضائل على رضى الله عنه حديث (٣٣) عن أبي هريرة وحديث (٣٤) عن سهل بن سعد وفيه: فباتوا يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها وفيه رجل يحب الله ورسوله ويحب الله ورسوله.
وحديث (٣٢) عن سعد بن أبي وقاص وفيه: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحب الله ورسوله قال: فتناولنا لها.
والسبب هو ما ذكرناه حرصهم على هذه المنزلة الرفيعة عند الله لا على الإمارة نفسها.
وأخرجه البخارى ٥٦ - كتاب الجهاد ١٤٣ - باب فضل من اسلم على يديه رجل حديث (٣٠٩)، ٦٢ - كتاب فضائل الصحابة. ٩ - باب مناقب على رضى الله عنه حديث (٣٧٠١).
والترمذى ٥٠ - كتاب المناقب باب ٢١ - حديث (٣٧٣٤). (٤٣٨/٥) وابن ماجه في المقدمة ١١ - حديث (١١٧) اسناده ضعيف فيه محمد بن أبى ليلى وهو ضعيف.

ويريهم عليها ويمنيهم بها . بل كان ينفرهم منها ويحذرهم من الحرص عليها، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : «انكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعم المرزعة وبئست الفاطمة»^(١)، وينهى عن طلبها والحرص عليها، عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال : «قال لى رسول الله ﷺ : يا عبد الرحمن ! لا تسأل الإمارة . فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»^(٢) .

بل فوق كل هذه الأساليب يرسى قاعدة إسلامية تحرم المناصب على من يتعشقها ويحرص عليها، عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه قال : «دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بنى عمى فقال أحد الرجلين : يارسول الله أمرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل . وقال الآخر مثل ذلك، فقال : إنا لا نولي على هذا العمل أحداً سألته ولا أحداً حرص عليه»^(٣) . وفى لفظ عند مسلم : «ما تقول ياأبا موسى أو يا عبد الله بن قيس قال : فقلت : والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى أنفسهما وما شعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : وكأنى انظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلعت، فقال : لن أولاً نستعمل على عملنا من اراده، ولكن أذهب أنت ياأبا موسى ، فبعثه إلى اليمن ثم اتبعه معاذاً» ، وفى النسائى : «إنا لا نستعين فى عملنا بمن سألنا» .

قال الحافظ . قال المهلب : «الحرص على الولاية هو السبب فى اقتتال الناس عليها حتى سفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج وعظم الفساد فى الأرض بذلك ووجه الندم أنه قد يقتل أو يعزل أو يموت فيندم على الدخول فيها لأنه يطالب بالتبعات التى ارتكبتها، وقد فاته ما حرص عليه بمفارقتة . قال : ويستثنى من ذلك من تعنى عليه كأن يموت الوالى

(١) أخرجه البخارى ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٧ - باب ما يكره من الحرص على الامارة حديث (٧١٤٨) والامام أحمد فى المسند (٤٤٨/٢) والنسائى فى كتاب آداب القاضى (١٩٩/٨) .

«نعم المرزعة لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة، وتحصيل اللذات الحسية والوهمية حال حصولها وبنيت الفاطمة عند الانفصال عنها بموت أو غيره وما يترتب عليها من التبعات فى الآخرة فتح البارى (١٣/١٢٦) .

(٢) البخارى ٩٣ - باب من سأل الامارة وكل اليها حديث (٧١٤٧) ومسلم ٣٣ - كتاب الإمارة ٣ - باب النهى عن طلب الامارة والحرص عليها حديث ١٣ - والنسائى (١٩٨/٨) .

(٣) البخارى ٩٣ - كتاب الأحكام ٧ - باب ما يكره من الحرص على الإمارة (٧١٤٩) ومسلم ٣٣ - كتاب الامارة باب النهى عن طلب الامارة، حديث ١٤، ١٥ (١٤٥٦/٣) والنسائى (١٩٨/٨) .

ولا يوجد بعده من يقوم بالأمر غيره، وإذا لم يدخل في ذلك يحصل الفساد بضياع الأحوال» (١).

وعلى كل حال فالإمارة والقضاء من الأمور التي لا بد منها ولا تقوم حياة المسلمين إلا بها وبها تعصم الدماء والأموال. ولكن يجب أن نسلك في اختيار الأمراء والقضاة منهاج رسول الله ﷺ فلا تعطى هذه المناصب لمن يسألها أو يحرص عليها أو يرشح نفسه لها عن طريق الانتخابات مثلا فإن هذا من الحرص عليها، وإنما يختار لها الأكفاء علما وزهداً فيها وتقوى. ثم ينبغي أن نستفيد من هذا المنهج النبوي في التربية، فلا ينبغي أن ننشئ الشباب على حب القيادة والرئاسة والسيادة والإمارة فلونشأنهم على حب هذه الأشياء خالفنا هدى رسول الله ﷺ ووقعنا الشباب في المهالك وأي فلاح ننتظره في الدنيا والآخرة ان خالفنا منهج رسول الله ﷺ.

﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾.
(النور: ٤٧-٤٨).

قال رسول الله ﷺ :

« إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم .

ويكره لكم : قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة

المال »

(١) فتح الباري (١٣/١٢٦).

دفاع عن العقوبات الإسلامية

للسيد محمد بن ناصر السعدي

عميد كلية الشريعة بالجامعة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين . . .
أما بعد :

فقد سبق أن وعدت في مقالة سابقة تكلمت فيها عن مزايا التشريع الإسلامي، وأشرت إلى ما تتعرض له الشريعة الإسلامية من استنقاص وازدراء من قبل أعدائها، ومن قبل من يتظاهرون بأنهم من أبنائها، وقد وعدت في تلك المقالة أن أخص العقوبات الإسلامية بكلمة مختصرة موجزة، أبين فيها ما تبين من وجوه الحكمة فيها، وما تمتاز به عن العقوبات التي وضعها الإنسان وضعاً ارتجالياً متأثراً بأهوائه ورغباته، مسترشداً بنظرة القاصر، وتفكيره المحدود، وقبل أن أدخل في موضوع العقوبات، أقدم بكلمة قصيرة عن الجريمة ونظرة الإسلام إليها، فأقول مستعيناً بالله :

أولاً : تعريف الجريمة :

الجريمة عند أهل اللغة تأتي بمعنى الجناية وبمعنى الذنب. قال في اللسان :
وجرم إليهم وعليهم جريمة وأجرم : جنى جناية^(١).

وفي تاج العروس، والجرم بالضم الذنب كالجريمة. وقال : والمجرمون في قوله تعالى : ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ الكافرون لأن الذي ذكر من قصتهم التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها قاله الزجاج^(٢)، والذي يلفت النظر، أن لفظة الاجرام وردت في كثير من الآيات الكريمة، وكلها والله أعلم يقصد بها الكافرون أو المشركون ونحوهم من المكذبين والمنافقين. كما نقله صاحب التاج عن الزجاج، كما ورد في قوله تعالى : ﴿سيعيب الذين أجرموا صفاراً عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ الأنعام : ١٢٤ .

(١) لسان العرب لابن منظور ج/١٢ ص ٩١ .

(٢) تاج العروس للزبيدي ج/٨ ص ٢٢٤ .

وقوله تعالى : ﴿انه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ .
(طه : ٧٤) (١) .

أما عند الفقهاء فقد عرفها الماوروى بقوله : الجرائم محظورات شرعية زجر الله تعالى عنها بحد أو تعزير (٢) .

وقوله تعالى : ﴿يود المجرم لو يفتدى من عذاب يؤمئذ ببنيه﴾ ، (المعارج : ١١) ، وقوله تعالى :

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ (القلم : ٣٥) ، وهى تصل إلى أكثر من خمسين آية (٣) ، بينما فى السنة لم ترد هذه الكلمة على لسان رسول الله ﷺ إلا فى حالات قليلة جداً ، كما فى حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : «إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شىء لم يحرم فحرم من أجل مسألته» . أخرجه البخارى (٤) .

وحديث عائشة رضى الله عنها قالت : قيل لها إن ابن عمر يرفع إلى النبى ﷺ إن الميت يعذب ببكاء الحي ، قالت : وهل أبو عبد الرحمن ، إنما قال إن أهل الميت يبكون عليه ، وأنه ليعذب بجرمه (٥) .

ولم تستعمل هذه الكلمة من قبل الفقهاء فى الصدر الأول بمعنى الجنابة إلا فى حالات قليلة ، فقد بوب البخارى رحمه الله فى كتابه على حديث كعب بن مالك رضى الله عنه فى قصته المشهورة لما تخلف هو ومن معه عن غزوة تبوك ، بوب بقوله : باب هل للإمام أن يمنع المجرمين وأهل المعصية من الكلام معه والزيارة ونحوه (٦) مع أن الحديث كما هو معروف لم يتضمن هذه الكلمة ، وقد ذكر الحافظ رحمه الله أن رواية ابن التين الاسماعيلى والجرجاني ، لم تكن بلفظ المجرمين ، وإنما بلفظ المحبوس بدل المجرمين . كما بوب فى الدييات بقوله : باب إثم من قتل ذمياً بغير جرم ، وساق حديث عبد الله بن عمرو بهذا الصدد (٧) ، مع أنه لم يتضمن هذه الكلمة ، ومثل ذلك فعل فى كتاب الجزية فعنون بهذا العنوان وساق الحديث .

فقد يكون السلف رضى الله عنهم يتخرجون من اطلاق هذه الكلمة فى حق العصاة من المسلمين لما لاحظوه من ورودها فى القرآن الكريم فى حق الكفار فى أكثر المواضع ، وإن

(١) أنظر تفسير النسفى ج/٣ ، ج/٤ ص ٦٠ ، ٣٤١ ، ص ٢٨٢ .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢١٩ .

(٣) وانظر القرطبى ج/١٩ ص ٢٦٧ ، ج/١٨ ص ٢٨٦ ، ٢٤٦ .

(٤) أنظر فتح البارى ج/١٣ ص ٢٦٤ .

(٥) المسند ج/٦ ص ٥٧ ، الفتح الربانى ج/٧ ص ١١٦ .

(٦) انظر فتح البارى ج/١٣ ص ٢١٦ .

(٧) انظر فتح البارى ج/١٢ ص ٢٥٩ ، ج/٦ ص ٢٦٩ .

كان لا يمتنع استعمالها لغة في هذا الموضع، أعنى موضع الجناية . . . والله أعلم .

ثانياً : نظرة الإسلام إلى الجريمة :

إنه باستقراء النصوص من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة نلاحظ أن نظرة الإسلام إلى الجريمة - الجناية - نظرتة إلى الظاهرة العادية فهو يعتبر الجريمة جزءاً من المجتمع الإنساني لا تنفك عنه . فكما أن النقص والتقصير لا ينفك عن الإنسان، وبالتالي عن المجتمع الإنساني، فإن الجريمة كذلك، فهي ليست إلا صورة من صور النقص والتقصير الذي يعتبر صفة ملازمة لبني آدم في هذه الحياة يقول سبحانه وتعالى عن الإنسان : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ . (عبس : آية ١٧) ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ (العلق : ٦) . ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ . (الاسراء : ١١) . ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ . (الأحزاب : ٧٢) وفي الحديث عن أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة : قد كنت كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول : «لولا أنكم تذبون لخلق الله تبارك وتعالى قوماً يذنبون فيغفر لهم» . رواه أحمد^(١)، وفي الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»^(٢) . أخرجه الترمذى . وقال هذا حديث غريب، والحديث وإن اختلف في صحته فمعناه صحيح .

إذن فالجريمة بحد ذاتها كظاهرة اجتماعية، تعتبر في نظر الإسلام أمراً مسلماً به، ولا بد منه لأن الكمال لله سبحانه، والعصمة لله وحده . ولكن كون الجريمة ظاهرة لا بد منها، لا يعنى هذا أنه يسلم بوجودها وتترك في المجتمع لتنمو وتنتشر وتكاثرون أن تستنكر وتحارب، بل إن الإسلام وضع لها الحل السليم والعلاج الشافي والحكم العادل، فالإسلام يحارب تكاثر الجريمة وتصاعدها، إلا أنه من الأمور المسلم بها أنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يخلو مجتمع من جريمة، ولو كان ذلك ممكناً، لكان المجتمع النبوي في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين، لكان هذا المجتمع أولى المجتمعات وأقربها إلى الخلو من الجريمة واحراها بالقضاء عليها، إلا أنه من المعروف أن هذا المجتمع الطاهر النظيف قد وجدت فيه الجرائم على اختلاف أنواعها، فالإسلام لا ينظر إلى المجتمع الإنساني نظرة مثالية خيالية، تهدف إلى إنهاء الجريمة من المجتمع والقضاء عليها قضاء مبرماً، لأن من المبادئ الرئيسية أن الانسان مبتلى بالخير والشر - والله سبحانه قد سلط عليه

(١) المسند ج/٥ ص ٤١٤ وهو صحيح وقد أخرجه مسلم والترمذى أنظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ج/٤ ص ٣٤٥ .

(٢) جامع الأصول ج/٢ ص ٥١٥، سنن الترمذى ج/٧ ص ١٩١ وراجع كشف الخفاء ج/٢ ص ١٧٦ واسنى الطالب

للحوت البيروتي ص ١٦٧ .

الشیطان، ابتلاءً وامتحاناً، فإدام الشیطان موجوداً، فالجريمة موجودة لأنه هو الذى یوسوس بها فى نفس الإنسان، وهو الذى يدعوہ إلى ارتكابها ویحسنها له ﴿یعدہم ویمنیہم وما یعدہم الشیطان إلا غروراً﴾ (النساء : ۱۲۰) ﴿قال رب بما أغویتنى لأزینن لهم فى الأرض ولأغوینہم أجمعین إلا عبادك منهم المخلصین﴾ (الحجر : ۳۹-۴۰).

والآیات بهذا الشأن كثيرة جدا والمسألة واضحة. إلا أن الإسلام وهو یسلم بوجود الجريمة لا یتركها هكذا كما أسلفت بل یسعى إلى تقلیلها، ووضعها فى حجم معین ویسعى إلى حصر آثارها والتخفيف من نتائجها، ومن ناحية أخرى فالإسلام بهذه النظرة لا یقطع خط الرجعة على المجرمین، بل یدعوهم ویطالبهم بالعودة إلى المجتمع، ویعيد لهم اعتبارهم، ولا یجعل من مقارفتهم للجريمة أياً كانت سبباً فى نبذهم وطردهم إلا بقدر محدود، عندما یصرون على ارتكاب الجريمة ویرتكسون فى الاجرام حیث لا تجدى فیهم الموعظة^(۱)، فإنه فى هذه الحالة ینتقل إلى العقوبة ومع العقوبة كذلك لا یعتبرهم منبوذین، بل یعتبرهم جزء من المجتمع، ویترك لهم الفرصة لیعيدوا الاعتبار إلى أنفسهم إذا كانوا أحياء، وإذا كانوا فى عداد الأموات - فى حالة العقوبة المثلثة - فهو یعتبرهم مسلمین، لهم ما للمسلمین من حقوق واحترام، فى الحدیث أن خالد بن الولید رضی الله عنه سب المرأة التى رجمت من الزنا، فقال رسول الله ﷺ : «مهلاً یاخالد، فوالذى نفسى بیده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، ثم أمر بها فصلى علیها ودفنت». رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

وقال لعمر رضی الله عنه عندما قال : تصلى علیها وقد زنت. «لقد تابت توبة لو قسمت بین سبعین من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله». رواه مسلم وغيره، وفى بعض روايات قصة ماعز بن مالك الأسلمى فیما رواه أبو هريرة رضی الله عنه، أن رسول الله ﷺ سمع رجلین من أصحابه یقول أحدهما لصاحبه : انظر إلى هذا الذى ستر الله علیه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، فسكت عنهما، وسار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائلاً رجله. فقال : أين فلان وفلان؟ فقالا : نحن ذان یارسول الله. قال : كلا من جيفة هذا الحمار فقالا : یانبی الله من یأكل من هذا؟ قال : فما نلتما من عرض أخیکما أنفاً أشد من أكل منه، والذى نفسى بیده إنه الآن لفى أنهار الجنة ینغمس فیها». رواه أبو داود .

ولما جاءوا بالسارق بعد قطعه قال رسول الله ﷺ : «قل استغفر الله وأتوب إليه فقال :

(۱) لا ینبغى أن یفهم من ذلك أن العقوبة لا توقع علیهم إلا فى حالة الاصرار بل أن العقوبة توقع على المجرم بمجرد ارتكابه للجريمة ولو لم یصر أو تتكرر منه، إلا فى التعازیر فالأمر فیها یختلف .

استغفر الله وأتوب إليه، فقال رسول الله ﷺ : اللهم تب عليه». رواه أحمد وأبو داود .
ولما أتى بشارب خمر وأمر الناس بضربه، فقال بعض القوم أخزاك الله، فقال ﷺ :
«لا تقولوا هكذا لا تعينوا عليه الشيطان». رواه أحمد والبخاري .

فهذه النصوص وأمثالها تؤكد ما أشير إليه من أن المسلم إذا ارتكب جرماً مهما كان لا يبرر نبذه وطرده، ولكن تقام عليه العقوبة المقررة شرعاً، وفق الأحكام الشرعية في الإثبات والحكم والتنفيذ، ويعاد له اعتباره بعد ذلك حياً كان أو ميتاً إذا تاب وصلحت توبته .

العقوبة ضرورة اجتماعية : (1)

تعتبر العقوبة من الأمور الضرورية للمجتمعات، ولا يمكن أن يعيش مجتمع دون أن تفرض فيه عقوبة، فكما أن الجريمة جزء من المجتمع ملازمة له ولا يتصور وجود مجتمع بدون جريمة، فكذلك لا يتصور وجود مجتمع بدون عقوبة، فالعقوبة تعتبر رد فعل للجريمة، ولذلك نجد حتى في المجتمعات الحيوانية ومجتمع الطيور والحشرات نجد العقوبة فيما بينها يوقعها بعضها على بعض .

والمجتمعات الإنسانية وإن كانت العقوبة موجودة فيها، إلا أن هناك تفاوتاً كبيراً بين مجتمع وآخر في مدى تأثير هذه العقوبة، ونتائجها في المجتمع وذلك من حيث تناسب العقوبة مع الجريمة باعتبارها رد فعل، فما لم يكن رد الفعل متناسباً مع الفعل بل مساوياً له، فإن العقوبة تكون في هذه الحالة فاشلة في علاج الاجرام .

والذي يحصل أن كثيراً من المجتمعات في العقوبة تفرق بين الافراط والتفريط فبعضها يتشدد في العقوبة ويقسوح حتى تكون العقوبة أكبر من الجريمة، مما يدفع بالمجرم أو عائلته أو عصابته أن يسعوا في استعادة الفرق، وقد تكون العقوبة أقل من الجريمة بحيث تغري المجرم بالعودة إلى الجريمة أو تدفع المعتدى عليه إلى الأخذ ببقية حقه بنفسه، أما بالنسبة للمجتمعات المفرطة في العقوبة المتساهلة فيها فأمثلتها كثيرة ونستطيع أن نقول إن أكثر الدول الغربية في الوقت الحاضر ومن سار في ركابها من الدول الإسلامية على هذه الشاكلة، من تدليل المجرم وعدم معاملته بحزم .

(1) تعريف العقوبة :

يقول صاحب اللسان : العقاب والمعاقبة ان تجزى الرجل بها فعل سوء، والاسم العقوبة وعاقبه بذنبه معاقبة وعقابا : أخذه به . هذا عند أهل اللغة . (لسان العرب لابن منظور 1/619).

وعرفها بعض الفقهاء بأنها الجزاء المقرر لمصلحة الجماعة على عصيان أمر الشارع . (أورده عبد القادر عودة في التشريع الجنائي 1/609).

أما المجتمعات المفرطة المتشددة فمنها بعض المجتمعات الغربية إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، فقد عرفت بريطانيا في القرن التاسع عشر التشهير بمرتكبي جنایات الغش في مواد التموين، فكان الخباز الذي يبيع خبزاً يقل وزناً عن الوزن القانوني، يربط إلى إطار خشبي ويتدلى عنقه من فتحة الإطار، وقد علق بعنقه رغيفاً، وربما عوقب بوضع أصابع اليدين في آلة ضاغطة أو بالضغط على الساقين، وعرفت الصين حتى تاريخ حديث ألوانا من العقوبات القاسية، كوضع الواح من الخشب حول أعناق المتهمين ليتمكن الناس من معرفتهم عندما يمرون بهم وقد وقفوا خارج جدار السجن^(١). وفي الهند أشد وأبشع فقد نشرت جريدة الرياض في أحد أعدادها أن وكالات الأنباء الهندية أعلنت أن إحدى النساء أرغمت خادمتها البالغة من العمر خمسة عشر عاماً على غمس يديها في زيت حار لإثبات براءتها من تهمة سرقة ساعة وقعت في الأسبوع الماضي في مدينة راجكوت غربي الهند. وقالت الوكالة أن الضحية مانجولا ديفي نفت التهمة التي وجهتها لها سيدتها بسرقة ساعة، وعندها قامت السيدة التي لم يعلن عن اسمها بارغام الخادمة على غمس يديها في زيت كان يغلي على النار لإثبات أنها لا تكذب والجدير بالذكر أن مثل طرق التعذيب هذه مألوفة في الريف الهندي، ومن أمثلتها قيام الشرطة الهندية بفقاً عيون عشرين متها في جرائم السرقة في ولاية بيهار الهندية الشرقية مؤخراً^(٢) وكل هذه المجتمعات المفرطة منها والمفرطة فشل في محاربة الجريمة، ولا يرجع فشل هذه المجتمعات في محاربة الجريمة لمجرد أن العقوبات لا تتناسب مع الجرائم، بل هناك أمر مهم وهو أن هذه المجتمعات المفرطة والمفرطة لا تؤمن بشرع الله ولا تحكم بحكم الله بل تتبع الهوى في أحكامها وأنظمتها وتتخبط في اجتهادها ولذلك لا يمكن أن تصل إلى نتيجة مرضية وحالة مسعدة والله تعالى يقول : ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ . (المؤمنون : ٧١).

أما الشريعة الإسلامية فإنها في عقوباتها متوسطة لا افراط ولا تفريط خاصة عندما تطبق بأمانة وعدالة، فإنها تؤثر تأثيراً بالغاً في التقليل من الاجرام والحد منه .

الحكمة من العقوبة :

إن الحكمة من العقوبة بصفة عامة هي معالجة الأمراض الاجتماعية فإذا نظرنا إلى المجتمع كوحدة واحدة وجسم واحد، ونظرنا إلى الأفراد وهم يمثلون خلايا الجسم وأعضائه

(١) الجريمة والعقاب في المجتمع القبلي الافريقي : محمد عبد الفتاح ابراهيم (ص ١٤٠-١٤١).

(٢) جريدة الرياض العدد ٤٧٢٣ الصادر بتاريخ ١٤٠١/٣/١هـ.

وأطرافه، أمكننا أن نتصور كيف أن إيقاع العقوبات على بعض الأفراد يعتبر علاجاً للمجتمع، تماماً كما يعالج جسم الإنسان، إما بأدوية مرة، أو بالمضاد، أو بالشق والجراحة، وقد يصل الأمر إلى بتر العضو وإزالته حتى لا يكون سبباً في تلف الجسم كله، وهذا ما يحصل لخلايا وأعضاء هذا الجسم الكبير المجتمع، فقد يعالج بعض أفرادها بالجلد، أو المهجر أو الحبس أو القطع أو القتل إذا لزم الأمر .

وللعقوبة من ناحية أخرى أهداف ترجع إلى الجاني وأهداف ترجع إلى عموم الناس، فبالنسبة للجاني تهدف العقوبة إلى استصلاحه وزجره إذا لم تكن العقوبة متلفه (قتلا)، وبالنسبة لسائر الناس فإن العقوبة تهدف من ناحية إلى حماية مصالحهم الضرورية في الأعراض والأموال والأبدان، والعقول، وغير ذلك من المصالح، ومن ناحية أخرى تهدف إلى ردع المجرمين وتخويفهم وتحذيرهم من الوقوع فيما وقع فيه المتهم فيحل بهم مثل ما حل به من العقوبة .

هل العقوبات الإسلامية قاسية :

تعرضت العقوبات التي شرعها الله سبحانه وتعالى ، وشرعها رسوله ﷺ، لتأديب المجرمين وزجرهم وردعهم ، من جلد وهجر أو قطع أو رجم أو قتل ، لقد تعرضت للهجوم والسخرية والاستهزاء من قبل كثير من الكتاب ، فتارة توصف بأنها وحشية وتارة توصف بأنها عقوبات قاسية قديمة ولا تليق بالعصر الحديث ، ومن المؤسف أن نجد مثل هذا الانتقاد عند بعض الكتاب المسلمين ، فهذا أحد الكتاب وهو يتحدث عن العقوبات وتطورها يقول : والتعويض المدني يمتاز عن الدية بأنه مرن يزيد وينقص حسب مقدار الضرر الناتج عن الجريمة ، كما أنه يمتاز عن القصاص في أنه لا يقصد به مجرد الانتقام من الجاني وإنما يقصد به إزالة الضرر الواقع على المجنى عليه إذا أمكن ، أو تعويضه عن هذا الضرر ليخفف أثره إذا لم تكن الإزالة ممكنة ، كما أن التعويض المدني يمتاز عن الدية والقصاص في أنه حق مدني منفصل عن العقوبة فيمكن للمجنى عليه أن يتنازل عنه ، ولكن ذلك لا يعفى الجاني من العقوبة التي هي حق للمجتمع^(١) وهذا كلام جاهل بالشريعة ، وإلا فأى مرونة أكثر من المرونة في تقادير الديات في التشريع الإسلامي وتقديرها بحسب الضرر الذي يصيب المجنى عليه ، ولم تبلغ شريعة من الشرائع ولا نظام من الأنظمة ما بلغت هذه الشريعة في تقدير الديات بحسب الأصابة ، حتى قدروا للظفر ديته ، وللشعر ديته ، ولكل جرح

(١) العقوبات الجنائية في التشريعات العربية : د . توفيق الشاوي الصفحات ٢٤ ، ٧٣-٧٥ .

بحسب غوره في البدن ديته التي تناسبه ، فأى مرونة أكثر من هذه المرونة ، ومن ذا الذي يجهل أن للمجنى عليه أن يتنازل عن الدية ، بل هو مدعو إلى ذلك ومرغب فيه ، كما أن التنازل عن الدية لا يعنى الاعفاء من المسؤولية مطلقاً ، بل لولى الأمر أن يعزر الجانى تعزيراً مناسباً ، كل هذه المعلومات يدركها أقل المسلمين اطلاعاً ، ولكنه الجهل أو التجاهل .

وفي موضع آخر يقول : ومنذ بدأت حركة إصلاح النظم الجنائية في العصور الحديثة أصبحت العقوبات البدنية محل هجوم شديد من ناحية الفلاسفة والمصلحين ، باعتبار أنها تتضمن امتهاً لكرامة الإنسانية الواجب رعايتها حتى بالنسبة للمجرمين . . . إلى أن قال : ولم تشذ التشريعات العربية عن تأثير المذاهب الإصلاحية بل نرى أن التطور التشريعى في بلادنا يأخذ نفس الاتجاه . . . ثم يمضى فى كلامه . . . ورغم أن الاتجاه الحديث يرمى إلى الغاء هذه - العقوبات الجسائية ، لما يترتب عليها من مهانة واذلال للآدمى بمعاملته معاملة الحيوان ، فإن بعض المؤلفين يرى ضرورة بقائها فى أحوال معينة ، ولكن الاتجاه الغالب فى العالم المتحضر يدعو إلى الغائها باعتبارها لا تتناسب مع المدنية الحاضرة^(١) أما عقوبة القتل فهى بزعمهم أصبحت محل نقد كثير من الفلاسفة والباحثين ، لأنهم يرون أن القتل اجراء وحشى لا يجوز أن يرتكبه المجتمع ضد أحد الأفراد لأى سبب كان مادام يمكن الاستعاضة عنه بالسجن المؤبد^(٢) .

وعن عقوبة الجلد : لقد تأثرت التشريعات المعاصرة بالنقد الموجه إلى عقوبة الجلد أو الضرب ذلك النقد الذى يستند إلى منافاتها لكرامة البشرية إذ أن استعمال الضرب فى تأديب الإنسان تشبيهه له بالحيوان ونزول به إلى مرتبة الدواب مما يتعارض مع الاحترام الذى تقتضيه الصفة الإنسانية التى لا يمكن نزعها عن الشخص لمجرد ارتكابه جريمة^(٣) . هذا نموذج من النماذج الكثيرة . ونحن نرد على هؤلاء المتهمجين بردين رد مجمل ورد مفصل - مع الاختصار الذى يقتضيه المقام .

فأما الرد المجمع :

فإن هؤلاء المتهمجين على العقوبات الإسلامية أحد رجلين ، أما كافر بالإسلام لا يؤمن بالله ولا برسوله ﷺ ، وأما مسلم ، فبالنسبة للكافر فإن القضية مع الكفار أكبر وأعظم من أن تقف عند فرع من فروع الدين فهم أصلاً لا يؤمنون بالله سبحانه ومن يزعم منهم أنه

(٢٠١) العقوبات الجنائية فى التشريعات العربية . د . توفيق الشاوى الصفحات ٢٤ ، ٧٣-٧٥ .

(٣) العقوبات الجنائية فى التشريعات العربية . د . توفيق الشاوى ٢٤ ، ٧٣-٧٥ .

يؤمن بالله فهو لا يؤمن به الإيمان الصحيح الكامل ، ولا ينطلق في إيمانه من تصور صحيح . فهم لا يؤمنون بالرسول ولا يقرون برسالته ولا يؤمنون بالقرآن ولا بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء . وهذه القضايا أخطر وأكبر من قضية العقوبات . فإدام هؤلاء لا يسلمون بأصول الدين ولا يسلمون لله سبحانه بالحكمة والعدالة والرحمة ، بل إنهم ليتهجمون على الشريعة الإسلامية ويسخرون منها فبن باب أولى ألا يسلموا بما دون ذلك . وأما المسلم الذى يتهجم على العقوبات الإسلامية فيما أن يكون متظاهرا بالإسلام مجرد تظاهر وهو يطن الكفر والالحاد والنفاق ، فهذا شأنه شأن الفريق الأول ، وإما أن يكون مسلما ضعيفا جاهلا ، فهذا ينبغي أن يعرف أنه لا يصح إيمانه حتى يسلم بكل ما شرعه الله وشرعه رسوله ﷺ ، فالله سبحانه وتعالى عليم حكيم خبير ، متصف بكل صفات الكمال منزّه عن كل صفات النقص فأحكامه وشرائعه تبدو فيها صفاته من الحكمة والرحمة وقد ندرك ذلك وقد لا ندركه ولكن مقتضى الإيمان أن نسلم لله سبحانه بكل ما شرعه لنا ، وإن كان هذا لا يمنع أن نتحرى الحكمة ونبحث عن أسرار التشريع بأدب مع الله سبحانه ومع رسوله ﷺ ، هذا هو الرد المجمل باختصار .

أما الرد المفصل فإنه :

يحتاج منا إلى وقفات وهى وقفات سريعة حيث أن المقام لا يتحمل الاطالة .

الوقفة الأولى :

مقارنة العقوبات الإسلامية بالعقوبات فى المجتمعات الأخرى لنرى مدى القسوة والشدة فىهما ، ولقد تطرق الأستاذ عبد القادر عوده رحمه الله فى كتابه التشريع الجنائى الإسلامى إلى شىء من ذلك فقال : فإذا قدرنا أن الجرائم التعزيرية التى يمكن العقاب عليها بالقتل تصل إلى خمس جرائم ، كانت كل الجرائم المعاقب عليها بالقتل فى الشريعة لا تزيد على عشر جرائم عند من يجيزون القتل تعزيرا ، وكان عددها لا يزيد على خمس جرائم عند من لا يجيزون القتل تعزيرا ، وتلك ميزة انفردت بها الشريعة الإسلامية من يوم نزولها ، فهى لا تسرف فى عقوبة القتل ولا تفرضها دون مقتضى ، ونستطيع أن نحيط بمدى تفوق الشريعة فى هذه الوجهة ، إذا علمنا أن القوانين الوضعية كانت إلى أواخر القرن الثامن عشر تسرف فى عقوبة القتل إلى حد بعيد ، بحيث كان القانون الانجليزى مثلا يعاقب على مائتى جريمة بالإعدام ، والقانون الفرنسى يعاقب على مائة وخمس عشرة جريمة بالإعدام^(١) .

(١) التشريع الجنائى الإسلامى ج ١ ص ٦٨٩ .

ويقول في موضع آخر وهو بصدد الحديث عن أساس المسؤولية الجنائية، «كانت القوانين الوضعية في العصور الوسطى وإلى ما قبل الثورة الفرنسية تجعل الإنسان والحيوان بل والجماد محلاً للمسئولية الجنائية، وكان الجماد يعاقب كالحيوان على ما نسب إليه من أفعال ضارة، كما يعاقب الإنسان على ما ينسب إليه من أفعال محرمة، وكانت العقوبة تصيب الأموات كما تصيب الأحياء، ولم يكن الموت من الأسباب التي تعفى الميت من المحاكمة والعقاب. ولم يكن الإنسان مسئولاً جنائياً عن أفعاله فقط وإنما كان يسأل عن عمل غيره ولو لم يكن عالماً بعمل هذا الغير، ولو لم يكن له سلطان على هذا الغير، فكانت العقوبة تتعدى المجرم إلى أهله وأصدقائه وتصيبهم كما تصيبه، وهو وحده الجانى وهم البرءاء من جنايته. وكان الإنسان يعتبر مسئولاً جنائياً عن عمله، سواء كان رجلاً أو طفلاً مميزاً أو غير مميز وسواء كان مختاراً أو غير مختار، مدركاً أو فاقد الإدراك وكانت الأفعال المحرمة لا تعين قبل تحريمها، ولا يعلم بها الناس قبل مؤاخذتهم عليها، وكانت العقوبات التي توقع غير معينة في الغالب... الخ^(١)

وكان من الممكن في بعض الشرائع القديمة بل وفي العصور الوسطى في أوروبا نفسها أن توقع العقوبات الجنائية على حيوان، أو على جثة الجانى بعد موته أو على من به مس من الجنون^(٢).

ولقد المحت في الفقرة السابقة إلى بعض العقوبات القاسية التي تمارس في بعض المجتمعات كما في الهند والصين - فالعقوبات الإسلامية كما نلاحظ من هذا العرض المختصر المقارن أشد ما تكون قتلاً أو قطعاً ومع ذلك فعدد الجرائم التي يعاقب عليها بالقتل لا يجاوز العشر أو الخمس، والجرائم التي يعاقب عليها بالقطع جريمتان فقط. وسوف نلاحظ فيما بعد الحكمة الدقيقة في سن هذه العقوبات للجرائم الخاصة بها.

والقوانين الوضعية وإن كان أغلبها في العصر الحاضر قد استبدل عقوبة الحبس المؤبد بعقوبة الأعدام وصارت تركز على عقوبة السجن مؤقتاً أو مؤبداً فإن السجن المؤبد أو الطويل الأجل ليس إلا قتلاً بالتفسيط للمجرم، وقتلاً لأسرته معه، فلا هو بالميت الذي استراح من عناء السجن ورهيبته وافضى إلى ما قدم من خير أو شر، ولا هو بالمطلق سراحه ليعمل ويكدح، وكم تعاني أسرة السجين من الشقاء والضياع، وكم تفقد من العناية والرعاية.

(١) التشريع الجنائي ج ١ ص ٣٨١.

(٢) محاضرات عن المسؤولية الجنائية في التشريعات العربية. د. توفيق الشاوي ص ٣٢.

ولقد لخص «عودة» رحمه الله عيوب عقوبة الحبس بعدة نقاط مؤيدة بالأرقام الاحصائية فذكر منها^(١) :

أولاً : ارهاق خزانة الدولة وتعطيل الإنتاج فلاشك أن الدولة سوف تتحمل نفقات كبيرة لإعداد السجون وصيانتها والعناية بها، ومع ذلك فلا يزال السجناء يعانون في كثير من الدول من قلة العناية والرعاية .

ثانياً : افساد المسجونين ويقول بهذا الصدد وكان من الممكن أن تتحمل الجماعة هذه الخسارة الكبيرة سنوياً - أى نفقات هذا السجن والسجناء لو كانت عقوبة الحبس تؤدي إلى إصلاح المسجونين، ولكنها في الواقع تؤدي بالصالح إلى الفساد وتزيد الفساد فساداً على فساد، فالسجن يجمع بين المجرم الذي ألف الاجرام وتمرس بأساليبه، وبين المجرم المتخصص في نوع من الاجرام وبين المجرم العادي، كما يضم السجن أشخاصاً ليسوا بمجرمين حقيقيين، وإنما جعلهم القانون مجرمين اعتباراً كالمحكوم عليهم في حمل الأسلحة أو لعدم زراعة نسبة معينة من القمح والشعير، وكالمحكوم عليهم في جرائم الخطأ والاهمال، إلى آخر ما ذكره رحمه الله . فحاصل ما ذكر أن السجن أصبح مدرسة اجرامية يلقن فيها المجرمون العتاة والمعتادون المبتدئين من المجرمين .

إلى أن قال : ولقد دلت المشاهدات على أن الرجل يدخل السجن لأمر لا يعتبره العرف جريمة كضبط قطعة سلاح معه، وكان المعروف عنه قبل دخوله السجن أنه يكره المجرمين ويأنف أن يكون منهم، فإذا خرج من السجن حُبب إليه الاجرام واحترافه بل صار يتباهى به إلى آخر ما ذكر، وهو كلام جيد مدعم بالإحصائيات فيحسن الرجوع إليه .

ثالثاً : قتل الشعور بالمسئولية : وعقوبة الحبس فوق أنها غير رادعة فإنها تؤدي إلى قتل الشعور بالمسئولية في نفوس المجرمين، وتحبب إليهم التعطل، خاصة من يقضى منهم مدة طويلة في السجن .

رابعاً : انعدام قوة الردع : ان عقوبة الحبس قد فرضت على أساس أنها عقوبة رادعة ولكن الواقع قد أثبت أنها لا فائدة منها ولا أثر لها في نفوس المجرمين، فالذين يعاقبون بالاشغال الشاقة وهي أقصى أنواع الحبس لا يكادون يخرجون من السجن حتى يعودوا لارتكاب الجرائم، ولو كانت العقوبة رادعة لما عادوا، لما عوقبوا عليه بهذه السرعة ثم ذكر إحصائيات تدعم ذلك .

(١) نقلتها من التشريع الجنائي ج ١ من الصفحة ٧٣٢-٧٤٠. ملخصة بشيء من التصرف.

ومن الطريف ما ذكره بعض الكتاب أنهم في أمريكا قاموا بعرض أفلام على السجناء عن بعض المجرمين وكيف كانت نهايتهم المحزنة، وأن الجريمة لم تجرهم إلا إلى الخيبة والفشل، ثم استطلعوا آراء السجناء ليعرفوا مدى تأثيرهم بهذه الأفلام وتأثيرها في سلوكهم، وكان الباحثون يتوقعون أن يعتبر السجناء بمصير المجرمين ويتعظوا، ولكن الذي حصل هو أن السجناء كانوا يركزون على البحث في نقاط الضعف في الخطط التي سلكها المجرمون، ويركزون على الأخطاء التي صدرت عنهم، وكانت سببا في القبض عليهم، فكانوا يقولون لو أن المجرم عمل كذا لنجا، ولو أنه لم يعمل كذا لما قبض عليه وهكذا، مما يدل على تأصل الروح الاجرامية في هؤلاء، وأن السجن لم يزددهم إلا اعتوا وتمردا، مصادقا لما ذكره عودة رحمه الله .

خامسا : ازدياد سلطان المجرمين بعد خروجهم من السجن وتمردهم على المجتمع .

سادسا : انخفاض المستوى الصحي والأخلاقي نظرا لأن السجن ثابتة المساحة .

بينما السجناء يزداد عددهم يوما بعد يوم، وبالتالي ينخفض مستوى الخدمات التي تقدم لهم .

سابعا : ازدياد الجرائم : وقد وضعت عقوبة الحبس على اختلاف أنواعها لمحاربة الجريمة ولكن الإحصائيات التي لا تكذب تدل على أن الجرائم تزداد عاما بعد عام زيادة تسترعى النظر وتبعث على التفكير الطويل ثم أورد الإحصائيات الرسمية التي تؤيد ذلك .

ثامنا : وأمرهم أغفله «عودة» رحمه الله ألا وهو وضع عوائل المسجونين . من ينفق عليها، ومن يقوم بشأنها، ومن يتولى تصريف شئونها وتدير أمورها، من يغمر صغارهم بالعطف والمودة، لاشك أن أسرة السجين سوف تتعرض للضياع، وربما لحقت بوليها في ركاب الاجرام نتيجة الانحراف الذي ينجرف بها إلى الاجرام، وبسبب الحاجة الماسة وانعدام الشفقة والعطف، وربما قيل إن المجرم وجوده كعدمه في الأسرة . بل قد يكون وجوده وبالا عليها وسببا في ضلالها وانحرافها إن كان وليا لها أو مجرد فرد من أفرادها ربما قيل ذلك .

ولكننا نقول أولا إن أكثر المسجونين والعدد الأكبر منهم ليسوا مجرمين بمعنى الكلمة كما ذكر «عودة» رحمه الله، وليست قضاياهم بالقضايا الاجرامية الخطيرة، بل قد لا تكون جريمة على الاطلاق، ولكنها مخالفة بسيطة وبالتالي فلا خوف على السجين لأنه ليس مجرما .

ثانيا : إن المجرم مهما كان متهاديا في الأجرام فإنه أولى برعاية أسرته وهو أشفق عليها

وأرحم بها من غيره، كما أن الحيوانات المتوحشة تعطف على أبنائها وتربيتهم رغم ما فيها من القسوة والوحشية، وكذلك هذا الإنسان المجرم اللهم إلا في الجرائم الخطيرة جداً وهي قليلة نادرة فقد تقتضى المصلحة عزل المجرم وابعاده عن أسرته لألا يفسدها وهذا نادر .

فمن هذه الوقفة يتبين لنا كيف أن العقوبات الإسلامية هي أفضل بكثير من العقوبات الوضعية التي تتمثل أكثر مما تتمثل بالسجن المؤقت أو المؤبد والذي ذكرنا شيئاً من مساؤه وعيوبه فالعقوبات الإسلامية أفضل في حق المجرم وفي حق المجتمع .

الوقفة الثانية :

هؤلاء الذين يزعمون أن العقوبات الإسلامية قاسية هل درسوها حقيقة وعرفوا الجرائم الشنيعة التي فرضت من أجلها هذه العقوبات، وهل أدركوا مدى تأثير هذه الجرائم على المجتمع وخطورتها عليه، ولو أنهم لاحظوا ذلك لما نسوا ببنت شفه . ومن ناحية أخرى هل درسوا أدلة الإثبات في هذه الجرائم وكيف أن أدلة الإثبات متناسبة مع العقوبة ومع الجريمة فكما أن العقوبة مشددة فإن أدلة الإثبات كذلك مشددة فيها، وهناك شروط متعددة ودقيقة ولا بد من توافرها في المجرم والجريمة كي توقع العقوبة على المتهم .

إن أغلب الظن أن هؤلاء المتهجمين على العقوبات الشرعية يسمعون بها مجرد سماع دون أن يدرسوها دراسة متأنية منصفة متجردة، والا لو فعلوا ذلك لما وسعهم إلا الأكابر لهذه الشريعة في أحكامها العادلة .

الوقفة الثالثة :

لماذا هؤلاء دائماً في صف المجرم، ولا يرد في تصورهم إلا المجرم وهو تحت العقوبة جلدأً أو قطعاً أو قتلاً، ولا يرد في تصورهم مطلقاً ذلك الضحية المسكين، الذي اعتدى عليه بغير حق، فجرح أو فقتت عينه أو قتل ظلماً وعدواناً، أليس المعتدى عليه أولى بالعطف والشفقة والرحمة من ذلك المجرم .

الوقفة الرابعة :

إن العقوبات الشرعية التي تبدوا شديدة لا تخرج عن حالتين :

الحالة الأولى : القصاص حيث يجرح من جرح قصاصاً، وتفقأ عينه قصاصاً إذا فقأ عين غيره عمداً أو جرحه عمداً . ويقتل من قتل قصاصاً، إذا قتل على وجه العمد، ولا يمكن أن يعترض حكيم أو عاقل منصف على هذه النظرية، نظرية القصاص حيث يعاقب

المجرم بنفس الطريقة التي ارتكبها مع الضحية ما أمكن ذلك، إلا في الحالات التي لا يمكن تنفيذ القصاص فيها، أو أن القصاص يؤدي إلى مفسدة. فيما عدا ذلك فالقصاص هو الأصل ولا يعترض عليه أو ينتقده إلا مغفل أو مغرض. هذه حاله.

الحالة الثانية : أن تكون العقوبة التي تبدو شديدة حداً، والعقوبات الحديه التي قد تكون شديدة لا تزيد عن ثلاث : عقوبة الزانى المحصن رجماً، والمحارب قاطع الطريق، بقطعه من خلاف، يده اليمنى، ورجله اليسرى والسارق بقطع يده اليمنى، وهذه الجرائم لا يمكن بحال من الأحوال أن تعالج إلا بهذه العقوبات، هذا أمر، والأمر الثانى أن من ينظر في هذه الحدود الثلاثة وطرق إثباتها يلاحظ أنها لا تثبت إلا عن طريقين فقط.

الطريق الأولى : طريقة الاعتراف الصحيح، الخالى من الموانع، الصادر من عاقل بالغ، وفي حالة معتبرة شرعاً، دون اكراه أو ضرورة، وأن يثبت على إقراره حتى يتم تنفيذ العقوبة فيه، وله الحق أن يرجع عن إقراره ولو بعد الشروع في معاقبته.

فأى شدة أو قسوة في ذلك؟ إذا كان إنسان عاقل بالغ مدرك يختار عقوبته بنفسه ويعلم أنه سوف يرحم أو تقطع يده أو يجلد إذا أصر على إقراره واستمر فيه، فما ذنب الحاكم في ذلك، إذا كان هذا المتهم مؤمن ومعتقد بأنه سوف يقدم على ربه، ويعتبر تحمل هذه العقوبة من باب التوبة الصادقة مع العلم بأنه لا يجوز التحايل لأخذ الإقرار في الحدود، بل القاعدة على العكس حيث يستحب تلقين المتهم ما يصرفه عن الاعتراف الصريح.

الطريقة الثانية : أن تثبت هذه الحدود عن طريق الشهادة، وانها الطريق صعبة، ومسلك وعمر، فقد وضعت شروط دقيقة عديدة، قل أن تتوفر، خاصة بالنسبة للزنا، فهناك شروط في الشاهد، وهناك شروط في الشهادة وشروط في الاحصان، وشروط في الزنا، ومن النادر جداً أن تتوفر هذه الشروط في قضية من القضايا^(١).

ولقد سألنا من نعرف من العلماء والباحثين عما إذا كانوا يعرفون واقعة زنا ثبتت في عصر من العصور بالشهادة، فلم نجد عندهم جواباً، مما يدل على أن هذا الأمر نادر جداً، فهذه العقوبات والله أعلم هي للتهويل والتخويف، والتهيب للمجرمين، أكثر مما يراد بها ايقاعها بهم. فالمجرم لاشك أنه إذا علم بهذه العقوبة الشديدة، سوف يتصور أنها ربما أوقعت به، ولا يزال في ذهنه شىء من الاحتمال مهما كان قليلاً، وهذا التصور وهذا الاحتمال له دور كبير في صرف المجرم عن جريمته، ولفت نظره لاعادة الحساب. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) ذكر صاحب المغنى أنه حصل في عهد الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله واقعة زنا ثبتت بالشهادة وذلك في الجزء السابع ص ١٦٣ في كتاب الفرائض.

الوقفة الخامسة :

لننظر في نتائج وآثار العقوبات الإسلامية في المجتمع الإسلامي ، وآثار العقوبات الوضعية في المجتمعات الأخرى .

لقد كانت آثار هذه العقوبات التي يزعمون أنها قاسية ، لقد كانت آثارها الاستقرار والأمن الذي لا يتصور، فلا تكاد تحدث جريمة ، فاطمأن الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وانصرفوا إلى العمل والإنتاج والإصلاح حتى إن الرجل ليرك متاعه في الطريق دون أن يتعرض له أحد بسوء، وينقل لنا الأستاذ أبو الحسن الندوي انطباعات الأستاذ محمد أسد، وهو من النمسا عندما زار دمشق في أول القرن العشرين الميلادي ، ويوم كانت دمشق تعيش تحت ظل الخلافة العثمانية، على ما كان فيها من تقصير واهمال يقول : (وقفت على ذلك الاستقرار الروحي في حياة سكانها، إن أمنهم الباطني كان يمكن أن يرى في الطريقة التي كان أحدهم يتصرف بها نحو الآخر، ثم يسترسل فيقول : وفي الطريقة التي كان أصحاب الدكاكين يعاملون بعضهم بعضا، أولئك التجار في الحوانيت الصغيرة الذين كانوا يبدوون وكأنها ليس فيهم أيما قدر من الخوف أو الحسد، حتى إن صاحب دكان فيهم ليرك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه، كل ما دعت حاجته إلى التغييب بعض الوقت، وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه، يتساءل فيما بينه وبين نفسه، ما إذا كان ينتظر عودة البائع أو ينتقل إلى الدكان المجاور، فيتقدم التاجر المجاور دائماً «التاجر المزاحم»، ويسأل الزبون عن حاجته ويبيعه ما يطلب من البضاعة، لا بضاعته هو بل بضاعة جاره الغائب، ويترك له الثمن على مقعده، أين في أوروبا يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفة . هذه صورة^(١) .

أما الصورة الثانية : فينقلها لنا الأستاذ عبد القادر عودة رحمه الله ، وهو يشير إلى ازدياد الجرائم في المجتمع المصري ، بسبب عدم تطبيق التشريعات الإسلامية، مقارنة بين المجتمع المصري والمجتمع السعودي في ظل الإسلام، فيقول إن الحالة الاقتصادية مهما قيل فيها لا تكون سبباً في ازدياد الجرائم، مادامت العقوبة رادعة، وليس أدل على صحة هذا القول من الحالة في الحجاز، فلا شك أن الحالة الاقتصادية والاجتماعية في مصر أفضل منها في الحجاز، ومع ذلك فقد قلت الجرائم في الحجاز وازدادت في مصر وانتشر الأمن هناك واختل هنا . ولقد كان الحجاز في يوم ما مضرب الأمثال في اختلال الامن والنظام، والجرأة على

(١) من نهر كابل إلى نهر اليرموك أبو الحسن الندوي ص ١٥٥ .

ارتكاب الجرائم وترويع الأمنيين، والحجاج المسافرين، وقطع الطريق عليهم لنهب ما لهم ومتاعهم، ولعل الحالة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز الآن ليست خيراً منها يوم كان الفساد مستشرياً في الحجاز، والفرق بين الحجاز قديماً وحديثاً، هونفس الفرق بين مصر والحجاز اليوم، هو وجود العقوبة الرادعة في الحجاز الآن، وانعدامها قديماً، وهو كذلك انعدام هذه العقوبة في مصر اليوم، فهذه العقوبة الرادعة في ظل الشريعة الإسلامية هي التي وطدت الأمن في الحجاز، وقضت على السلب والنهب وقطع الطريق، وجعلت الأمن فيه مضرب الأمثال، فلا يسقط من مسافر شيء إلا وجده في دار الشرطة، ولا يضيع لأحد شيء إلا رد إليه حيث كان، ولولم يبلغ بضياعه مادام مع المال ما يدل على اسم صاحبه^(١) وهذا ما نعيشه الآن في هذه البلاد والحمد لله حيث أن الإنسان دائماً - إلا في حالات نادرة - مطمئن على متاعه وعلى أمواله يتركها غالباً دون ما حراسة تذكر ودون اهتمام بها فيوفر المجتمع بذلك طاقات كبيرة وجهوداً كثيرة بينها الدول الأخرى كما هو معروف، حيث نقرأ يومياً عن الجرائم البشعة التي لا تتصور، حيث تدهم البيوت والمؤسسات المالية ويهجم على المصارف ويختطف التجار والسياسيون، أو أبناءؤهم ولا يطلقون إلا مقابل فدية مالية كبيرة، وتختطف الطائرات أما لأغراض سياسية أو لأغراض إجرامية بحتة، وأصبح الناس في كثير من الدول التي تزعم أنها متطورة ومتقدمة وفي قمة الحضارة، أصبح الناس يحذرون من التجول بعد غروب الشمس، وهذا الأستاذ محمد قطب يذكر في إحدى محاضراته أنه في سان فرانسيسكو حدثه أكثر من شخص وأنه قرأ في الصحف كذلك، أن الإنسان لا يملك أن يخرج وحده في هذه المدينة بعد غروب الشمس، ويقول: كنت في زيارة قصيرة لمدينة صغيرة في فلاديفيا مدينة أشبه بالمدن الريفية وهي بالنسبة لمدننا كبيرة ولكنها بالنسبة للمدن الأمريكية صغيرة جداً، وجاء الغروب فحدثتنا أنفسنا أن نخرج قليلاً للتنزه، فقال لنا المقيمون هناك، احذروا، لا تستطيعون أن تخرجوا، قلنا لماذا، قالوا بسبب العصابات، حيث إنها تبدأ عملها بعد غروب الشمس، قتلاً وخطفاً وسرقة^(٢).

وهذه دولة من الدول الحديثة، المتقدمة صناعياً، وهي ألمانيا، تقول عنها إحدى الجرائد اليومية، أنه في تقرير نشر عنها أظهر أن لصوص ألمانيا الغربية يحافظون على سمعة مواطنيهم، بوصفهم شعباً عرف بتفانيه في العمل، فقد أوضح التقرير أن هؤلاء اللصوص يرتكبون حادث سرقة كل دقيقة في شتى أنحاء البلاد، وتقدر لجنة غير حكومية قيمة

(١) التشريع الجنائي ج ١ ص ٧٤٠.

(٢) من محاضرة ألقاها الأستاذ محمد قطب في كلية الشريعة بجامعة قطر في أول عام ١٤٠١هـ.

الممتلكات التي تتعرض للفقء أو الاللاف نللة للسرقات بلاللة آالف مليون مارك فى العام الواحد، وقد طالبل الللنة المواطنل الللن يقضون عطلالهم آارآ مساكنهم بلأملن منازلهم بواسطة الأفقال والسلاسل، أو أآهزة الانذار^(١).

ولم يزل الالرام يفللك بالءول الغربلة وغلرها آلى أصلآ المآرمون لهم مراكز آطلرة، وكلمة نافذة، بل أصلآ لهم مؤسسال رسملة أو شبه رسملة، آآملهم وءءافع عنهم، آلى صاروا كما يقال آكومات ءاآل الآكومات. وبقول الأستاذ عوءة رحمة الله فى هذا الصءء، وهولىآءء عن سلطان المآرملن، ومن المآرملن من يغاءر السآن لعلش عالة على الآماعة، يسالآل آرلمة السابقة لاآافة الناس وارهابهم، وابالاز أموالهم، وعلش على هذا السلطان الموهوم وهذا المال المآرم، ءون أن يفكر فى آللة العمل الشرفل والكسب الالال، وقد أصلآ سلطان هؤلاء المآرملن على السكان الآملن، يلآآم سلطان الالآومات، بل أصلآ المآرمون فى الواقع أصلآب الكلمة النافذة، والأمر المطلاع، ومن الوقاع اللى اعرفها وعلرفها غلرى أن رجال الإءارة يسالآون بالمآرملن أيام الالالآابال العامة، لىوآهوا الناآبلن الماسكلن بآزبللهم، وآهال معلنة بعء أن يعآزوا هم عن هذا الالآله.

وقء أءى هذا المركز الآطلر، إلى زللاء المآرملن الشبال الللن لالآعون بءافع من طموآهم إلى نوال كل مركز ممالز كما أءى إلى قلب الموازل والأوضاع، فبعء أن كانت الآرلمة عارا وءلا فى القءلم، أصلآل اللوم مءعاة لللباهل واللباآر، وبعء أن كان المآرم لالآر ذللا مهانا، أصلآ اللوم عزلزل الآانب مسموع الكلمة نافء السلطان^(٢).

فهذه هى بعض آثار العقبوال الوضعللة فى المآآمعال الغربلة للسل إلا آوفا واضطرابا ورعبا وزللاء مضطرءة فى عءء الآرائم وأساللبلها وأنواعها.

وللك بعض آثار العقبوال الشرعللة وئالآآها فى المآآمع الإسلامى قءلما وءءلثا، أمن واسالآرار واطمئنان وانآفاض فى نسبة الآرائم، فأل الفرلقلن أآق بالأمن، وأل الفرلقلن أآق بالفاآر والاعالاز، فللصفوا العقبوال الشرعللة بما شأوا من الأقاولل، ولللهآموا ماءامل لك آثارها وهذه نالآآها.

والآمء لله رب العالملن والصللاة والسلام على أشرف الأنبلأ والمرسللن نبلنا مآمء وآله وأصلآبه أآمعلن.

(١) آرلءة الرلأض العءء ١٣٣٣ الصاءر بلالآلآ ١٣٩٦/٥/٦ هـ.

(٢) الالآلر الآنائى ٧٣٧/١.

الإمداد بأحكام الحداد

- ٢ -
لدى كتبه في مجاله شأني للطب
أستاذ مساعد بكلية الشريعة

الفصل الخامس في زمن الإحداد

عرفت آنفاً أقسام الإحداد من حيث الجملة وأنها قسمان جائز وغير جائز وأن كل منهما ينقسم إلى قسمين إذا تقرر هذا فأعلم أن كلامنا هنا خاص بزمن الإحداد والجائز في شريعتنا إذ أننا مطالبون بما فيها من أحكام فنقول : الحداد الجائز على ضربين . على ما بينا قريباً ، حداد على القريب الميت غير الزوج وحداد على الزوج وطبقاً لهذا التقسيم يكون الكلام في المدة الزمنية اللازمة للإحداد .

وقد رأيت أن أجعل هذا الفصل مبنياً على مبحثين . المبحث الأول زمن الإحداد على القريب الميت غير الزوج ، المبحث الثاني زمن الحداد على الزوج الميت .

المبحث الأول : زمن الحداد على القريب الميت :

إعلم أن الحداد على القريب الميت هو ابتعاد المرأة عن كل مظاهر الزينة التي يدعو فعلها إلى الفرح والسرور ويتنافى مع مظاهر الحزن من المرأة على ذلك الميت . ومن المعلوم أن الشريعة الإسلامية قد رسمت الطريق الذي ينبغي أن تسلكه المرأة عند فقد قريبها وبينت المدة اللازمة للإحداد والتي لا ينبغي تجاوزها وقد رعت الشريعة في ذلك حق المرأة وحق القريب على حد قوله « لا ضرر ولا ضرار » ومقدار هذه المدة ثلاثة أيام بلياليها يوضحه قوله ﷺ : « لا يحل لامرأة أن تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » .

فقوله : « فوق ثلاث » يفيد جواز الثلاث فما دونها وعدم جواز الزيادة عليها إلا فيما دل عليه الاستثناء . قال ابن حجر في الفتوح بعد ما ذكر الحديث : (واستدل به على جواز الإحداد على غير الزوج من قريب ونحوه ثلاث ليال فما دونها وتحريمه فيما زاد عليه وكأن هذا

القدر أبيض لأجل حظ النفس ومراعاتها وغلبة الطباع البشرية ولهذا تناولت أم حبيبة وزينب بنت جحش رضى الله عنهما الطيب لتخرجا عن عهدة الإحداد وصرحت كل منهما بأنها لم تتطيب لحاجة إشارة إلى أن آثار الحزن باقية عندهما، لكنهما لا يسعهما إلا إمتثال الأمر^(١).

وهذا الذى ذكره ابن حجر رحمه الله وما دلت عليه الأحاديث الصحيحة الصريحة الثابتة عن رسول الله ﷺ والتي تفيد بمنطوقها ومفهومها أن الحد الأعلى في حق المرأة للإحداد على قريبها الميت هو ثلاثة أيام بلياليها .

وقد ذكر أبو داود في المراسيل باسناده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده حديثا يعارض ظاهره هذه الأحاديث ونصه : (أن النبي ﷺ رخص للمرأة أن تحد على أبيها سبعة أيام وعلى من سواه ثلاثة أيام)^(٢). والجواب عن الاستدلال بهذا الحديث من وجهين :

(أ) إنه ضعيف لا تقوم به حجة لكونه مرسل قال فإن عمرو بن شعيب لم يكن من الصحابة بل ولا من التابعين، والمرسل في ضعف الاحتجاج به إنما يكون من التابعين فإذا كان الأمر كذلك فلا تعارض به الأحاديث الصحيحة .

(ب) لو سلمنا بصحته وسلامة الاستدلال به لم نسلم بمعارضته للأحاديث الصحيحة بل نقول هو مخصص للأب من عمومها فتحده ابنته عليه سبعة أيام بلياليها على ما هو مبين في الحديث ويبقى ما عداه من الأقارب على العموم الوارد في الأحاديث والذي يتعين اتباعه والمصير إليه هو ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة التي تم ثبوتها قريبا أكثر من مرة .

المبحث الثاني : زمن الإحداد على الزوج الميت

زمن الإحداد على الزوج الميت هو زمن العدة ولهذا نستعرض بشيء من التفصيل لعدة المتوفى عنها زوجها لما بين الأمرين من العلاقة ليتضح المراد وبالتالي نخلص لمعرفة زمن الإحداد .

والمعتدة من الوفاة لا يخلو إما أن تكون حائلا أو حاملا .

والحائلا لا يخلو إما أن تكون ممن تحيض أو يئست من الحيض أو صغيرة لم يأتها الحيض بعد وطبقا لهذا التقسيم فقد ضمنت هذا المبحث المطالب التالية :

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٤٨٧ .

(٢) نيل الأوطار ج ٦ ص ٣٣١ .

المطلب الأول : عدة غير ذات الحمل :

غير ذات الحمل وهي الحائض التي عرفت براءة رحمها أما بالحيض أو لكونها آتسة أو صغيرة لم تحض وقد أجمع أهل العلم من عصر الصحابة رضى الله عنهم إلى يومنا هذا على أن عدة المرأة المتوفى عنها زوجها غير ذات الحمل أربعة أشهر وعشرا سواء كانت صغيرة أو كبيرة . مدخولا بها أو غير مدخول بها وهذا هو الزمن اللازم للإحداد فإذا انقضت عدتها بتمام هذه المدة انقضى الإحداد بانقضائها وإنما أجمع أهل العلم على ذلك لما جاء في الكتاب والسنة . فمن الكتاب قوله تعالى : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾ . ومن السنة قوله ﷺ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا» . متفق عليه^(١) . فهذا الكتاب والسنة قد اتفقا على بيان الظرف الزمنى الذى يجب أن تتربصه المعتدة من الوفاة ولا تحل قبله للأزواج وهو الظرف الزمنى للإحداد إذ أن العدة والإحداد شقيقان فى هذا الباب فإن قيل هذا النص عام شامل لكل معتدة من الوفاة فتكون عدتها أربعة أشهر وعشرا من غير تخصيص قيل ليس الأمر كذلك لأننا نقول إن هذا النص فى المعتدات من الوفاة غير الحوامل والشرع شاهد بذلك فإن الله تعالى أخرج من عموم هذا النص الحامل المعتدة من الوفاة فإن عدتها تنقضى بوضع حملها وبالتالي يزول عنها حكم الإحداد .

تنبيهان :

التنبيه الأول : لو قيل هذا الحكم خاص بالمدخول بها بمعنى أن المدخول بها هي التى تتربص أربعة أشهر وعشرا بدليل أن الله تعالى خصها من عموم قوله تعالى : ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ قلنا الجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه :

(أ) أن الله تعالى خص المطلقة قبل الدخول من عموم آية البقرة فلم يوجب عليها عدة وذلك بآية الأحزاب وهي قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾^(٢) .

وليس الأمر كذلك فى المتوفى عنها قبل الدخول فهى داخلة فى العموم وليس ثمة ما يخرجها ولا يجوز اخراجها إلا بدليل ولا دليل .

(ب) قد ورد فى السنة ما يفيد صراحة وجوب العدة على غير المدخول بها المتوفى عنها

(١) المغنى ج ٧ ص ٤٧٠ .

(٢) سورة الأحزاب «٤٩» .

زوجها وذلك أن عبد الله بن مسعود (أتى بامرأة تزوجها رجل ثم مات عنها ولم يفرض لها صداقا) ولم يكن دخل بها قال فاختلفوا إليه فقال : أرى لها مثل مهر نسائها ولها الميراث وعليها العدة فشهد معقل بن سنان الاشجعي أن النبي ﷺ قضى في برّوع ابنة واشق بمثل ما قضى). رواه الأربعة وصححه الترمذى (١).

فهذا الحديث نص على إيجاب العدة على غير المدخول بها وبهذا لا يكون للاعتراض حظّ من النظر .

(ج) لو سلمنا بعدم النص وأن المعتدة من الوفاة غير المدخول بها مخصصة من عموم آية البقرة وذلك بالقياس على المطلقة قبل المدخول لم نسلم بهذا التخصيص وذلك لأمرين : أحدهما : أن النكاح عقد عمر فإذا مات أحد الزوجين انتهى والشىء إذا انتهى تقرر أحكامه كتقرر أحكام الصيام بدخول الليل وأحكام الاجارة بانقضائها والعدة من أحكامه . ثانيهما : أن المطلقة إذا أتت بولد يمكن للزوج تكذيبها ونفيه باللعان وهذا ممتنع في حق الميت فلا يؤمن أن تأتي بولد فيلحق الميت نسبه وما له من ينفيه فاحتطنا بإيجاب العدة عليها لحفظها عن التصرف والميت في غير منزلها حفظا لها (٢).

التنبية الثانى : فإن قيل قد ورد في الأثر عند أحمد وابن حبان والطحاوى من حديث اسماء بنت عميس قالت : (دخل على رسول الله ﷺ اليوم الثالث من قتل جعفر بن أبى طالب . فقال لا تحدى بعد يومك) هذا لفظ أحمد . وفي رواية له ولا بن حبان والطحاوى لما أصيب جعفر أتانا النبي ﷺ تسلى ثلاثا ثم اصنعي ما شئت (٣).

قال العراقى فى شرح جامع الترمذى : (ظاهره أنه لا يجب الإحداد على المتوفى عنها بعد اليوم الثالث لأن اسماء بنت عميس كانت زوج جعفر بن أبى طالب بالاتفاق وهى والدة أولاده عبد الله ومحمد وعوف وغيرهم قال بل ظاهر النهى أن الإحداد لا يجوز (٤).

قيل الجواب عن هذا الاعتراض من وجوه :

الوجه الأول : ما ذكره العراقى نفسه بأن هذا الحديث شاذ ومخالف للأحاديث الصحيحة وقد اجمعوا على خلافه . قال ويحتمل أن يقال إن جعفر قتل شهيدا والشهداء

(١) سنن أبى داود ج٢ ص ٥٨٨ . جامع الترمذى ج٥ ص ١١٤ . سنن النسائى ج٦ ص ١٢١ . سنن ابن ماجه ج١ ص ١٨٩ .

(٢) المغنى ج٧ ص ٤٧٠ وما بعدها .

(٣) فتح البارى ج٩ ص ٤٨٧ .

(٤) فتح البارى ج٩ ص ٤٨٧ .

أحياء عند ربهم . قال وهذا ضعيف لأنه لم يرد في غير جعفر من الشهداء ممن قطع بأنهم شهداء كما قطع بجعفر كحمزه بن عبد المطلب وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر^(١) .

فأنت ترى أنه حكم على الحديث بالشذوذ وحديث الشاذ ضعيف لا تقوم به حجة .

الوجه الثاني : ما ذكره الطحاوى من أن هذا الحديث منسوخ وأن الإحداذ كان على المعتدة كذلك في وقت ثم أمرت بالإحداذ أربعة أشهر وعشرا^(٢) .

وان كانت هذه دعوى بلا دليل إذ أن النسخ لا يكون إلا بمعرفة التاريخ وهو تقدم المنسوخ وتأخر الناسخ إلا أن احتمال النسخ وارد هنا لأن حديث اسماء هذا متقدم في الغالب على أحاديث الإحداذ الأخرى . فإن حديث اسماء هذا في غزوة موته وهى في السنة الثامنة من الهجرة والنبي الكريم توفى في السنة الحادية عشرة لكن دعوى النسخ لا تثبت بالاحتمال .

الوجه الثالث : هو أن المراد بالإحداذ والمقيد بالثلاث قدرا زائدا على الإحداذ المعروف فعلته اسماء مبالغة في حزنها على جعفر فنهاها عن ذلك بعد الثلاث .

الوجه الرابع : هو أن اسماء كانت حاملا فوضعت بعد ثلاث فانقضت العدة فنهاها بعدها عن الإحداذ ولا يمنع ذلك قوله في الرواية الأخرى .

الوجه الخامس : يحتمل أنه ﷺ علم أن عدتها تنقضى عند الثلاث فأمرها بهذا الأمر .

الوجه السادس : يحتمل أن جعفر قد أبانها بالطلاق قبل استشهاده فلم يكن عليها إحداذ .

الوجه السابع : ما ذكره البيهقى من أن هذا الحديث منقطع وقال لم يثبت سماع عبد الله بن شداد من اسماء بنت عميس^(٣) .

وَرَدَّ هذا بأنه تعليل مدفوع فقد صححه أحمد ومجابه منه بأن أحمد قال أنه (أى حديث اسماء) مخالف للأحاديث الصحيحة في الإحداذ قال ابن حجر في الفتح (وهو مصير منه إلى أنه يعله بالشذوذ وذكر الأشرم أن أحمد سئل عن حديث حنظلة عن سالم عن ابن عمر رفعه لا إحداذ فوق ثلاث فقال هذا منكراً والمعروف عن ابن عمر من رأيه^(٤) .

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٤٨٤ .

(٢) شرح معانى الآثار للطحاوى ج ٣ ص ٧٥ .

(٣) (٤٠٣) تعليق بياض السنن الكبرى للبيهقى ج ٧ ص ٤٣٨ .

قال ابن حجر تعقيباً على كلام أحمد وهذا يحتمل أن يكون لغير المرأة المعتدة فلا نكارة فيه بخلاف حديث أسماء والله أعلم^(١).

هذا وبعد عرض ما تقدم تعلم أن الأوجه التي ذكرناها كلها محتملة اللهم إلا ما ذكره العراقي من اعلال الحديث بالشذوذ والذي ينبغي أن يعلم هو أن هذا الحديث على فرض صحته معارض لما هو أصح منه وأكثر شهرة ومن المعلوم أن الحديث الصحيح إذا تعارض مع ما هو أصح منه وتعدر الجمع قُدم الأصح فإذا كان الحديث في الصحيحين ويعارضه حديث آخر في أحدهما قُدم ما كان في الصحيحين والأمر كذلك فيما كان في صحيح البخاري ويعارضه حديث آخر في صحيح مسلم فإن ما كان في صحيح البخاري يقدم على ما كان في صحيح مسلم عند التعارض وعدم إمكان الجمع وما كان فيهما أو في أحدهما يقدم على غيره عند التعارض وعدم إمكان الجمع وهذا الحديث الذي نحن بصدد الكلام عنه على فرض صحته لم يكن في الصحيحين ولا في أحدهما بخلاف الأحاديث التي تعارضه فإنها صحيحة لا مطعن لأحد في صحتها لكونها في الصحيحين .

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن المدة المعتبرة للعدة والإحداد في حق الحائض من النساء هي أربعة أشهر وعشراً ولا يشترط وجود الحيض في هذه المدة وإنما تنقضي عدة المعتدة المشار إليها وإتمام أربعة أشهر وعشراً لأن الأدلة التي تفيد هذا المعنى من الكتاب والسنة لم تجعل انقضاء عدتها منوطاً بشرط حيض ولا غيره وإنما الزمن الوحيد لانقضاء هذه المدة هو أربعة أشهر وعشراً ولأنه لو اعتبر الحيض في حقها لاعتبر ثلاثة قروء كالمطلقة^(٢).

والحاصل هو أن زمن الإحداد في حق المتوفى عنها زوجها غير الحبلى هو زمن العدة وزمن العدة في حقها أربعة أشهر وعشراً وإنما هو لكون الجنين يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم أربعين يوماً علقه ثم أربعين يوماً مضغاً فتلك مائة وعشرون يوماً وهي أربعة أشهر. وهذا منصوص عليه في حديث ابن مسعود الصحيح ولفظه (حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغاً مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى وسعيد... الحديث)^(٣).

(١) أنظر الفتح ج ٩ ص ٤٨٧ .

(٢) المغنى ج ٧ ص ٤٧١ .

(٣) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٣٦ .

فالحديث دليل على أن النفخ يكون بعد المدة المذكورة في الحديث وهي العشرة التي لم نذكرها هنا فأمرت المعتدة إلى تربص هذه المدة ليستبين الحبل إن كان ثمة حبل هذا ما يمكن أن يقال في هذا المقام وقبل أن نترك هذا المطلب يحسن أن نشير إلى مسألتين لهما علاقة بما نحن فيه .

المسألة الأولى : متى يبدأ الإحداد ؟ ، المسألة الثانية هل المعتبر لخروج المعتدة المتوفى عنها زوجها من عدتها الليالي أو الأيام في قوله عشرًا ؟ .

فنقول المسألة الأولى متى يبدأ الإحداد اختلف الفقهاء في تحديد الزمن الذي تبدأ فيه المعتدة عدتها وبالتالي إحدادها أهو من وقت موت الزوج أو من وقت علمها ؟ على قولين :
القول الأول للجمهور : وهو أن عدة المتوفى عنها تبدأ من حين موت الزوج وهو زمن وجوب الإحداد عليها سواء علمت بذلك حين الوفاة أو لم تعلم إلا بعد ذلك ما لم تنقضى أربعة أشهر وعشرًا . فإذا انقضت قبل علمها فلا عدة عليها ولا إحداد وذلك لأن المقصود من العدة هو عدم التزوج وقد وجدوا أيضاً العاملة بالوفاة لومرت عليها أربعة أشهر ولم تحد خرجت من العدة اتفاقاً فكذا هنا^(١) . فالعدة هي مضي المدة وذلك يتحقق بدون علمها فهي وعدة الطلاق سواء . غاية ما في الأمر أنها لم تفعل الإحداد ولكن ذلك لا يمنع من انقضاء العدة كما لو كانت عاملة بموت زوجها .

القول الثاني : عن على رضى الله عنه وهو أن العدة تبدأ من وقت علمها بالوفاة فعلى هذا لا تجب عليها العدة وكذلك الإحداد إلا إذا علمت بوفاة زوجها حتى ولو مرت على وفاته أربعة أشهر وعشرًا قبل علمها لم تنقضى عدتها لأن عليها الإحداد ولا يمكنها إقامته إلا بالعلم بموته^(٢) . ولأن هذه العدة تجب بطريق العبادة فلا بد من علمها بالسبب لتكون مؤدية للعبادة .

ورد هذا بان العبادة تبع لا مقصود بدليل أن العدة تجب على الكتابية إذا كانت تحت مسلم وهي لا تخاطب بالعبادات .

وعندى أن العدة تجب عليها من وقت الوفاة لما بينا ولأن المقصود براءة الرحم وقد وجدت فلا مجال لايجاب العدة عليها بعد مرور المدة المنصوص عليها .

المسألة الثانية : هل المعتبر لخروج المعتدة المتوفى عنها زوجها من عدتها الليالي أو

(١) مواهب الجليل ج ٤ ص ١١٥٣ ، المهذب ج ٢ ص ١٨٦ ، المغنى ج ٧ ص ٤٧١ .

(٢) فتح القدير ج ٤ ص ٣١٣ .

الأيام في قوله عشراً؟ المدة المنصوص عليها التي تخرج بها المعتدة من عدتها والحال أنها متوفى عنها هي أربعة أشهر وعشراً وهذا لا خلاف فيه لأنه منصوص عليه وإنما اختلف الفقهاء في أمر واحد وهو الاحتمال الوارد في قوله عشراً فإنه يحتمل أن يكون المراد بذلك الأيام وأن يكون المراد بذلك الليالي ولهذا اختلف الفقهاء في ذلك على قولين :

القول الأول للجمهور : وهو أن المعتبر في ذلك الأيام مع الليالي لأن الاستعمال في مثل هذا من ذكر عدة الليالي يدخل ما بإزائها من الأيام على ما عرف بالتاريخ حيث يكتب بالليالي فيقال لسبع خلون مثلاً ويراد كون عدة الأيام كذلك^(١).

القول الثاني : للأوزاعي وعبد الله بن عمرو بن العاص وهو أن المعتبر في ذلك الليالي دون الأيام فلو تزوجت في يوم العاشر جاز وذلك أخذاً من التذكير^(٢). فإن جمع المؤنث يذكر وجمع المذكر يؤنث فيقال عشرة أيام وعشر ليالٍ والعدد المختلف هنا هو قوله عشراً فتذكيره دليل على أن المراد بذلك الليالي دون الأيام وهذا واضح من الكتاب والسنة . فمن الكتاب قوله تعالى : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ .^(٣) ومن السنة قوله ﷺ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» . كون المعدود الليالي وإلا لأنته .

والراجح عندي هو القول الأول صحيح أن العدد يذكر مع المؤنث ويؤنث مع المذكر إلا أن العرب تغلب اسم التأنيث في العدد خاصة على المذكر فتطلق لفظ الليالي وتريد الليالي بأيامها كما قال الله تعالى لذكريا ﴿آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً﴾^(٤) يريد بأيامها بدليل أنه قال في موضع آخر ﴿آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾ يريد بلياليها ولهذا لو قرر أحد اعتكاف العشر الأخير من رمضان لزمه الليالي والأيام معا . ويقول القائل سرنا عشراً يريد الليالي بأيامها فلم يجوز نقلها عن العدد إلى الإباحة بالشك^(٥) هذا إذا كانت عالمة بوفاته يقينا أما إذا شككت في وقت وفاته فإنها تعتد من الوقت الذي تستيقن فيه بموته لأن العدة يؤخذ فيها بالاحتياط والاحتياط هو الأخذ باليقين وفي الوقت المشكوك فيه لا يقين فلهذا لا تعتد إلا من الوقت المتيقن^(٦).

(١) فتح القدير ج ٤ ص ٣١٣ ، المغنى ج ٧ ص ٤٧١ .

(٢) فتح القدير ج ٤ ص ٣١٣ ، المغنى ج ٧ ص ٤٧١ ، المبسوط ج ٦ ص ٣١ .

(٣) سورة البقرة «٢٣٤» .

(٤) سورة آل عمران «٤١» .

(٥) المغنى ج ٧ ص ٤٧١ .

(٦) المبسوط ج ٦ ص ٣٩ .

المطلب الثاني : في سبب وجوب الإحداد :

عرفت قريباً أن الفقهاء مختلفون في وجوب الإحداد على من يجب واختلافهم في الجملة راجع إلى أمرين : المعتدة من الوفاة، والمعتدة من طلاق بائن . فالحنفية يتوسعون في الإيجاب فيوجبون الحداد في الأمرين معاً أعنى المعتدة من الوفاة والمعتدة من الطلاق البائن بينونة الكبرى، والجمهور يضيّقون دائرة الإيجاب فيجعلونه خاصاً بالوفاة وتبعاً لهذا الاختلاف يكون سبب الإيجاب .

فعند الحنفية ومن قال بقولهم يكون سببه الوفاة والبينونة الكبرى، وعند الجمهور يكون سببه الوفاة لا غير وإنما كان سبب الوفاة لما يأتي . في قوله تعالى ﴿والذين يتوفون ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ فالآية دليل على إيجاب العدة على المتوفى عنها زوجها ووجوب العدة عليها يستلزم إيجاب الإحداد وعدم إيجابه على غيرها بدليل قوله ﷺ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله وباليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » هذا من جهة ومن جهة أخرى فالعدة والإحداد يجبان اظهاراً للحزن بفوت النعمة وتعريفاً بقدرها والمراد بالنعمة هنا هي نعمة النكاح . إذ النكاح كان نعمة عظيمة في حقها فإن الزوج كان سبب صيانتها وعفائها وايفائها بالنفقة والكسوة والمسكن (١) . ولهذا كان لفراق الزوج أثر في نفسها فما كان من أمر الشارع إلا أن أوجب عليها للزوج حقوقاً اظهاراً للمصيبة بموته ومن تلك الحقوق العدة والإحداد هذا في المعتدة من الوفاة . وقد عرفت ما استدل به فقهاء الحنفية لإيجاب الحداد على البائن وهو سبب وجوب عندهم .

المطلب الثالث : في شرط وجوب عدة المتوفى عنها :

شرط وجوب العدة هو النكاح الصحيح فلا تجب على المنكوحه نكاحاً فاسداً ولا الموطوءة بالشبهة ولا الموطوءة بالزنا وإنما تجب على المتوفى عنها زوجها سواء كانت مدخولاً بها أو غير مدخولٍ بها وسواء كانت ممن تحيض أو ممن لا تحيض لعموم قوله عز وجل ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ ولما تقدم من أن

(١) بدائع الصنائع ج ٣ ص ١٩٢ .

العدة تجب اظهارا للحزن بفوت نعمة النكاح وقد وجد وأنها شرطنا النكاح الصحيح لأن الله تعالى أوجبها على الأزواج ولا يصير زوجاً حقيقة إلا بالنكاح الصحيح وسواء كانت مسلمة أو كتابية تحت مسلم لعموم النص ولوجود المعنى الذى وجبت من أجله وسواء كانت حرة أو أمة أو مدبرة أو مكاتبه فإنه لا يختلف أصل الحكم لأن ما وجبت له لا يختلف (١). ولم أجد فى هذا كله خلافاً عند أهل العلم إلا ما كان من أمر الحنابلة من تفصيل فى ذلك يحسن ذكره وهو أن الرجل لومات عن امرأة نكاحها فاسد أن عليها عدة الوفاة وهو ما ذهب إليه القاضى من فقهاء الحنابلة وقد نص على ذلك أحمد فى رواية جعفر بن محمد واختارها أبو بكر وقدامها الأكثر لأنه نكاح يلحق بالنسب فوجبت به العدة كالصحيح وقال ابن حامد من الحنابلة لا عدة عليها للوفاة فى ذلك لأنه لا يثبت الحمل فلم يوجب العدة كالباطل (٢).

ومن المعلوم أن المنكوحه بنكاح باطل مجمع على بطلانه كنكاح القريبة من النسب ونكاح المحرمة بالمصاهرة أو الرضاع ونحو ذلك لا تجب عليها عدة الوفاة اجماعاً (٣). لأن الفقهاء مختلفون فى وجوب عدة الوفاة على الموطوءة بشبهة وأكثرهم على عدم وجوبها فإذا كان الأمر كذلك فعدم الوجوب فى النكاح الباطل أولى هذا ويشكل على قول الفقهاء القائلين بعدم وجوب العدة على الموطوءة بنكاح فاسد الحكم بوجوب عدة الطلاق على المدخول بها إذ أنه لا فرق بينها وبين المطلقة فى هذا المعنى فالمطلقة إذا كانت ممن تحيض فعدتها ثلاثة قروء وإذا لم تكن كذلك فعدتها ثلاثة أشهر وهذه مثلها إذا حصلت الخلوة والاصابة وإن كان بعدها قبل الاصابة فالمنصوص عند الحنابلة أن عليها العدة أيضاً لأنه اجرى مجرى الصحيح فى حقوق النسب فكذا فى العدة (٤). لكن يزول الاشكال إذا عرفنا أن عدة الوفاة إنما تجب على الزوجة دون غيرها وهو منصوص عليه فى الكتاب والسنة والمنكوحه بنكاح فاسد ليست بزوجة فى الحقيقة فلا تجب عليها عدة الوفاة وإنما وجبت عليها عدة الطلاق لما بينا من الدليل هذا فى العدة والأمر كذلك فى الإحداد والحنفية يستثنون الصغيرة والمجنونة والكتابية من ذلك فى حين أنهم يرون إيجاب العدة على الجميع وقد اسلفنا ما يتعلق بذلك قريباً .

(١) بدائع الصنائع ج ٣ ص ١٩٢، نهاية المحتاج ج ٧ ص ١٢٦، شرح الخرشى ج ٤ ص ١٤٣ .

(٢) المبدع ج ٨ ص ١١٥ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

المطلب الرابع : في وجوب الحداد على المطلقة إذا مات زوجها قبل انقضاء عدتها من الطلاق :

المطلقة لا تخلو من أحد أمرين أما أن تكون رجعية أو بائنا والبائن لا تخلو من أن يكون طلاقها في صحة الزوج وإما أن يكون في حالة مرضه وطبقا لهذا التقسيم يكون الكلام في هذا المطلب ولهذا فقد رأيت أن يكون البحث في جانبين . أحدهما متفق عليه والآخر مختلف فيه .

فأما المتفق عليه فهو قسمان :

(أ) الطلاق الرجعي .

(ب) البينونة في حالة الصحة .

وأما المختلف فيه فهو البينونة في حالة المرض وإليك تحرير المقام والله المستعان .

القسم الأول : من الجانب الأول عدة الرجعية إذا مات زوجها قبل انقضاء عدتها لا خلاف بين أئمة الفتوى في أن الرجعية إذا مات زوجها قبل انقضاء عدتها من الطلاق تنتقل من عدة الطلاق إلى عدة الوفاة فيكون ابتداء عدتها من حين وفاة زوجها ولا تعتد بالزمن الذي مضى قبل وفاته والحكم في الإحداد هو نفسه لأنه لا يوجد بوجود العدة وينعدم بعدمها وإنما قلنا بذلك لما يأتي :

(١) أن النكاح قائم بينهما بعد الطلاق الرجعي فكان منتهيا بالموت وبانتهاء النكاح بالموت يلزمها عدة الوفاة .

(٢) أن العدة بعد الطلاق الرجعي تكون بالحيض وهي لا يزول الملك بها إلا بعد تمامها وقد زال بالموت فعليها العدة التي هي من حقوق النكاح وهي عدة الوفاة^(١) .

(٣) أن الرجعية زوجة يلحقها طلاقه وينالها ميراثه فتعتد للوفاة كغير المطلقة إذ الطلاق الرجعي لا يوجب زوال الزوجية وإنما تزول بالموت أو بالبينونة أو بخروج الرجعية من عدتها ومن المعلوم أن موت الزوج يوجب على زوجته عدة الوفاة لما بينا أكثر من مرة فوجب عدة الوفاة على الزوجة بعد الطلاق الرجعي لا يختلف عنه قبله ولهذا كله قال ابن المنذر أجمع كل من تحفظ عنه من أهل العلم على ذلك^(٢) . وهو كما قال فإنني لم أجد خلافا بين أهل

(١) المبسوط ج ٦ ص ٣٩ ، مغنى المحتاج ج ٣ ص ٣٩٦ ، نهاية المحتاج ج ٧ ص ١٤٦ ، شرح الخرشى ج ٤ ص ١٤٦ .

(٢) المغنى ج ٧ ص ٤٧٢ .

العلم في أن المعتدة الرجعية تستأنف عدة الوفاة إذا مات زوجها في عدتها وتكون عدتها أربعة أشهر وعشراً .

القسم الثاني : من الجانب الأول في عدة المبتوتة إذا مات زوجها قبل انقضاء عدتها وكان الفراق بينهما في حالة الصحة إذا أبان الرجل زوجته في صحته ثم مات عنها قبل انقضاء عدتها لم تنتقل إلى عدة الوفاة وإنما تعدد عدة الطلاق لا أعلم في ذلك بين أهل العلم خلافاً وذلك لأن النكاح لم ينتهي بالوفاة هنا وإنما زال الملك بالطلاق والسبب الموجب لعدة الوفاة هو الموت لأن الله تعالى قال ﴿ويذرون أزواجاً﴾ وهذه ليست بزوجة له عند وفاته حتى لا ترث منه بالرجعية شيئاً ولا يلزمها عدة الوفاة أيضاً^(١) فهي أجنبية منه في نكاحه وميراثه وتحل له أختها فلم تعدد لوفاته كما لو انقضت عدتها^(٢) هذا ما يمكن أن نقوله في هذا الجانب وهو كما ترى متفق عليه بقسميه على ما بينا .

وأما الجانب المختلف فيه وهو في حكم عدة المبتوتة في حالة المرض إذا مات زوجها قبل عدتها فقد اختلف الفقهاء في هذا الجانب على قولين ونحن نذكر آراءهم وما استدل به كل فريق ونخلص إلى القول الراجح حسب الإمكان .

القول الأول : لأبي حنيفة وأحمد ومحمد بن الحسن وسفيان الثوري وهو أن زوج المبتوتة إذا طلقها في مرض موته ثم مات عنها قبل انقضاء عدتها تعدد أطول الأجلين من عدة الوفاة أو ثلاثة قروء^(٣) . وعلى هذا القول يلزمها الإحداد لأنه تبع لعدة الوفاة وقد وجدت هاهنا وقد استدل أصحاب هذا القول بدليل عقلي وهو أن المبتوتة في مرض الموت ترث زوجها بعد وفاته وميراثها له بعد موته إنما كان بسبب الزوجية وكونه أبانها في مرض موته فهو متهم بحرمانها من الميراث فيلزمها عدة الوفاة كما لو طلقها طلاقاً رجعياً وهذا لأننا أعطيناها الميراث باعتبار أن النكاح بمنزلة القائم بينهما حكماً إلى وقت موته أو باعتبار إقامة العدة مقام أصل النكاح حكماً إذ لا بد من قيام السبب عند الموت لاستحقاق الميراث والميراث لا يثبت بالشك والعدة تجب بالشك وإذا جعل في حكم الميراث النكاح كالمتهى بالموت حكماً ففي حكم العدة أولى وسبب وجوب العدة عليها بالحيض متقرر حكماً فالزمنها الجمع بينهما^(٤) .

القول الثاني : للمالكية والشافعية وأبي يوسف من الحنفية وأبي ثور وأبي عبيد وابن

(١) المبسوط ج ٦ ص ٣٩، المغنى ج ٧ ص ٤٧٢، شرح الخرشى ج ٤ ص ١٤٦، نهاية المحتاج ج ٧ ص ١٤٦ .

(٢) المبدع ج ٨ ص ١١٤ .

(٣) المغنى ج ٧ ص ٤٧٢، المبسوط ج ٦ ص ٤٣ .

(٤) المبسوط ج ٦ ص ٤٤ .

المنذروهوأن المتوتة فى مرض الموت تبقى على عدة الطلاق إذا مات زوجها قبل انقضاء عدتها ولا تستأنف عدة الوفاة^(١)، وذلك لأن حكم النكاح انقطع بينهما بالطلاق وسبب وجوب عدة الوفاة انتهاء النكاح بالموت فإذا لم يوجد لا يلزمها عدة الوفاة كما لو كان الطلاق فى صحته وإنما أخذت الميراث بحكم الفرار وذلك لا يلزمها عدة الوفاة بدليل المرتد إذا مات أو قتل على رده ترثه زوجته المسلمة وليس عليها عدة الوفاة لأن زوال النكاح كان برده لا بموته^(٢)، ورد هذا بأن النكاح لما بقى فى حق الأثر فبقائه فى حق وجوب العدة أولى لأن العدة محتاطة فى إيجابها فكان قيام النكاح من وجه كافياً لوجوب العدة احتياطاً فيجب عليها الإعتداد أربعة أشهر وعشراً^(٣).

ولهذا نقول أن الراجح عندنا هو القول الأول لما بينا ولأن الزوج لما أبانها فى مرض موته كان متهماً بحرمانها من الميراث فيعاقب بنقيض قصده وهو توريثها من ماله بعد موته فدل على أن علاقة الزوجية لم تنقطع تماماً إذ لو كان الأمر كذلك لما كان لها حق فى الميراث وانقطاع الزوجية بالموت لا خلاف فيه بين أئمة الفتوى فتجب عليها عدة الوفاة لهذا المعنى ويجب عليها الإحداد وكذلك لأن الإحداد تابع للعدة وإنما قال من قال بأن البائن تعتد فى هذه الصورة بأطول الأجلين لأن البائن وارثة هنا على ما قلنا فيجب عليها أن تعتد للوفاة ومن حيث أنها مطلقة يجب عليها أن تعتد للطلاق فيجب أن تعتد بأطولهما ضرورة فإنها لا تخرج عن العهدة بيقين إلا بذلك^(٤). هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن الزوج المريض المطلق لومات عن زوجته بعد انقضاء عدتها بالحيض أو بالشهور أو بوضع الحمل أو كان طلاقه قبل الدخول لم تجب عليها العدة لموته وبالتالي لا يجب عليها الإحداد لأن الله تعالى قال ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾^(٥)، قال تعالى : ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾^(٦)، وقال تعالى : ﴿واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن﴾^(٧) فهذه الآيات كلها تبين عدة المطلقة بيانا شافيا وهى كما ورد فى الآيات على ثلاثة أقسام : أما أن تكون مطلقة قبل الدخول وهذه لا عدة عليها، أما أن

(١) نهاية المحتاج جـ ٧ ص ١٤٦، مغنى المحتاج جـ ٣ ص ٣٩٦، شرح الخرشي جـ ٤ ص ١٤٦، والمغنى جـ ٧ ص ٤٧٢، المبسوط جـ ٦ ص ٤٣.

(٢) المبسوط جـ ٦ ص ٤٣.

(٣) بدائع الصنائع جـ ٣ ص ٢٠٠.

(٤) المبدع جـ ٨ ص ١١٤.

(٥) سبق تحريجها.

(٦) سورة البقرة «٢٢٨».

(٧) سورة الطلاق «٤».

تكون مطلقة بعد الدخول وهي ممن تحيض فعدتها ثلاثة قروء أو تكون آتسة أو صغيرة وهذه عدتها ثلاثة أشهر وقد أنقضت عدة طلاقها قبل وفاة زوجها فليس ثمة ما يدعو إلى إيجاب عدة الوفاة عليها لأنها أجنبية تحل للأزواج ويحل للمطلق نكاح أختها وأربع سواها فلم تجب عليها عدة موته كما لو تزوجت ولا يرد عليه ما قررناه قريبا وجوب عدة الوفاة على المطلقة إذا مات زوجها قبل انقضاء عدتها إذا لم يكن الطلاق في حالة الصحة لأنها لا تحل لغير مطلقها مادامت في عدتها وهذه بخلافها فإنها قد خرجت من عدتها وحل نكاحها لغير زوجها^(١).

المطلب الخامس : في إحداد المتوفى عنها الحامل

عرفت قريبا أن الإحداد يجب على المتوفى عنها زوجها من وقت وفاة زوجها وهذا قول الجمهور وهو ينقضى في حق الحائل بمرور أربعة أشهر وعشرا كما تم ثبته آنفا .

والأمر كذلك في الحامل فإن الحامل المتوفى عنها تحتسب لها مدة الإحداد من وقت وفاة زوجها وعلى هذا لا يكون فرقا بين الحائل والحامل في هذا المعنى إذ أن الإحداد تابع للعدة والعدة تبدأ من وقت الوفاة بيد أن الحامل تختلف عن الحائل في انقضاء العدة والإحداد فالحائل تحل للأزواج بعد مرور أربعة أشهر وعشرا على وفاة زوجها وليس الأمر كذلك في الحامل ، وعلى هذا نقول متى تنقضى عدة الحامل المتوفى عنها ؟ سؤال اختلفت في جوابه كلمة الفقهاء على قولين :

القول الأول : ذهب الجمهور ومنهم الأئمة الأربعة إلى أن عدة الحامل المتوفى عنها تنقضى بوضع حملها ولو كان ذلك بعد وفاة زوجها بمدة يسيرة وبالتالي لا يجب عليها الإحداد بعد وضع حملها لكون وجوب الإحداد تابعا لوجود العدة^(٢) ، الاستدلال بهذا القول من أربعة طرق :

(١) طريق الكتاب . (٢) طريق السنة .

(٣) الآثار المروية عن بعض الصحابة . (٤) المعقول .

وإليك تحرير المقام في ذلك :

(١) الاستدلال بالكتاب : استدلال أصحاب هذا القول بقوله تعالى : ﴿وَأُولَاتُ

(١) المغنى ج ٧ ص ٤٧٢ .

(٢) تبيين الحقائق ج ٣ ص ٢٨ ، بدائع الصنائع ج ٣ ص ١٩٢ ، المغنى ج ٧ ص ٤٨٣ ، الخرشى ج ٤ ص ١٤٣ ، مغنى

المحتاج ج ٣ ص ٣٨٨ .

الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴿١﴾ . فالآية دليل على أن الحامل تنقضى عدتها بوضع حملها لأن الأجل المذكور في الآية هو العدة وهو معلق بغاية وهي وضع الحمل والآية شاملة بعمومها لكل حامل سواء كانت متوفى عنها أو مطلقة وفي هذا يسر بديع فإن الله تعالى حينما جعل الظرف الزمنى لعدة المتوفى عنها أربعة أشهر وعشراً أخرج من هذا العموم بدليل آخر عدة الحامل فتكون عدتها بوضع حملها وهو ما يعرف في علم الأصول بتخصيص العام والقول بقصرها على عدة الحامل المطلقة دعوى بلا دليل كما سيأتى .

(٢) وأما استدلالهم من السنة فقد استدلوا منها بما يأتى :

(أ) ما روى الجماعة إلا أبا داود وابن ماجه عن أم سلمة : (أن امرأة من اسلم يقال لها سبيعة كانت تحت زوجها فتوفى عنها وهي حبلى فخطبها أبو السنابل بن بعكك فأبت أن تنكحه . فقال والله ما يصلح أن تنكحى حتى تعتدى آخر الأجلين . فمكثت قريبا من عشر ليال ثم نفست ثم جاءت النبي ﷺ فقال إنكحى) (٢) .

وللجماعة إلا الترمذى فى قصة سبيعة قالت : (فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزويج أن بدالى) (٣) .

فهذا الحديث دليل على أن عدة الحامل المتوفى عنها تنقضى بوضع حملها وهو حديث صحيح لا كلام لأحد فى صحته وبانقضاء عدتها بوضع حملها يجوز نكاحها وهو ما صرح به فى الحديث فجواز نكاحها دليل على انقضاء عدتها وانقضاء عدتها دليل على عدم وجوب الإحداد عليها بعد وضع حملها فإن قيل الاستدلال بالحديث على محل النزاع فيه نظر وذلك لأمرين :

الأمر الأول : ما ورد فى قصة سبيعة نفسها من مخالفة ظاهرة لهذا الحديث وهى رواية صحيحة لا مطعن فى صحتها ولفظها عند البخارى كما ورد فى رواية يونس عن الزهري وهو ان عمر بن عبد الله بن الأرقم كتب إلى عبد الله بن عتبة يجبره أن سبيعة بنت الحرث أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خوله فتوفى عنها فى حجة الوداع وهى حامل فلم تنشب أن وضعت حملها فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك رجل من

(١) سورة الطلاق «٤» .

(٢) صحيح البخارى ج٧ ص٧٢ ، صحيح مسلم ج٤ ص١٤٨ ، سنن النسائى ج٦ ص١٩٦ ، جامع الترمذى ج٢ ص٣٣٢ ، وسنن ابن ماجه ج٧ ص٢٠٢ مسند أحمد ج٦ ص٤٣٢ .

(٣) المصادر السابقة وسنن أبى داود ج٢ ص٧٢٨ .

بنى عبد الدار فقال مالى أراك تجملت للخطاب ؟ فإنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشراً . قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت علي ثيابى حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزويج(١) .

فظاهر هذه الرواية يخالف ما قبلها وذلك أن ما قبلها يفيد أنها مكثت قريباً من عشر ليال ثم جاءت النبي ﷺ وظاهر هذه الرواية يفيد أنها توجهت إلى النبي ﷺ فى اليوم الذى قال لها فيه أبو السنابل ما قال فإنها قالت جمعت علي ثيابى حين أمسيت وهذا يدل على أنها توجهت إلى النبي ﷺ فى اليوم نفسه فإذا كان الأمر كذلك فالحديث لا يكون دليلاً على محل النزاع وإنما يصر إلى الأدلة التى تخالفه كما سيأتى :

والجواب عن هذا الاعتراض بأن الجمع ممكن هنا وهو أولى لأن فيه أخذاً بالأدلة جميعاً وبيان ذلك هو أن نحمل هذه الرواية (وهى قولها حين أمسيت) على إرادة توجهها ولا يلزم منه أن يكون فى ذلك اليوم الذى قال لها فيه ما قال(٢) . بذلك تجتمع الأدلة ويحصل الأخذ بها جميعاً .

وما كان فى الصحيحين مقدم على غيره عند التعارض وعدم إمكان الجمع .

الأمر الثانى : اختلاف روايات هذا الحديث مما يجعل الناظر فيه يشك فى دلالة ذلك وأنه ورد بروايات مختلفة فى المبنى والمعنى . وفى رواية أنها ولدت قريباً من عشر ليال وفى رواية لأحمد فلم أمكث إلا شهرين حتى وضعت ، وفى رواية للبخارى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، وفى أخرى للنسائى بعشرين ليلة أو خمس عشرة ، وفى رواية للترمذى والنسائى فوضعت بعد وفاة زوجها بثلاثة وعشرين يوماً أو خمسة وعشرين يوماً ولا بن ماجه ببضع وعشرين ، وفى ذلك روايات أخر مختلفة(٣) .

والجواب عن ذلك ما ذكره ابن حجر فى الفتح بعد ذكر هذه الروايات حيث قال (والجمع بين هذه الروايات متعذر لاتحاد القصة ولعل هذا هو السر فى إبهام من إبهام المدة إذ محل الخلاف أن تضع لدون أربعة أشهر وعشراً وهو هنا كذلك فأقل ما قيل فى هذه الروايات نصف شهر وأما ما وقع فى بعض الشروح أن فى البخارى رواية عشر ليال وفى رواية الطبرى

(١) سبق تخريجه .

(٢) نيل الأوطار ج ٦ ص ٣٢٣ ، فتح البارى ج ٩ ص ٤٧٣ .

(٣) المصدرين السابقين .

ثمان أو سبع فهو في مدة إقامتها بعد الوضع إلى أن استفتت النبي ﷺ لا في مدة بقية الحمل وأكثر ما قيل فيه بالتصريح شهرين وبغيره دون أربعة أشهر^(١).

(٢) ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وغيرهم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : (كنت أنا وابن العباس وأبو هريرة فجاء رجل فقال : افتنى فى امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة . فقال ابن عباس : تعتد آخر الأجلين . وقلت أنا : وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن . قال ابن عباس : ذلك فى الطلاق . وقال أبو سلمة أرايت لو أن امرأة تأخر حملها سنة فما عدتها . قال ابن عباس : آخر الأجلين . قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخى يعنى أبا سلمة فأرسل ابن عباس غلامه كريبا إلى أم سلمة يسألها هل مضت فى ذلك سنة ؟ فذكرت أن سبعة الأسلمية وضعت بعد موت زوجها بأربعين ليلة فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ^(٢) .

(٣) كما أخرجه ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن مردويه من حديث أبى السنابل أن سبعة وضعت بعد موت زوجها بثلاث وعشرين يوما فقال ﷺ : «قد حل أجلها»^(٣) .

(٤) ما روى البخارى أن عبد الله بن عبد الله أخبره عن أبيه أنه (كتب إلى ابن الأرقم أن يسأل سبعة الأسلمية كيف أفتاها النبي ﷺ فقالت إذا وضعت أن انكح)^(٤) .

(٥) روى البخارى عن المسور بن مخرمة (أن سبعة الأسلمية نفست بعد وفاة زوجها بليل فجاءت النبي ﷺ فاستأذنته أن تنكح فأذن لها فنكحت)^(٥) .

فهذه الأحاديث قاضية بأن عدة الحامل المتوفى عنها لها غاية وهى وضع حملها فهل لأحد أن يقول بخلاف ما دلت عليه هذه النصوص الصحيحة الصريحة التى تفيد بمنطوقها ومفهومها ما يفيد ظاهر الكتاب وهو انقضاء عدة الحامل المتوفى عنها بوضع حملها .

(٣) الآثار :

وأما الآثار المروية عن بعض الصحابة التى تفيد هذا المعنى فنورد منها ماأتى :

(١) ما روى عن ابن مسعود (أنه بلغه أن عليا يقول تعتد آخر الأجلين فقال من شاء لاعتته أن الآية التى فى سورة النساء الصغرى نزلت بعد سورة البقرة بكذا وكذا شهر .

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٤٧٣ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) نيل الأوطار ج ٦ ص ٣٢٥ .

(٤) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٩ ص ٤٦٩ .

(٥) المصدر السابق .

(٢) أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أيضا (أن سورة النساء الصغرى نسخت ما في البقرة) .

(٣) أخرج ابن مردويه عنه أن سورة النساء الصغرى نسخت كل عدة .

(٤) أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري . قال : (نزلت سورة النساء الصغرى بعد التي في البقرة بسبع سنين)^(١) .

فهذه الآثار مصرحة بأن قوله تعالى ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ عامة في جميع العِدَدِ وأن عموم آية البقرة مخصص بها وهو المراد بالنسخ المذكور في الآثار المذكورة وليس المراد النسخ الإصطلاحى وهو إزالة الحكم الأول وتبديله بحكم آخر بل المراد التخصيص على ما بينا .

(٤) وأما استدلالهم بالمعقول فمن وجهين :

الوجه الأول : أن المعتدة المطلقة تنقضى عدتها بوضع حملها إذا كانت حاملا إجماعاً فكذا المتوفى عنها قياسا عليها لأن العدة إنما شرعت في الأصل لمعرفة براءة رحمها من الحمل ووضعه أدل الأشياء على البراءة منه فوجب أن تنقضى العدة .

الوجه الثانى : أنه لا خلاف بين (أهل العلم في بقاء العدة والمرأة حاملا فإذا كان الأمر كذلك فينبغى أن تنقضى العدة بوضعه كما لو كانت الحامل المطلقة)^(٢) .

القول الثانى مروى عن على وابن عباس وابن مسعود وأبى السنابل وعبد الرحمن بن أبى ليلى وسحنون من المالكية أن المتوفى عنها الحامل لا تنقضى عدتها بوضع حملها وإنما تعتد أطول الأجلين ومعناه أنها إن وضعت قبل مضى أربعة أشهر وعشر تربصت إلى انقضائها ولا تحل بمجرد الوضع وإن انقضت المدة قبل الوضع تربصت إلى الوضع على اختلاف في نسبة هذا القول إلى هؤلاء وأئمة الاعلام .

وتحرير المقام في ذلك ما ذكره ابن حجر فى الفتح وهو أن هذا القول ثابت عن على رضى الله عنه باسناد صحيح كما أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وليس كما ذكر بعض الفقهاء من أنه مروى عن على باسناد منقطع .

(١) أنظر هذه الآثار فى نيل الأوطار ج ٦ ص ٣٢٥ .

(٢) أنظر المغنى ج ٧ ص ٤٧٤ .

أما ابن عباس فالذى يظهر أنه رجع عن هذا القول بحققة أن المنقول عن تلاميذه وفاق الجماعة في ذلك .

كذلك عبد الله ابن مسعود رجع عن قوله أولاً إلى قول الجماعة كما تم ثبته قريباً فإنه قال من شاء باهله (أى لاعتته) في أن سورة النساء الصغرى نزلت بعد سورة البقرة .
والأمر كذلك عن أبى السنابل فإنه يظهر من مجموع الطرق في قصة سبيعة أنه رجع عن فتواه أولاً^(١) .

ولو فرض أن هؤلاء قالوا كلهم بهذا القول ولم يرجع منهم أحد فلا حجة إلا فيما نقل عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير .

وأما ما روى عن سحنون من فقهاء المالكية فقد رده ابن حجر في الفتح بأنه شذوذ مردود لأنه احداث خلاف بعد استقرار الاجماع^(٢) .

وحجة من قال بأن الحامل المتوفى عنها زوجها تعتد أطول الأجلين هو الحِرْصُ على العمل بالآيتين اللتين تعارض عمومهما فقوله تعالى ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ عام في كل من مات عنها زوجها يشمل الحامل وغيرها - وقوله تعالى ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ عام أيضاً يشمل المطلقة والمتوفى عنها - فجمع أولئك بين العمومين بقصر الثانية على المطلقة بقريظة ذكر عدد المطلقات كالأيسة والصغيرة قبلها ثم لم يهملوا ما تناولته الآية الثانية من العموم لكن قصره على من مضت عليها المدة ولم تضع فكان تخصيص بعض العموم أولى وأقرب إلى العمل بمقتضى الآيتين من الغاء أحدهما في حق بعض من شمله العموم^(٣) .

والجواب عن هذا الاستدلال من وجوه :

الوجه الأول : ما ذكره القرطبي بعد ما ذكر ما في المسألة من خلاف حيث قال بعد إيراد دليل المخالفين للجمهور (والجمع أولى من الترجيح باتفاق أهل الأصول وهذا نظر حسن لولا ما يُعكر عليه من حديث سبيعة الأسلمية وأنها نِفست بعد وفاة زوجها بليال وأنها ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأمرها أن تتزوج فيين بالحديث أن قوله تعالى ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ محمول على عمومته في المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن فتكون

(١) أنظر فتح البارى ج ٩ ص ٤٧٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) فتح البارى المصدر السابق .

عدتهن بوضع الحمل ويعتقد هذا بقول ابن مسعود من شاء باهله أن آية النساء الصغرى نزلت بعد آية عدة الوفاة وليس الأمر كما زعم بعض من زعم من أن كلام ابن مسعود يفيد أن آية الطلاق ناسخة لآية البقرة وإنما يعنى كلام ابن مسعود أن آية الطلاق مخصصة لآية البقرة فإنها أخرجت منها بعض ما تناولتها وكذلك حديث سبيعة متأخر عن عدة الوفاة لأن قصة سبيعة كانت بعد حجة الوداع وزوجها هو سعد بن خولة وهو من بنى عامر بن لؤى وهو ممن شهد بدرًا وتوفى بمكة حينئذ وهى حامل وهو الذى رثى له رسول الله ﷺ من أن توفى بمكة^(١).

فكلامه يفيد أن عموم آية البقرة مخصوص بقوله تعالى ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ لا منسوخا بدليل قصة سبيعة المتفق على صحتها وتخصيص العام وتقييد المطلق أمر شائع عند الأصوليين ولا ضرورة هنا للجمع وهو ما اعتمده أصحاب القول الثانى لأنه تعارض بين النصوص فهذا عام وهذا مخصص فيحمل العام على الخاص ويخرج من عمومه ما دل عليه هذا الخاص .

أضف إلى هذا ما قاله أبو عمر بن عبد البر تعقيبا على هذه المسألة (لولا حديث سبيعة لكان القول ما قال على وابن عباس لأنهما عدتان مجتمعتان بصفيتين وقد اجتمعتا فى الحامل والمتوفى عنها زوجها فلا تخرج من عدتها إلا بيقين واليقين آخر الأجلين)^(٢).

الوجه الثانى : لو سلمنا بوجود التعارض وعدم التخصيص لم نسلم بأن آية البقرة عامة لأنه تقرر فى الأصول أن الجموع المنكرة لا عموم فيها وآية البقرة من ذلك القبيل فلا اشكال .

الوجه الثالث : لو سلمنا بالعموم وسلمنا بالتعارض وعدم التخصيص لم نسلم بأن عدة الحامل المتوفى عنها لا تنقضى بوضع حملها بدليل آخر وهو ما تفيدته الأحاديث الصحيحة الصريحة فإنه لا يمكن التخلص منها بوجه من الوجوه^(٣).

هذا ما يمكن أن يجاب به عن هذا الاستدلال والحق صراح لا غبار عليه وإن اشتبه أحيانا فى بعض المسائل الفرعية لتكافؤ الأدلة إلا أن هذا المعنى لا يوجد هنا ولهذا فإن الراجح عندنا هو القول الأول لما ذكرنا من الكتاب والسنة والأثار المروية عن بعض الصحابة

(١) أنظر الجامع لأحكام القرآن ج ٣ ص ١٧٥ .

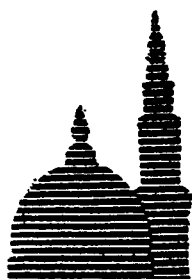
(٢) فتح البارى ج ٩ ص ٤٧٤ .

(٣) نيل الأوطار ج ٦ ص ٣٢٥ .

والمعقول وقصة سبيعة نص في هذا المعنى وهي قصة صحيحة ثابتة في الصحيحين وغيرهما وهي كافية في الاستدلال لو لم يوجد غيرها زد على هذا أن أئمة الفتوى أجمعوا على أن المطلقة الحامل تنقضى عدتها بوضع حملها فأى فرق بين هذه وتلك ؟ . وأيضا مما يرجح مذهب الجمهور أن الآيتين وإن كانتا عامتين من وجه خاصتين من وجه فكان الإحتياط أن لا تنقضى العدة إلا بآخر الأجلين لكن لما كان المعنى المقصود الأصلي من العدة براءة الرحم ولا سيما فيمن تحيض فإنه يحصل المطلوب بالوضع وهو ما دل عليه حديث سبيعة ويقويه قول ابن مسعود في تأخر نزول آية الطلاق عن آية البقرة (١).

وكذلك يترجح مذهب الجمهور بما روى عن أبي بن كعب قال قلت يارسول الله وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن للمطلقة ثلاثا وللمتوفى عنها زوجها فقال هي للمطلقة وللمتوفى عنها زوجها رواه أحمد والدارقطنى .

فهذا الحديث نص في محل النزاع وهو موافق لما تم ثبته قريبا من الأحاديث القاضية بأن عدة الحامل على المتوفى عنها تنقضى بوضع حملها بل هو أدل على محل النزاع لأنه جواب عن سؤال السائل فالمقام مقام بيان وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز .



(١) فتح البارى ج ٩ ص ٤٧٤ .

نظام الإثبات في الفقه الإسلامي

للدكتور عوض عبد الله أبو بكر
أستاذ مساعد بكلية الشريعة

دراسة مقارنة

- ٥ -

الإثبات بالكتابة :

تأتي أهمية الكتابة لكونها وسيلة كبرى من وسائل المعرفة، وأداة هامة لتبليغ المعاني، وتقدم بما تقدم به الألفاظ في بيان المقاصد والأهداف. ولعله لا يخفى على عاقل أهمية الكتابة واعتماد الأمة عليها في دينها ودنياها .

فقد اعتمد خيار هذه الأمة وسلفها من الصحابة الكرام على الكتابة، فوافقوا مجتمعين على تدوين كتاب الله عز وجل الذي هو شرع هذه الأمة ودستورها. كما أن المصدر الثاني من التشريع وهو سنة رسول الله ﷺ قد نقل إلينا مكتوبا حفظته كتب السنن. وصدق الإمام ابن القيم - رحمه الله حين قال : (ولولم يعتمد على ذلك - أى الكتابة - لضاع الإسلام اليوم، وسنة رسول الله ﷺ، فليس بأيدي الناس - بعد كتاب الله - إلا هذه النسخ الموجودة من السنن، وكذلك كتب الفقه الاعتماد فيها على النسخ)^(١).

ومن عناية الشارع الكريم بالكتابة جعلها وسيلة لإثبات الحقوق، حيث أرشد المولى عز وجل إلى كتابة الحقوق في أطول آية في القرآن وهي آية الدين، فقال : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ، وَلِيَكْتَبَ بَيْنَكُمُ الْكَاتِبُ بِالْعَدْلِ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ، فَلْيَكْتُبْ وَلِيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ . . . الآية﴾ (البقرة: ٢٨٢).

فإذا كانت هذه الأمة قد أرشدت إلى كتابة الدين وأمرت بتوثيقه، لكون ذلك أحفظ

(١) الطرق الحكمية ص ٣٠٠ .

للمال، وقاطعا لطريق انكاره، فلننظر إلى أى مدى أخذ الفقهاء بهذا الأمر، فهل حملوه على الوجوب بحيث لا يصح إثبات الدين إلا بالكتابة والأشهاد عليه، أم هذه للندب والإرشاد فيجوز ترك الكتابة عند أئتمان المدين والثوق بصدقه؟

(١) ذهب فريق من الفقهاء إلى أن كتابة الديون الآجلة والأشهاد عليها قد كانا واجبين بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ فَأَكْتَبُوهُ﴾ ولكن قد نسخ الله هذا الوجوب بقوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ... الآية﴾ (البقرة: ٢٨٣). روى هذا القول عن الشعبي والحسن^(١).

(٢) قال آخرون: هذه الآية محكمة ولم ينسخ منها شيء، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «لا والله آية الدين محكمة، وما فيها نسخ». وعن أبي بردة عن أبي موسى قال: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم، رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل أعطى ماله سفيها وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ (النساء: ٥)، ورجل له على رجل دين فلم يشهد عليه». قال الجصاص: قال أبو بكر: وقد روى هذا الحديث مرفوعا إلى النبي ﷺ.

وروى عن الضحاك عن الذي لم يكتب دينه الآجل ولم يشهد عليه: إن ذهب حقه لم يؤجر وأن دعا لم يجب لأنه ترك حق الله وأمره.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾. (البقرة: ٢٨٢). يعنى أشهدوا على حقوقكم إذا كان فيها أجل أو لم يكن أجل، فأشهد على حقك على كل حال^(٢).

فعلى قول هؤلاء فإن الأمر هنا محمول على الوجوب ولا بد للدائن من إثبات دينه كتابة إذا كان الدين مؤجلا، فإن لم يكتبه فقد خالف أمر الله الوارد في الآية، وضيع حقه بتفريطه في التوثيق لماله. ولا وجه لمطالبته عند إنكار مدينه للدين لأنه ما أعد عدته لهذا الإنكار.

(٣) وهذا هو قول الجمهور: إن الأمر بالكتابة في قوله تعالى: ﴿فَأَكْتَبُوهُ﴾ والأمر بالأشهاد في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ وفي ﴿وَإِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ لا يخلو من أن يكون موجبا لكتابة الديون الآجلة والأشهاد عليها حال نزولها، وكان

(١) أحكام القرآن للجصاص ٤٨١/١.

(٢) تفسير القرطبي ٣٨٣/٣، أحكام القرآن للجصاص ٤٨١/١.

هذا حكما مستقرا ثابتا إلى أن نسخ إيجابه بقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ ، أو يكون نزول الجميع معا ، فإن كان كذلك فليس جائزا أن يكون المراد بالكتابة والأشهاد الايجاب لامتناع ورود النسخ والمنسوخ معا في شيء واحد ، إذ غير جائز نسخ الحكم قبل استقراره .

ولما لم يثبت تاريخ نزول هذين الحكمين - الأمر بالكتابة والأشهاد - وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ وجب الحكم بورودهما معا ، فلم يرد الأمر بالكتابة والأشهاد إلا مقرونا بقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ فثبت بذلك أن الأمر بالكتابة ليس للوجوب إنما هو للندب أى تندب الكتابة .

أما قول ابن عباس رضى الله عنهما : (أن الآية محكمة ولم ينسخ منها شيء) ، فلا دلالة فيه على أنه يرى وجوب الكتابة والأشهاد إنما يريد أن الجميع قد ورد معا ونسق التلاوة يقتضى أن يكون ذلك مندوبا وهو ورود قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ .

وكذلك ما روى عن أبي موسى : ثلاثة لا يستجاب لهم من له على رجل دين فلم يشهد عليه ، فلا دلالة فيه أيضا على وجوب الكتابة والأشهاد لأنه قد ذكر معه من له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ، ولا خلاف في أن ذلك ليس بواجب ، بل يقال أنه تارك للأحتياط والتوصل إلى ما جعل الله له فيه المخرج والخلاص .

ويؤيد صحة مذهب الجمهور في ندب الكتابة وعدم الوجوب أنه لم تنقل إلينا كتابة الصحابة والتابعين وسلف الأمة لديونهم أو يبيعهم أو عقودهم مع حاجتهم لها ، لم ينقل نكيرهم أو اعتراضهم على من ترك الكتابة ، فلو كانت الكتابة واجبة لنقل ذلك نقلا مستفيضا ولتواتر إنكارهم على تاركها . فدل عدم النقل وعدم إظهار النكير على آية الكتابة ليست واجبة إنما ورد الأمر في هذه الآية للندب والاحتياط حتى لا يقع جحود أو نسيان^(١) .

حجية الكتابة في الإثبات :

إذا كنا قد تناولنا آراء الفقهاء في كتابة الديون من حيث الوجوب وعدمه ، ورأينا أن البعض يرى الوجوب والبعض الآخر يرى نسخ الوجوب ، والجمهور يرى ندب الكتابة من غير نسخ ، فهل تكفى الكتابة دليلا في الإثبات ، وما قيمة السند المكتوب وما مدى حجيته

(١) أحكام القرآن للجصاص ٤٨٢/١ ، تفسير القرطبي ٣/٣٨٣ .

على ما دون فيه ؟ وهل يحكم القاضى بما هو مسطور في السند متى ما رفع إليه سند يتضمن حقا من الحقوق وليس عليه أن يقبل أى طعن فى صحته وصحة ما حمله السند ؟ .

لاشك أن الكتابة المشار إليها فى الآية الكريمة أصبحت مستندا خطيا لأن المكتوب يحوى إقرارا بما تضمنه السند موقعا عليه من المدين المقر وبشهادة كاتب السند أو الشهود الذى وقعوا على صحة إقرار المدين بالسند وعليه فإن حجية السند هنا تأتى من توقيع المقر والاشهاد فقويت دلالة على الحق ، ولاشك أن الفقهاء عاملوا الإقرار بالكتابة معاملة الإقرار باللسان سواء بسواء .

غير أننا نلاحظ خلافا بين الفقهاء فى قبول الكتابة كدليل إثبات للحقوق ، والذى يبدو لى من أغلب عباراتهم أنهم يقصدون المكتوب الذى لم يشهد عليه كإقراره بدين أو بحق لأخر بخط يده ، أو كتابته لهبة لم يشهد عليها ، وكذلك الأوراق التى لا تصدر من جهة رسمية ، فإن بعض الفقهاء يرون أن مثل هذه المكاتيب لا يثبت القاضى بها ما تضمنته من حقوق لعدم تيقن صدورهما من المنسوبة إليه ولإمكان تزوير الخطوط .

وقد أبرز ابن القيم رحمه الله هذا الخلاف فى كتابه الطرق الحكيمية فى فصل (الطريق الثالث والعشرون - الحكم بالخط المجرد) ومن أقواله فى ذلك :

(أن يرى القاضى حجة فيها حكمه لإنسان ، فيطلب منه امضاء والعمل به فقد اختلف فى ذلك ، فعن أحمد ثلاث روايات ، أحدها : أنه إذا تيقن أنه خطه نفذه وإن لم يذكره ، والثانية : أنه لا ينفذه حتى يذكره ، والثالثة : أنه إذا كان فى حرزه وحفظه نفذه والا فلا .)

(والمشهور من مذهب الشافعى أنه لا يعتمد على الخط لا فى الحكم ولا فى الشهادة ، وفى مذهبه وجه آخر أنه يجوز الاعتماد عليه إذا كان محفوظا عنده كالرواية الثالثة عن أحمد .) .
(وأما مذهب أبى حنيفة ، فقال الخفاف ، قال أبو حنيفة : إذا وجد القاضى فى ديوانه شيئا لا يحفظه - كإقرار الرجل بحق من الحقوق - وهو لا يذكر ذلك ولا يحفظه ، فإنه لا يحكم بذلك ولا ينفذه حتى يذكره .)

(وأما مذهب مالك فقال فى الجواهر : لا يعتمد على الخط إذا لم يذكره لإمكان التزوير عليه .)

(وقال إسحاق بن إبراهيم : قلت لأحمد : الرجل يموت وتوجد له وصية تحت رأسه من غير أن يكون أشهد عليها أو أعلم بها أحدا ، هل يجوز إنفاذ ما فيها ؟ قال : إن كان قد

عرف خطه وكان مشهور الخط فإنه ينفذ ما فيها .) .

(قال القاضي : وثبوت الخط في الوصية يتوقف على معاينة البينة أو الحاكم لفعل الكتابة لأنها عمل ، والشهادة على العمل طريقها الرؤية .) .

(وأجاز مالك الشهادة على الخطوط وذكر ابن شعبان عن ابن وهب أنه قال : لا آخذ بقول مالك في الشهادة على الخط ، وقال الطحاوي خالف مالك جميع الفقهاء في ذلك وعدوا قوله شذوذاً^(١) .

يظهر من هذا النقل أن بعض الفقهاء يتخرجون من الإثبات بالكتابة ويرون أنها لا تصلح دليلاً يعتمد عليه ، وكما قدمت أن الشبهة التي يعتمد عليها هذا الفريق من الفقهاء في رد الدليل الكتابي هي تشابه الخطوط وإمكان محاكاتها وتزويرها ، ولذا يجب على القاضي ألا يبنى حكمه على مجرد الخط . ولعل هؤلاء يدور بخلداهم قصة عثمان رضى الله عنه والفتنة التي أدت إلى مقتله ، فإن المتسببين في قتله - كما يحكى لنا التاريخ الإسلامى - قد صنعوا مثل خاتمه وكتبوا مثل كتابه فكان ما كان .

غير أن أدلة هؤلاء المانعين للإثبات بالكتابة تضعف تماماً أمام الحجج الواضحة التي أوردها المجيزون للإثبات بالكتابة والتي تقوم - زيادة على ما قدمنا من نذب الله عز وجل لكتابة الديون بسبب القرض أو بسبب عقد مالى - على :

أولاً : ان النبي ﷺ كان يبعث بكتبه ورسائله إلى الملوك وغيرهم وتقوم بها حجته ، وفي الجامع للبخاري عن أنس بن مالك رضى الله عنه لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم قالوا : انهم لا يقرأون كتاباً إلا محتوماً ، فاتخذ النبي ﷺ خاتماً من فضة كأنى أنظر إلى وبيصه ونقشه محمد رسول الله^(٢) .

ثانياً : عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « ما حق أمرىء مسلم له شىء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده »^(٣) .

قال ابن القيم : ولولم يجز الاعتماد على الخط لم تكن لكتابة وصيته فائدة^(٤) .

(١) الطرق الحكمية ص ٢٩٩-٣٠٥ .

(٢) صحيح البخاري ٢٣٧/٤ كتاب الأحكام - باب الشهادة على الخط .

(٣) صحيح البخاري ١٢٤/٣ كتاب الوصايا .

(٤) الطرق الحكمية ص ٣٠١ .

ثالثا : كتب النبي ﷺ إلى أهل خيبر، إما أن يدوا صاحبكم وإما أن تؤذنوا بحرب^(١).

رابعا : اجماع أهل الحديث على اعتماد الراوى على الخط المحفوظ عنده وجواز التحديث به، ولم يخالف في ذلك إلا بعض الشذوذ^(٢).

خامسا : اعتماد فقهاء هذه الأمة وأئمتها على الكتابة في حفظ السنة والفقهاء، وقد تقدم قول ابن القيم في ذلك .

وفي نظري أن هذا القول هو الصواب وهو الأرفق بالناس في معاملاتهم واقضيتهم ولأن الكتابة تدل على المقصود كدلالة الألفاظ، ولأن هذا القول هو الذى اختاره حذاق الأئمة كما هو ظاهر من النقول .

كيفية الإثبات بالكتابة :

إن كنا قد انتهينا إلى جواز الإثبات بالكتابة بناء على القول الغالب عند الفقهاء وتسهيلا على الناس، فإن هذا الجواز لم يجعل من الكتابة دليلا يمنع أو يحد من قوة غيرها من الأدلة كما ذهب بعض القانونيين . فرجال القانون الوضعى قد انتهوا إلى وجوب الإثبات بالكتابة في بعض الحقوق، ولا يجوز الإثبات إلا عن طريقها، ومنعوا الإثبات بشهادة الشهود في هذه الحقوق، مقيدين بذلك طريق الإثبات بالشهادة، وجعلوا حجية الكتابة أقوى من حجية الشهادة . ورجال القانون إن كانوا قد عذروا أنفسهم في هذا المسلك بدعوى انتشار شهادة الزور مما أدى إلى الفوضى في ساحات العدالة، فإن الفقه الإسلامى لم يكن بحاجة لمثل هذا التصرف وهذا التقييد مادام منهجه تربية الفرد، وغرس روح الأمانة والمراقبة لله عز وجل بحيث تدرج هذه المراقبة على أفعاله كلها فيكون بذلك بعيدا عن تهمة التزوير . ثم إن هذا المحذور الذى أدى تقييد الشهادة عند القانونيين لا يؤمن دخوله في الكتابة والمستندات الخطية، وما كان إنكار المانعين للإثبات بالكتابة إلا لتخوفهم من الغش والتزوير .

بقى لنا الآن أن نرى كيف يكون اعتداد الفقهاء بالمستندات المكتوبة في الإثبات . فإذا نظرنا إلى كتابات الفقهاء - المتقدمين منهم والمعاصرين - في الأدلة الكتابية نجدهم يقسمونها إلى قسمين رئيسيين :

(١) صحيح البخاري ٢٣٧/٤ (كتاب الأحكام - باب الشهادة على الخط) .

(٢) الطرق الحكمية ص ٣٠١، وأنظر المستصطفى للغزالي ١٦٦/١ .

القسم الأول : المستندات الصادرة من دائرة رسمية :

وهي تلك التي يثبت بها موظف عام أو شخص مكلف بخدمة عامة ما تم على يديه أو ما تلقاه من ذوى الشأن وذلك طبقاً للقواعد المرعية وفي حدود سلطته أو ولايته أو اختصاصه . ولذلك فإن أهم ما يشترط للسند الرسمى مايلي :

(١) أن يكون تحريره بمعرفة موظف عمومي أو جهة رسمية .

(٢) أن يكون ذلك الموظف أو تلك الجهة الرسمية مختصة بتحرير مثل هذا السند وفي حدود سلطتها أو ولايتها .

(٣) أن يكون تحرير هذا السند قد تم بحسب القواعد الموضوعة له^(١) .

ومثال المستندات الرسمية : صور الأحكام التي تستخرجها المحكمة ممهورة بامضاء القاضى وختم المحكمة، وثائق الزواج والطلاق، شهادات الميلاد، صكوك الأراضى وعقودها المستخرجة من سجلات مصلحة الأراضى، مخالصات مصلحة الضرائب وصندوق الزكاة وغير ذلك من المستندات التي تستخرج من الجهات المختصة معتمدة بختمها وامضاءها .

والورقة الرسمية حجة على ما تضمنته من حقوق وبيانات مادامت قد استوفت الشروط المتقدمة، ولذلك لا يقبل إنكار ما جاء فيها إذ أن الجهة الرسمية لا تستخرج هذا السند إلا إذا توثقت من صحة بياناته بالتحرى الدقيق أو بشهادة الشهود أو بالرجوع إلى سجلاتها .

ونستدل لهذا القول من كتب السابقين ما ورد عنهم في كلامهم عن كتاب القاضى إلى القاضى أو الحاكم إلى عماله فإنه يكون حجة وكذلك يكون حجة ما يصدره القضاة من أوراق للخصوم تتضمن الحكم الذى أصدره في قضاياهم وغير ذلك . ومن هذه الأقوال : يقول البخاري في صحيحه «باب الشهادة على الخط المختوم وما يجوز من ذلك وما يضيق منه وكتاب الحاكم إلى عامله والقاضى إلى القاضى . وقال بعض الناس : كتاب الحاكم جائز إلا في الحدود، قال : وإن كان القتل، فالخطأ والعمد واحد، لأنه مال بزعمه وإنما صار مالا بعد أن ثبت القتل، فالخطأ والعمد واحد . وقد كتب عمر إلى عامله في الحدود، وكتب عمر بن عبد العزيز في سن كسرت .

(١) أصول المرافعات الشرعية : أنور العمروسى فقرة ٣١٨، علم القضاء : أحمد الحصرى ٤٨/١ .

وقال إبراهيم كتاب القاضى إلى القاضى جائز إذا عرف الكتاب والخاتم . وكان الشعبى يجيز الكتاب المختوم بما فيه من القاضى ، ويروى عن ابن عمر نحوه . وقال معاوية بن عبد الكريم الثقفى شهدت عبد الملك بن يعلى قاضى البصرة وإياس بن معاوية والحسن وثامة بن عبد الله بن أنس وبلال بن أبى بردة وعبد الله بن بريدة الأسلمى وعامر بن عبيدة وعباد بن منصور يجيزون كتب القضاة بغير محضر الشهود ، فإن قال الذى جىء عليه بالكتاب أنه زور قيل له أذهب فالتمس المخرج من ذلك . (١)

ويقول ابن القيم : (وقال أبو يوسف / محمد : ما وجد القاضى فى ديوانه من شهادة شهود شهدوا عنده لرجل على رجل بحق ، أو إقرار رجل لرجل بحق ، والقاضى لا يحفظ ذلك ولا يذكره فإنه ينفذ ذلك ويقضى به إذا كانت تحت خاتمه محفوظا ، ليس كل ما فى ديوان القاضى يحفظه) (٢) .

هذا ، وقد عقد صاحب جامع الفضولين فصلا فى حجية المحاضر الرسمية للقضاة والصور المستخرجة منها إذا كانت موقعة بختم القاضى وامضائه ، وبين أن محاضر القضاة وما دون فيها من أقوال الخصوم وسماع الشهود ومنطوق الحكم تكون حجة ، وكذلك الصورة التى يستخرجها القاضى من سجلات المحكمة تتضمن حكم قاض آخر فى دعوى من الدعاوى (٣) .

يظهر من كلام الفقهاء أن إنكار الورقة الرسمية لا يقبل ، غير أنه إذا طعن فى الورقة الرسمية بالتزوير ، وقال إنهم قد زوروا توقيعه أو توقيع القاضى أو ختم جهة الاختصاص ، فللقاضى أن يحيل الأوراق إلى جهة الاختصاص أو أهل الخبرة للمضاهاة والافادة بصحة الورقة أو التزوير . وهل يحكم القاضى بقول أهل الخبرة أن المستند صحيح ؟ قيل لا يحكم لكون شهادتهم ليست شهادة على الحق ، وقيل يحكم بذلك (٤) . وعندى أن السير فى الدعوى يتوقف على مدى اقتناع القاضى بصحة السند استثناسا بقول أهل الخبرة ، ومدى قوة السند وأثره على الدعوى .

القسم الثانى : المستندات العرفية :

والمستندات العرفية هى الأوراق والمستندات التى لم تصدر من دائرة رسمية أو موظف

(١) صحيح البخارى ٤/٢٣٧ . (كتاب الأحكام) .

(٢) الطرق الحكيمية ص ٢٩٩ .

(٣) جامع الفضولين ١/٣٢٥ وما بعدها .

(٤) علم القضاء : أحمد الحصرى ١/٤٨ وما بعدها .

مختص ، وهى ككتابة المقر بخط يده أن لفلان عليه كذا ، أو كتابة الوصية بخط الموصى من غير أن يشهد على وصيته ، وكذلك هبته لأخر من غير أن يقوم بتسجيل الهبة ، ومن ذلك أيضا أن يجد الوارث فى دفتر مورثه أن له عند فلان كذا ، ومنه أيضا دفاتر التجار التى تبين تعاملهم ودائنيهم ومدينيهم .

والورقة العرفية حجة فيما تضمنته ، ويجوز للقاضى أن يحكم بمقتضاها ، فهى كالإقرار بالكتابة ، والإقرار بالكتابة كالإقرار باللسان عند الفقهاء . فمتى ما أقر الشخص بتوقيعه أو بخطه ، أو أقر الوارث بأن هذا خط مورثه أو توقيعه أو كان ذلك الخط أو التوقيع معروفا ومشهورا فعلى القاضى أن يعمل بمقتضى هذا السند .

يقول ابن القيم : (والحديث المتقدم - أى حديث الوصية - كالنص فى جواز الاعتماد على خط الموصى ، وكتبه ﷺ إلى عماله وإلى الملوك وغيرهم تدل على ذلك ولأن الكتابة تدل على المقصود فهى كاللفظ ولهذا يقع بها الطلاق .

قال القاضى : وثبوت الخط فى الوصية يتوقف على معاينة البينة أو الحاكم لفعل الكتابة ، لأنها عمل ، والشهادة على العمل طريقها الرؤية .

وقول الإمام أحمد وإن كان قد عرف خطه وكان مشهور الخط ، ينفذ ما فيها ، يرد على ما قاله القاضى ، فإن أحمد علق الحكم بالمعرفة والشهرة من غير اعتبار لمعاينة الفعل ، وهذا هو الصحيح ، فإن القصد حصول العلم بنسبة الخط إلى كاتبه ، فإذا عرف ذلك وتيقن كان كالعلم بنسبة اللفظ إليه ، فإن الخط دال على اللفظ واللفظ دال على القصد والإرادة . (١)

ويقول فى موضع آخر «وقد صرح أصحاب أحمد والشافعى بأن الوارث إذا وجد فى دفتر مورثه أن لى عند فلان كذا ، جاز له أن يحلف على استحقاقه وأظنه منصوبا عليها ، وكذلك لو وجد فى دفتره : إني أديت إلى فلان ماله عليّ جاز له أن يحلف على ذلك إذا وثق بخط مورثه وأمانته .» (٢)

غير أننا نلاحظ اختلاف معاملة الفقهاء للورقة العرفية عن معاملة المستند الرسمى ، إذ أنهم لم يقبلوا إنكار من كان السند الرسمى حجة عليه أما الورقة العرفية فقد جعلوا كتابته

(١) الطرق الحكمية ص ٣٠٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٣ .

وتوقيعه كالإقرار، ولذا فإنه إذا أنكر إقراره أو قال إنه لم يوقع وليس هذا توقيعه فوجب على المدعى اثبات الإقرار بطريق آخر غير الورقة العرفية .

نخلص من هذا أنه يجوز الإثبات بالكتابة عموماً، فإن كان المستند صادراً من جهة رسمية فهو حجة، وعلى مدعى خلاف ما في السند إثبات بطلان هذا السند بالتزوير. أما إن كان السند عرفياً، فهو دليل على الحق غير أنه يجوز لمن كان السند حجة عليه أن ينكر دلالة هذا السند العرفي على الحق لكون الفقهاء عاملوا الورقة العرفية معاملة الإقرار، والإقرار يجوز الرجوع فيه، ولذا يمكن الطعن في هذه الورقة العرفية بإنكارها أو تزويرها .

شهادة الخبراء :

ومن الوسائل التي تعين على أظهار الحق وكشف وجه الدعوى قول الخبراء . والخبراء هم الذين لهم المعرفة والخبرة بالمسائل الفنية إذا كان موضوع النزاع فيه مسألة فنية أو علمية تغيب على القاضى، ومن ذلك قول الطبيب الشرعى فى سبب الوفاة، وغير ذلك مما يختص بمعرفة الطبيب . وكذلك قول المهندسين والفاحصين والمختصين بمعرفة الخطوط والبصمات، كل فيما يتعلق ويتصل بمجال تخصصه، وكذلك قول البيطار فى عيوب الحيوان ودائه .

ويمكن القول بأن الشريعة الإسلامية قد اعتدت بقول أهل الخبرة، فقد قبل النبي ﷺ قول القائف وسر عليه الصلاة والسلام حينما أثبت نسب أسامة - رضى الله عنه - من زيد - رضى الله عنه - بمقارنة الشبه فى أقدمهما . (١) .

وقد أشارت الآية الكريمة فى قوله تعالى : ﴿بلى قادرين على أن نسوى بنانه﴾ . (القيامة : ٤) . إلى اختلاف بصمات الأصابع من شخص لآخر . فلا حرج إذن إذا استدلت القاضى على المتهم بقول الخبراء الذين قارنوا بصمات المتهم مع البصمات التى وجدت فى مكان الجريمة واتضح المطابقة . ولما كان قول الخبير ليس شهادة مباشرة فى موضوع النزاع إنما هو تقرير فنى يتعلق فقط بالمسألة الفنية القائمة فى الدعوى جاز للقاضى أن يحكم بمقتضاه إذا وافق الأدلة الأخرى القائمة فى الدعوى، كما يجوز له تركه أو ترك بعضه إذا رأى عدم سلامته أو عدم سلامة بعضه لكونه يخالف أدلة أخرى مقنعة وواضحة فى الدعوى، ذلك لأن القاضى لا يحكم إلا بما تطمئن إليه نفسه حسب الأدلة المقدمة فى الدعوى . وليس هذا إنكاراً للفائدة العلمية لتقرير الخبير ولكن قد توجد أدلة أخرى أكثر دلالة ووضوحاً فى

(١) صحيح البخاري ٣/١٣٩ . (كتاب الفرائض - باب القائف) .

محل النزاع، فوجود بصمة الشخص في محل الجريمة مثلا لا تعنى دائما أن صاحب البصمة هو الجانى لاحتمال أن يكون القاتل غيره كما إذا وجدته مقتولا فأراد أن يتبين فصار لامسا للقتيل أو كان حاملا له بقصد اسعافه، أو كان مدافعا عن نفسه وغير هذا من الاحتمالات . ثم إنه لما كان قول الخبير شهادة يستعين به القاضى فى الدعوى القائمة كما اسلفت، وجب أن يراعى فى هذا المقال الشبه التى ترد الشهادة فيجب ألا يكون الخبير الذى قدم تقريره فى الدعوى قريبا لأحد الخصوم أو قريبا لزوجته أو صهرا لأحد الخصوم أو وكيلا له أو لزوجته فى أعماله أو وصيا أو قريبا أو مظنونا وراثته بعد موته، كما يجب ألا تكون بينه وبين أحد الخصوم عداوة أو خصومة ما لم تكن هذه الخصومة قد اقيمت بعد الدعوى يقصد منعه من الأدلاء بقوله أو تقريره^(١).

وبانتهاى الكلام عن شهادة أهل الخبرة نكون قد فرغنا من عرض أهم وسائل الإثبات فى الفقه الإسلامى، وقد رأينا أن هناك قسما قد اتفق الفقهاء على حجتيه وهو الإقرار والشهادة، وقسما اختلفوا فيه وعرضنا فيه اليمين النكول عنه، وعلم القاضى، والقرائن والفراسة، والكتابة وشهادة الخبراء، وقبل أن أختتم هذا البحث أرى أن أقرر بعض الحقائق المهمة :

الأولى : إن هذه الأدلة التى سقناها تدل على الحق غالبا، ولا يخلو دليل منها - متفق عليه أو مختلف فيه - من احتمال، ولكن هذا الاحتمال لا يمنع غالب دلالتها على الحق، ولذا جعلها الشارع وسائل للإثبات لأن الحكم للكثير الغالب لا للقليل النادر .

الثانية : إنه لا يجوز التوصل إلى هذه الوسائل بطريق غير مشروع، ولا بد للقاضى من التأكد من سلامة اجراءات حصوله على أى من هذه الأدلة ويظهر تقرير الفقه الإسلامى لقواعد سلامة اجراءات الوصول إلى الأدلة فى أمرين :

(أ) عدم جواز تعذيب المتهمين للحصول على إقرارهم :

يرى ابن حزم أن الامتحان فى الحدود وغيرها من الجرائم بالضرب وبالسجن أو التهديد لا يحل شرعا لأنه لم يرد بذلك قرآن ولا سنة ولا اجماع، بل قد منع الله تعالى من ذلك على لسان رسول الله ﷺ بقوله : «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم

(١) أصول المرافعات الشرعية : أنور العمروسى فقرة ٣٦٥ .

حرام»^(١). ولا يجوز ضرب المسلم إلا إذا ثبت عليه حق فمنعه فيكون ظالماً في هذه الحالة فوجب ضربه لأخراج الحق منه .

ويرى ابن حزم تأسيساً على ذلك أنه لو ضرب المتهم حتى أقر فإن إقراره لا يعمل به ، لأنه قد أخذ بصفة لم يوجبها قرآن ولا سنة ولا إجماع^(٢) .

بيد أننا نجد الجمهور من الفقهاء قد قسموا الناس في الدعوى على طوائف ثلاث . طائفة لا يجوز حبسهم ولا ضربهم ولا يضيق عليهم بشيء بل ذهب بعض الفقهاء إلى تعزير من اتهمهم لأن التهمة لا تليق بأمثالهم لكونهم من أهل الورع والتقوى ومعروفين بالدين والصلاح ، وطائفة مجهول حالها لم تعرف بصلاح أو فسق ، فهذه قالوا لا يضرب المتهم منها ولكن يجبس حتى ينكشف أمره ، وطائفة المشتهرين بالفساد والفجور ونقب الدور والسرقات ، فهذا لا مانع من ضربه لمناسبة التهمة له ولكونه لو ترك لضاعت الحقوق وعمت الفوضى^(٣) .

(ب) ألا يكون في الحصول على الدليل اعتداء على الحرية الشخصية :

وفي نظري أن الحصول على الدليل إذا كان باعتداء على الحرية الشخصية للفرد فإن ذلك سبب كاف في منع الاحتجاج به ، إذ أن الشريعة الإسلامية تمنع التجسس على الناس في حياتها الخاصة ، فيقول تعالى : ﴿ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ . (الحجرات : ١٢) . كما توجب الستر وعدم مضايقة الناس في بيوتهم ، ولذا فإن الدليل المأخوذ بأحد هذه الطرق يجب عدم الالتفات إليه .

ونستدل لذلك بما رواه البيهقي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فذكر البيهقي أن عبد الرحمن بن عوف حرس مع عمر ليلة بالمدينة ، فبينما هم يمشون شب لهب سراج في بيت ، فانطلقوا يؤمونه حتى إذا دنوا منه إذ باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط فقام عمر رضى الله عنه وأخذ بيد عبد الرحمن فقال : أتدرى بيت من هذا ؟ قلت : لا . قال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى ؟ قال عبد

(١) صحيح البخاري (كتاب الحدود) ١٠٥/٤ .

(٢) المحلى ١٣٥/١١ .

(٣) الفتاوى الكبرى ابن تيمية ١٩٠/٤ وما بعدها ، معين الحكام للطرابلسي ص ٢١٧ ، الطرق الحكمية ص ١١٧ ، والحبس

في التهمة والامتحان على طلب الإقرار مؤلفه سعد الدين بن الديرى الحنفى ص ١٦ .

الرحمن أرى قد أتينا ما نهى الله عنه ﴿ولا تجسسوا﴾ فقد تجسسنا فانصرف عنهم عمر رضى الله عنه وتركهم (١).

وفي رواية أن عمر رضى الله عنه كان يمر ليلة في المدينة فسمع صوتا في بيت فارتاب في أن صاحب الدار يرتكب محرما، فتسلق المنزل وتسور الحائط ورأى رجلا وامرأة ومعهما زق خمر فقال : يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت على معصية، وأراد أن يقيم عليه الحد فقال الرجل : لا تعجل يا أمير المؤمنين إن كنت قد عصيت الله في واحدة فقد عصيته أنت في ثلاث فقال تعالى : ﴿ولا تجسسوا﴾ وأنت تجسست. وقال : ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ (البقرة: ١٨٩). وأنت تسورت وصعدت الجدار ونزلت. وقال تعالى : ﴿لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾. (النور: ٢٧). وأنت لم تسلم. فخجل عمر وبكى وقال للرجل : هل عندك من خير إن عفوت عنك قال نعم. فقال : أذهب فقد عفوت عنك (٢).

معنى ذلك أن صاحب الدار دفع بعدم مشروعية الدليل. فقد ضبط بالفعل متلبسا بجريمة شرب الخمر ولكن هذا الضبط كان وليد اجراءات غير مشروعة، وهو التجسس وتسور الحائط وعدم السلام، وقد أخذ عمر وافتتن بصحة الدفع وترك الرجل، وليست المسألة أن عمر أراد أن يجرى مقاصة بين ما ارتكبه صاحب الدار وما ارتكبه هو وعفا عنه لذلك، لأنه لا يملك العفو عن الحد، بل إنه اسقط الدليل المستمد من الواقعة بعد تبينه أنه وليد اجراءات غير مشروعة.

الثالثة : (الأصل في الذمة البراءة) (٣) معنى ذلك أنه ما لم يثبت بطريق من طرق الإثبات أن الشخص معتد أو غاصب فالأصل براءته، فهذه قاعدة وأصل مقرر في الفقه الإسلامي .

والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد حتى يرضى . . .

(١) السنن الكبرى ٣٣٣/٨، ورواه الحاكم في المستدرک ٣٧٧/٤. قال الذهبي في تلخيص المستدرک صحيح .

(٢) تاريخ الطبري ٢٠/٥ المطبعة الحسينية. مصر .

(٣) الأشباه والنظائر لابن نجيم وشرح الحمدي على الأشباه ٨٩/١. والمادة «٨» من مجلة الأحكام العدلية، والمدخل الفقهي

العام للأستاذ مصطفى الزرقاء ٦٤٨/١.

أهم مراجع البحث

أولاً : كتب تفسير القرآن الكريم :

(١) أحكام القرآن : أبوبكر أحمد بن علي الرازي الجصاص (٣٧٠هـ) ط . الأوقاف القسطنطينية ١٣٣٨هـ .

(٢) الكشف : محمود بن عمر الزمخشري (٥٢٨) ط . مصطفى محمد بمصر ١٣٥٤هـ .

(٣) أحكام القرآن : أبوبكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (٥٤٢) ط . دار احياء الكتب العربية ١٣٥٧هـ .

(٤) التفسير الكبير : محمد فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) ط . الأميرية بولاق ١٢٨٩هـ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) ط . دار الكتب المصرية ١٣٥١هـ .

(٦) لباب التأويل في معاني التنزيل : علاء الدين علي بن محمد الخازن (٧٢٥هـ) ط . الأزهرية ١٣١٣هـ .

(٧) روح المعاني : شهاب الدين الألوسي (١٢٧٠هـ) إدارة الطبعة المنيرية بيروت .

ثانياً : كتب الحديث النبوي وشروحه :

(٨) الموطأ - مطبوع مع شرح الزرقاني : مالك بن أنس الأصبحي (١٧٩هـ) ط . الخيرية .

(٩) سنن الدارمي : محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (٢٥٥هـ) ط . الفنية . مصر ١٣٨٦هـ .

(١٠) صحيح البخاري : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) ط . العامرة . مصر ١٢٨٦هـ .

(١١) صحيح مسلم : مطبوع مع شرح النووي : مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٦١هـ) ط . المصرية ومكتبتها ١٣٤٩هـ .

- (١٢) سنن الترمذى : محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (٢٧٥هـ) ط . الصاوى . مصر ١٣٥٣هـ .
- (١٣) سنن أبى داود : أبوداود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ) ط . هندية حديثة .
- (١٤) نواذر الأصول : محمد بن على بن الحسين الحكيم الترمذى (٢٨٥هـ) ط . العثمانية .
- (١٥) سنن الدارقطنى : على بن عمر الدارقطنى (٣٨٥هـ) ط . دار المحاسن . مصر (١٣٨٦هـ) .
- (١٦) السنن الكبرى : أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقى (٤٨٥هـ) ط . دائرة المعارف العثمانية ١٣٤٤هـ .
- (١٧) النهاية فى غريب الحديث والأثر : المبارك بن محمد بن الأثير (٦٠٦هـ) ط . العثمانية ١٣١١هـ .
- (١٨) شرح النووي على صحيح مسلم : يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ) ط . المصرية ومكتبتها .
- (١٩) فتح الباري شرح صحيح البخارى : أحمد بن حجر العسقلانى (٨٥٢هـ) ط . البهية . مصر ١٣٤٨هـ .
- (٢٠) نيل الأوطار : محمد بن على الشوكانى (١٢٥٥هـ) ط . العثمانية .
- (٢١) حاشية عون المعبود : أبو الطيب شمس الحق العظيم ابادى (١٣٢٠هـ) ط . هندية حديثة .
- (٢٢) التعليق المغنى على سنن الدارقطنى : أبو الطيب شمس الحق العظيم ابادى (١٣٢٠هـ) دار المحاسن .
- ثالثا : كتب الفقه الإسلامى :
- (أ) الفقه الحنفى :
- (٢٣) المبسوط : محمد بن أحمد بن سهل السرخسى (٤٣٨هـ) ط . السعادة . مصر ١٣٢٤هـ .
- (٢٤) بدائع الصنائع : علاء الدين بن مسعود الكاسانى (٥٨٧هـ) ط . المطبوعات العلمية . مصر ١٣٢٧هـ .

- (٢٥) الاختيار لتعليق المختار : أبو الفضل عبد الله بن محمود الموصلى (٦٨٣هـ) ط . السعادة . مصر ١٣٧٦هـ .
- (٢٦) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق : فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي (٧٤٢هـ) ط . الأميرية ١٣٧٦هـ .
- (٢٧) الفوائد الطرسوسية : نجم الدين ابراهيم بن علي الطرسوسى (٧٥٨هـ) ط . الشرق . مصر ١٣٤٤هـ .
- (٢٨) جامع الفضولين : أبوبكر علي المعروف بالحدادي (٨٠٠هـ) ط . الخيرية . مصر ١٣٢٢هـ .
- (٢٩) معين الحكام : علاء الدين الطرابلسى (٨٤٤هـ) ط . الأميرية بولاق . ١٣٠٠هـ .
- (٣٠) فتح القدير : كمال الدين بن الهمام (٨٦١هـ) ط . الأميرية ١٣١٥هـ .
- (٣١) البحر الرائق : ابراهيم بن نجيم المصرى (٩٧٠هـ) ط . دار المعرفة . بيروت .
- (٣٢) الأشباه والنظائر : ابراهيم بن نجيم المصرى (٩٧٠هـ) ط . العامرة . مصر . ١٢٩٠هـ .
- (٣٣) حاشية ابن عابدين : محمد أمين الشهير بابن عابدين (١٢٥٢هـ) ط . العثمانية ١٣٢٥هـ .
- (٣٤) رسائل ابن عابدين : محمد أمين ابن عابدين (١٢٥٢هـ) ط . العثمانية .
- (٣٥) مجلة الأحكام العدلية : لجنة من العلماء (١٢٩٨هـ) ط . العثمانية .
- (ب) الفقه المالكي :
- (٣٦) بداية المجتهد ونهاية المقتصد : أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (٥٩٥هـ) ط . البابى الحلبي ١٣٧٩هـ .
- (٣٧) الفروق : أحمد بن أدريس القرافى (٦٨٤هـ) دار احياء الكتب العربية . ١٣٤٦هـ .
- (٣٨) قوانين الأحكام الشرعية : أبو القاسم محمد بن جزي (٧٤١هـ) دار العلم للملايين . بيروت .
- (٣٩) مختصر خليل : خليل بن إسحاق بن موسى (٧٧٩هـ) مع الشرح الكبير للدردير .

- (٤٠) تبصرة الحكام : ابراهيم بن فرحون (٧٩٩هـ) ط . البهية . مصر ١٣٠٢هـ .
 (٤١) مواهب الجليل : محمد بن عبد الرحمن الخطاب (٩٥٤هـ) ط . السعادة مصر
 ١٣٢٩هـ .
 (٤٢) شرح مختصر خليل : أبو عبد الله الخرشبي (١١٠١هـ) ط . الأميرية
 ١٣١٧هـ .
 (٤٣) الشرح الكبير - هامش حاشية الدسوقي - أحمد بن محمد الدردير (١٢٠١هـ) .
 (٤٤) حاشية الدسوقي : محمد بن عرفة الدسوقي (١٢٣٠هـ) ط . السعادة . مصر
 ١٣٢٩هـ .

(ج) الفقه الشافعي :

- (٤٥) الأم : أبو عبد الله محمد بن أدريس الشافعي (٢٠٤هـ) ط . الفنية .
 (٤٦) مختصر المزني - هامش الأم : إسماعيل بن يحيى المزني (٢٦٤هـ) .
 (٤٧) المهدي : إبراهيم بن علي الشيرازي (٤٧٦هـ) ط . البابي الحلبي
 ١٣٤٣هـ .
 (٤٨) مغني المحتاج : محمد الشربيني الخطيب (٩٧٧هـ) ط . البابي الحلبي
 ١٣٧٧هـ .
 (٤٩) نهاية المحتاج : محمد بن أبي العباس الرملي (١٠٠٤هـ) .

(د) الفقه الحنبلي :

- (٥٠) المغني : عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ) ط . دار المنار
 ١٣٦٧هـ .
 (٥١) السياسة الشرعية تقى الدين أبو العباس بن تيمية (٧٢٨هـ) دار الكتاب
 العربي .

- (٥٢) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ) ط . كردستان .
 (٥٣) اعلام الموقعين محمد بن قيم الجوزية (٧٥١هـ) ط . الجليل . بيروت .
 (٥٤) الطرق الحكمية : محمد بن قيم الجوزية (٧٥١هـ) ط . مصر .
 (٥٥) كشف القناع : منصور بن يونس البهوثي (١٠٥١هـ) ط . أنصار السنة .

الفقه الظاهري :

- (٥٦) المحلى : أبو محمد علي بن أحمد بن حزم (٤٥٦هـ) ط . الامام . مصر .

رابعا : كتب أصول الفقه الإسلامي :

(٥٧) المستصفي من علم الأصول : أبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ) ط . الأميرية
١٣٢٢هـ .

(٥٨) كشف الأسرار : عبد العزيز البخاري (٧٣٠هـ) ط . العثمانية .

(٥٩) الموافقات : إبراهيم بن موسى الشاطبي (٧٩٠هـ) ط . السلفية ١٣٤١هـ .

(٦٠) علم أصول الفقه : عبد الوهاب خلاف . ط . النصر .

خامسا : اللغة والتراجم :

(٦١) لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور (٧١١هـ) ط . الأميرية ١٣٠٠هـ .

(٦٢) التعريفات : علي بن محمد السيد الجرجاني (٨١٦هـ) ط . البابي الحلبي

١٣٥٧هـ .

(٦٣) تاج العروس شرح القاموس : محمد بن محمد مرتضى الزبيدي (١٢٠٥هـ)

ط . الخيرية ١٣٠٦هـ .

(٦٤) الاعلام : خير الدين الزركلي ط . بيروت .

سادسا : مؤلفات حديثة :

(٦٥) طرق القضاء في الشريعة الإسلامية : أحمد إبراهيم ط . السلفية مصر

١٣٤٧هـ .

(٦٦) التعليق على نصوص قانون الإثبات : أحمد أبو الوفا ط . منشأة المعارف .

(٦٧) علم القضاء : أحمد الحصري .

(٦٨) أصول المرافعات الشرعية : أنور العمروسي .

(٦٩) دروس في قانون الإثبات : عبد الودود يحيى ط . دار النهضة العربية .

(٧٠) مباحث في المرافعات الشرعية : محمد زيد الابياني ط . عبد الله الكتيبي .

مصر .

(٧١) من طرق الإثبات في الشريعة والقانون : محمد البهي . ط . دار الفكر

العربي .

تَحْقِيقُ جُزْءِ الصُّعْفَاءِ وَالْمُتْرُوكِينَ

«لِلرِّيَاضِ الدَّارِقُطْنِيَّةِ»

د. عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُحَمَّدٍ الْفَيْسُورِيِّ

٣

أستاذ مساعد بكلية التربية الشريفة بالجامعة

حرف الغين

- (٤٢٥) غياث بن ابراهيم كوفي عن العالم^(١).
(٤٢٦) غياث بن كلوب له نسخة عن مطرف بن سمره بن جندب لا يعرف إلا به ويروى عن شريك .
(٤٢٧) غالب بن عبيد الله الجزري عن عطاء والزهرى وأبى إسحاق .
(٤٢٨) غانم بن الأحوص حجازى عن أبى صالح السمان .
(٤٢٩) غطيف^(٢) بن أعين كوفي عن مصعب بن سعد .
(٤٣٠) غطيف الجزري ويقال الطائفى روى عنه أسد بن عمرو البجلي ويروى عنه القاسم بن مالك فيقول روح بن غطيف . هو . هو .

حرف الفاء

- (٤٣١) فايد بن عبد الرحمن أبو الوراق كوفي عن ابن أبى أوفى ومحمد بن المنكدر^(٣).
(٤٣٢) فرات بن السائب جزرى عن ميمون بن مهران وأبى إسحاق^(٤).
(٤٣٣) فرقد بن يعقوب السبخى أبو يعقوب بصرى عن مرة الطيب والنخعي^(٥).

(١) قال الذهبى : تركوه ديوان ٢٤٥ .

(٢) قال الحافظ : ويقال بالضاد المعجمة . تقريب التهذيب ٢٧٤ .

(٣) قال ابن حجر : متروك اتموه من صغار الخامسة - ت ق - تقريب التهذيب ٢٧٤ .

(٤) قال البخارى : تركوه منكر الحديث . التاريخ الكبير ١٣٠/١/٤ .

(٥) قال الذهبى : وثقه ابن معين وقال أحمد ليس بقوى وقال الدارقطنى ضعيف ، ديوان ٢٤٧ .

- (٤٣٤) فهد بن حيان بصرى عن شعبه وأبى عوانه^(١) .
 (٤٣٥) فهد بن عوف أبوريبيعه ويقال زيد . بصرى . عن حماد بن زيد^(٢) .
 (٤٣٦) فطر بن محمد العطار الأحذب . حدثوا عنه . كذاب .

حرف القاف

- (٤٣٧) قاسم بن عبد الله بن عمر العمرى عن أبيه وعمه وعبد الله بن دينار .
 (٤٣٨) قاسم بن ابراهيم الملقب عن مالك يكذب^(٣) .
 (٤٣٩) قاسم بن أبى شيبه عن البصريين والكوفيين^(٤) .
 (٤٤٠) قاسم بن محمد بن حماد الدلال كوفى .
 (٤٤١) قزعة بن سويد البصرى يغلب عليه الوهم .

حرف الكاف

- (٤٤٢) كثير بن سليم بصرى عن أنس .
 (٤٤٣) كثير بن عبد الله الأبلق أبوهاشم عن أنس^(٥) .
 (٤٤٤) كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده .
 (٤٤٥) كثير بن مروان المقدسى عن إبراهيم بن أبى عبلة .
 (٤٤٦) كوثر بن حكيم الحلبي عن نافع .

حرف اللام

- (٤٤٧) لوط بن يحيى الكوفى أبو مخنف إخبارى . ضعيف .

(١) قال الذهبى : ضعفه . ديوان ٢٥٠ .
 (٢) قال ابن المدينى كذاب . ديوان ٢٥٠ .
 (٣) فى أصل المخطوط قاسم بن ابراهيم الملقب والتصويب من ميزان الاعتدال ٣/٣٦٧ .
 (٤) قال الذهبى : القاسم بن محمد بن أبى شيبه أخو أبى بكر . ديوان ٢٥٢ .
 (٥) قال الذهبى : ذهب ابن حبان إلى أن هذا وكثير بن سليم واحد . وليس هذا بشيء . ميزان الاعتدال ٣/٤٠٦ .

حرف الميم

- (٤٤٨) محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير مكي^(١) .
- (٤٤٩) محمد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه . وزيد بن اسلم . وعطاء ، والحكم ، وعبيد الله هذا . ليس بصاحب علي . ذاك عبيد الله بن علي بن أبي رافع .
- (٤٥٠) محمد بن عبيد الله بن أبي سليمان العزمي . وهو ابن أخي عبد الملك بن أبي سليمان .
- (٤٥١) محمد بن عبد الرحمن . أبو جابر البياضي عن ابن المسيب .
- (٤٥٢) محمد بن عبد الرحمن بن البيهقي . يمانى . عن أبيه وأبوه يعتبر به .
- (٤٥٣) محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي القرشي الجدعاني عن جعفر بن محمد ، وعبيد الله بن عمر ، وأبن أبي مليكة^(٢) .
- (٤٥٤) محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة . مراسيل . عن سعد وابن عمر^(٣) .
- (٤٥٥) محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن . أبي الزناد ، والزهرى .
- (٤٥٦) محمد بن عبد الملك الأنصارى . مدنى . عن نافع والزهرى وابن المنكدر .
- (٤٥٧) محمد بن حجاج المصفر بغدادى . عن شعبة ومالك .
- (٤٥٨) محمد بن حجاج اللخمي . الواسطى . يكذب . عن عبد الملك بن عمير ومجالد .
- (٤٥٩) محمد بن حجاج بن سويد البرجمي كوفي عن هشام بن عروة . من الشيعة .
- (٤٦٠) محمد بن سعيد بن أبي قيس المصلوب شامى عن عبادة بن أنسى ، والزهرى ، واسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر^(٤) .
- (٤٦١) محمد بن سالم أبو سهل كوفي عن الشعبي والحكم .
- (٤٦٢) محمد بن كريب مدنى عن أبيه .

(١) قال الذهبي : تركوه واجمعوا على ضعفه وهو محمد المحرم ديوان ٢٧٦ .

(٢) في أصل المخطوط محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر المكي والتصويب من كتب الرجال . أنظر ميزان الاعتدال ٦١٩/٣ ، ديوان ٢٧٩ .

(٣) قال ابن حجر : محمد بن عبد الرحمن بن لبيبة بفتح اللام وكسر الموحده وسكون التحتانية وفتح الموحدة الأخرى . ويقال ابن أبي لبيبة . تهذيب التهذيب ٣٠١/٩ ، تقريب التهذيب ٣٠٨ .

(٤) قال الذهبي : كذاب صلب في الزندقة اخرج البخارى في أماكن من تاريخه لاختلافهم في اسمه ونسبه وتقلب اسمه على وجوه . ديوان ٢٧٣ .

- (٤٦٣) محمد بن عثيم أبوذر عن ابن البيهاني .
- (٤٦٤) محمد بن عون الخراساني سكن الكوفة عن نافع وسعيد بن جبير .
- (٤٦٥) محمد بن زياد الميموني^(١) .
- (٤٦٦) محمد بن مهران يكذب^(٢) .
- (٤٦٧) محمد بن السائب الكلبي .
- (٤٦٨) محمد بن زاذان شامي . عن محمد بن المنكدر وأم سعد الأنصارية . هي لا تُعرف إلا به .
- (٤٦٩) محمد بن زيد العبدي بالبصرة عن أبي الأعين وسعيد بن جبير .
- (٤٧٠) محمد بن مروان السدي أبو عبد الرحمن كوفي . مصنف . عن عبيد الله بن عمر ويزيد بن أبي زياد .
- (٤٧١) محمد بن معاوية النيسابوري حدث ببغداد ثم بمكة وليس هو ابن مالح ، ابن صالح ثقة^(٣) .
- (٤٧٢) محمد بن كثير القصاب السلمى بصرى . وقال يحيى بن معين ثقة عن يونس ابن عبيد .
- (٤٧٣) محمد بن الحسن بن زباله . مدنى . عن مالك ، وسليمان بن بلال .
- (٤٧٤) محمد بن الحسن بن آتش صنعاني .
- (٤٧٥) محمد بن الفضاء المعبر بصرى عن أبيه عن علقمه بن عبد الله عن أبيه . لا يعرفون إلا به^(٤) .
- (٤٧٦) محمد بن فرات كوفي عن أبي إسحاق وعبد الله بن الحسن .
- (٤٧٧) محمد بن عمر الواقدي مختلف فيه . فيه ضعف بين في حديثه^(٥) .
- (٤٧٨) محمد بن القاسم الأسدي . أبو إبراهيم . كوفي يكذب . عن الثوري ، والأوزاعي .

(١) هو محمد بن زياد اليشكري الميموني الطحان . ميزان الاعتدال ٥٥٢/٣ .

(٢) قال الذهبي : محمد بن مسلم ويقال محمد بن مهران بن مسلم بن المثنى ، ميزان الاعتدال ٣٦/٤ .

(٣) قال الذهبي محمد بن معاوية النيسابوري وهو محمد بن معاوية ابن أعين الهلالي يكنى أبا علي . وقال ابن حجر . ابن مالح بميم وجيم وأسم جده يزيد الأنباطي . وأبو جعفر البغدادي صدوق ربا وهم . أنظر ميزان الاعتدال ٤٤/٣ ، تقريب التهذيب ٣١٩ .

(٤) محمد بن فضال بفتح الفاء والمعجمة مع المد . تقريب التهذيب ٣١٥ .

(٥) في أصل المخطوط محمد بن عبد الله والصواب ما هو مثبت قال ابن حجر : متروك مع سعة علمه من التاسعة - ق - تقريب التهذيب ٣١٢ .

(٤٧٩) محمد بن ذكوان بصرى . خال ولد حماد بن زيد ، يروى عن عمرو بن دينار وابن المنكدر ومجالد .

(٤٨٠) محمد بن أبى حميد ويقال حماد . مدنى ، عن ابن المنكدر ، ونافع ، وزيد بن أسلم .

(٤٨١) محمد بن يحيى الزهرى . أبو غزّيه مدنى عن عبد الوهاب بن موسى يضع .

(٤٨٢) محمد بن الفضل بن عطية الخراسانى ضعيف عن أبى إسحاق ومنصور من

المتأخرين .

(٤٨٣) محمد بن زكريا الغلابى بصرى يضع .

(٤٨٤) محمد بن عيسى بن حيان المدائنى^(١) . عن ابن عيينه ومحمد بن الفضل بن

عطية .

(٤٨٥) محمد بن عبد بن عامر . طواف . فى البلدان يكذب ويضع^(٢) .

(٤٨٦) محمد بن يونس بن موسى الشامى الكديمى^(٣) .

(٤٨٧) محمد بن ابراهيم بن زياد الرازى .

(٤٨٨) محمد بن عكاشة الكرمانى . بصرى يضع الحديث .

(٤٨٩) محمد بن عكاشة . كوفى . ضعيف .

(٤٩٠) محمد بن عبد الرحمن بن غزوان . هو ابن زيد ، متروك بغدادى .

(٤٩١) محمد بن أيوب بن سويد الرملى . ضعيف .

(٤٩٢) محمد بن عبد الله بن نمران . ضعيف .

(٤٩٣) محمد بن عيسى الهذلى . ضعيف . يروى عن محمد بن المنكدر يكنى أبا

يحيى .

(٤٩٤) محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن ثابت الأشنانى كذاب دجال^(٤) ()

يضع الأحاديث .

(٤٩٥) محمد بن هارون بن عيسى بن برّيه . الهاشمى .

(٤٩٦) معبد الجهنى . قدرى . عن حمران .

(١) هنا عبارة لم أتبينها ولم أجدها فى كتب الرجال .

(٢) أنظر ميزان الاعتدال ٦٣٣/٣ .

(٣) قال الذهبى : سئل عنه الدارقطنى فقال : يهتم بوضع الحديث . وما أحسن فيه القول إلا من لم يخبر حاله . ميزان

الاعتدال ٧٥/٤ .

(٤) هنا عبارة غير واضحة . وأنظر تاريخ بغداد ٤٣٩/٥ .

(٤٩٧) محرر بن هارون بن عبد الله التيمي . الهديري . مدني عن الأعرج عن أبيه لا يعرف إلا به (١).

(٤٩٨) مبارك بن سحيم أبو سحيم بصرى . مولى عبد العزيز بن صهيب (٢) .

(٤٩٩) مبشر بن عبيد الحمصي . يكذب . عن الزهري ، وزيد بن أسلم وحجاج ابن أرتأه .

(٥٠٠) مهدي بن هلال . يضع عن هشام بن عروه . وجعفر .

(٥٠١) مينا . مولى عبد الرحمن بن عوف عن ابن مسعود .

(٥٠٢) مطير بن خالد . وقيل ، مطر الاسكاف عن أنس .

(٥٠٣) معلى بن عرفان . كوفي . عن أبي وائل .

(٥٠٤) معلى بن هلال بن سويد الطحان . كوفي يكذب . عن أبي إسحاق وعبيد

الله بن عمر . يروى عنه الحسناني فيقول على بن سويد . ويروى فروة بن أبي المغراء فيقول عبد الله بن عبد الرحمن ويروى عنه غيرهما فيقول أبو عبد الله الطحان (٣) .

(٥٠٥) معلى بن عبد الرحمن . واسطى . عن شريك ، وعبد الحميد بن جعفر (٤) .

(٥٠٦) مسعده بن اليسع باهلي ، بصرى . عن جعفر بن محمد ، وابن جريج ومحمد ابن عمرو .

(٥٠٧) مسيب بن شريك . كوفي . أبو سعيد عن الأعمش وعبيد الله بن عمرو وهشام

ابن عروه . روى عنه إسحاق بن بهلول فقال أبو سعيد الشقري . وروى عنه على بن الجعد فقال أبو سعيد . ضعيف (٥) .

(٥٠٨) مسور بن الصلت . مدني عن نافع وابن المنكدر وزيد بن أسلم .

(٥٠٩) ميسره بن عبد ربه بغدادى . عن زيد بن أسلم كتاب العقل لداود بن المحبر

تصنيفه (٦) .

(٥١٠) معاوية بن يحيى الصدفي يكتب ما روى الهقل عنه ويتجنب ما سواه خاصة ما

روى عنه إسحاق بن سليمان الرازي .

(١) قال ابن حجر : محرر برأين وزن محمد على الصحيح . تقريب التهذيب ٣٢٩ .

(٢) مبارك بن سحيم بمهملتين مصغرا . تقريب التهذيب ٣٢٧ .

(٣) أنظر تهذيب التهذيب ٢٤٠/١٠ .

(٤) قال الذهبي : قال الدارقطني كذاب ديوان ٣٠٤ .

(٥) أنظر لسان الميزان ٣٨/٦ .

(٦) قال الخطيب البغدادي : روى عنه شعيب بن حرب المدائني خطبة الوداع . وداود بن المحبر بن قحزم أحاديث باطلة في

كتاب العقل . تاريخ بغداد ٢٢٢/١٣ .

- (٥١١) معاوية بن عمر أبو مطيع الاطرابلسي . روى عنه الوليد بن مسلم وشعبة وهشام بن عروة وعلى بن عياش .
- (٥١٢) موسى بن مطير كوفي . عن أبيه ، وعاصم بن بهدله . وموسى بن طلحة . ومطير أبوه لا يعرف إلا به .
- (٥١٣) موسى بن عمير أبوهارون الجعدي المخزومي . مولى بنى جعده بن هبيرة عن الحكم وأبي إسحاق .
- (٥١٤) موسى بن سعد أبو علي الحنفي . حديث منكر عن الحكم فقال حدثنا أبو هارون الشامي (١) .
- (٥١٥) موسى بن عمير العنبري . ثقة عن علقمة بن وائل بن حجر (٢) .
- (٥١٦) موسى بن عبيدة الربذي . لا يتابع على حديثه . وأخوه عبد الله صالح .
- (٥١٧) موسى بن محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي . عن أبيه والزهرى ، ومجاهد .
- (٥١٨) موسى بن دينار مكي عن هشام .
- (٥١٩) موسى بن طريف كوفي . عن عباية بن ربعي . متروك .
- (٥٢٠) موسى بن عمير العنبري عن عبد الجبار وأبي وائل بن حجر (٣) .
- (٥٢١) موسى بن سهل ألوشاء عن اسماعيل بن عليه حدثنا عنه هو غير موسى بن سهل بن عبد الحميد الجوني . والجوني صالح الحديث .
- (٥٢٢) موسى بن دهقان حدثنا عنه بصري عن ابن كعب بن مالك .
- (٥٢٣) موسى بن محمد بن عطاء المقدسي أبو طاهر عن مالك والموقري .
- (٥٢٤) مغيرة بن سعيد الكوفي . دجال . أحرق بالنار زمن النخعي أدعى النبوة (٤) .
- (٥٢٥) مسلمة بن علي الحشني عن الأوزاعي ، وهشام بن عروة وعبيد الله بن عمر .
- (٥٢٦) مقاتل بن سليمان . خراساني . يكذب .
- (٥٢٧) ميمون أبو حمزة القصاب الأعور . كوفي عن النخعي والحسن .

(١) أنظر لسان الميزان ١١٦/٧ .

(٢) وثقه ابن معين وأبو حاتم والعجلي . تهذيب التهذيب ٣٦٤/١٠ .

(٣) أنظر الترجمة السابقة . ولعل هذا التكرار سبق قلم من الناسخ .

(٤) قال الجوزجاني قتل المغيرة على ادعاء النبوة كان اشعل النيران بالكوفة على التمويه والشعبه حتى اجابه خلق . ميزان

الاعتدال ١٦١/٤ .

- (٥٢٨) مروان بن سالم الجزرى . قرقسانى . عن عبد الملك بن أبى سليمان
والزهري . (قال البرقانى استدركت من هنا إلى آخره من كتاب غيري) .
- (٥٢٩) مطرب بن ميمون المحاربى .
- (٥٣٠) مطرح بن يزيد . شامى .
- (٥٣١) مجالد بن سعيد . كوفى . ليس بقوى .
- (٥٣٢) المثنى بن الصباح مكى .
- (٥٣٣) مجاشع بن عمرو .
- (٥٣٤) منذر بن زياد الطائى .
- (٥٣٥) معارك بن عباد عن عبد الله بن سعيد المقبرى .

حرف النون

- (٥٣٦) ناصح بن عبد الله أبو عبد الله كوفى . عن سماك بن حرب .
- (٥٣٧) ناصح بن العلاء أبو العلاء بصرى . عن عمار بن أبى عمار .
- (٥٣٨) نوح بن أبى مريم أبو عصمه .
- (٥٣٩) نوح بن دراج . كوفى .
- (٥٤٠) النضر بن عبد الرحمن الخزاز . كوفى . عن عكرمه .
- (٥٤١) النضر بن سلمه . شاذان .
- (٥٤٢) النضر بن مطرق كوفى أبا لينة .
- (٥٤٣) نصر بن طريف أبو جزى .
- (٥٤٤) نصر بن باب . خراسانى .
- (٥٤٥) نصر بن حماد . أبو الحارث الوراق . عن شعبه .
- (٥٤٦) نصر بن مزاحم المنقرى . كوفى .
- (٥٤٧) نفيح بن الحارث أبو داود الأعمى . كوفى .
- (٥٤٨) نافع . أبو هرمز بصرى عن أنس وعطاء^(١) .
- (٥٤٩) نجيح . أبو معشر^(٢) .
- (٥٥٠) نهشل بن سعيد ، خراسانى .

(١) قال الذهبى : نافع بن هرمز أبو هرمز وسماه العقيلى نافع بن عبد الواحد . ميزان الاعتدال ٢٤٣/٤ .

(٢) قال الذهبى : نجيح أبو معشر السندى الهاشمى مولا هم المدنى صاحب المغازى . ميزان الاعتدال ٢٤٦/٤ .

- (٥٥١) نعيم بن المورع بن توبه . عن الأعمش ، وهشام بن عروه .
 (٥٥٢) نوفل بن سليمان الهنائي . حجازى .

حرف الواو

- (٥٥٣) واقد بن سلامه مدنى . وقيل وافد بالفاء عن يزيد الرقاشى (١) .
 (٥٥٤) واصل بن السائب الرقاشى . كوفى .
 (٥٥٥) وازع بن نافع العقيلى . جزرى .
 (٥٥٦) وهب بن وهب أبو البخترى . بغدادى . كذاب .
 (٥٥٧) وليد بن محمد الموقرى . شامى (٢) .
 (٥٥٨) وليد بن العباس بن مسافر . الخولانى . مصرى .
 (٥٥٩) وليد بن وليد الدمشقى عن ابن ثوبان . وسعيد بن بشير .

حرف الهاء

- (٥٦٠) هشام بن زياد أبو المقدام بصرى عن محمد بن كعب . وهشام بن عروه وأخوه
 الوليد ثقة .
 (٥٦١) هشام بن محمد بن السائب الكلبنى عن أبى مخنف ومجاهد (٣) .
 (٥٦٢) هيثم بن جمار البكاء بصرى .
 (٥٦٣) هيثم بن عدى الطائى .
 (٥٦٤) هيثم بن عبد الغفار بصرى .
 (٥٦٥) هذيل بن بلال المدائنى يكنى أبا البهلول .
 (٥٦٦) هارون بن هارون مدنى (٤) .
 (٥٦٧) هارون بن حيان الرقى عن ابن المنكدر وليث بن أبى سليم .
 (٥٦٨) هارون بن دينار (٥) .

(١) قال الذهبى : وافد بالفاء أو بقاف . ضعفه . ميزان الاعتدال ٣٣٠/٤ .

(٢) قال الذهبى : الوليد بن محمد الموقرى صاحب الزهرى يكنى أبا بشير البلقاوى مولى بنى أمية . والموقر حصن بالبقاء .

ميزان الاعتدال ٣٤٦/٤ .

(٣) قال الذهبى : النسابة العلامة وقيل أن تصانيفه أزيد من مائة وخمسين مصنفا . ميزان الاعتدال ٣٠٤/٤ .

(٤) هارون بن هارون بن عبد الله بن محرز بن الهدير أخو محرز ابن هارون . ميزان الاعتدال ٢٨٧/٤ .

(٥) قال الذهبى : شيخ بصرى . ضعفه الدارقطنى وغيره . ميزان الاعتدال ٢٨٣/٤ .

حرف الياء

- (٥٦٩) يحيى بن عبيد الله بن موهب عن أبيه .
(٥٧٠) يحيى بن أبي أنيسه الجزرى .
(٥٧١) يحيى بن مسلم البكاء بصرى . عن ابن عمر .
(٥٧٢) يحيى بن سلمة بن كهيل .
(٥٧٣) يحيى بن عقبة بن أبى العيزار .
(٥٧٤) يحيى بن أبى حيه . أبو جناب الكلبي (١) .
(٥٧٥) يحيى بن سعيد المدينى . التميمى وهو الفارسي قاضى شيراز عن الزهرى وهشام بن عروة .
(٥٧٦) يحيى بن كثير أبو النضر . بصرى ضعيف . عن أيوب ، وسليمان التيمى وعامر الأحول ، وعطاء بن السائب ، وداود بن أبى هند .
(٥٧٧) يحيى بن العلاء الرازى البجلي .
(٥٧٨) يحيى بن ميمون بن عطاء أبو أيوب التمار بصرى .
(٥٧٩) يحيى بن بسطام بن حريث بصرى .
(٥٨٠) يحيى بن هاشم السمسار . أبوزكريا . كان ببغداد .
(٥٨١) يحيى بن عمرو بن مالك . بصرى .
(٥٨٢) يحيى بن راشد . بصرى .
(٥٨٣) يحيى بن سالم . كوفى .
(٥٨٤) يحيى بن ثعلبه أبو المقوم (٢) .
(٥٨٥) يحيى بن عنبسه بغدادى كذاب .
(٥٨٦) يزيد بن عياض بن جعدبه . مكى (٣) .
(٥٨٧) يزيد بن سنان أبو فروة الرهاوى .
(٥٨٨) يزيد بن ربيعة أبو كامل الرحبي . من صنعاء دمشق .
(٥٨٩) يزيد بن سفيان أبو المهزم بصرى ضعفه شعبه (٤) .

(١) يحيى بن أبى حيه بمهمله وتحتانية أبو جناب بجيم ونون خفيفتين . تقريب التهذيب ٣٧٤ .

(٢) أنظر ميزان الاعتدال ٤/٢٦٧ .

(٣) يزيد بن عياض بن جعدبه بضم الجيم والمهمله بينها مهملة ساكنة . تقريب التهذيب ٣٨٤ .

(٤) أبو المهزم بتشديد الزاى المكسورة اسمه يزيد وقيل عبد الرحمن . تقريب التهذيب ٤٢٨ .

- (٥٩٠) يزيد بن عبد الملك بن المغيرة بن نوفل مدني .
 (٥٩١) يزيد بن إبان الرقاشي عن أنس .
 (٥٩٢) يزيد بن بيان المعلم .
 (٥٩٣) يزيد بن يوسف الشامي .
 (٥٩٤) يزيد بن عطاء مولى أبي عوانه واسطي .
 (٥٩٥) يعقوب بن الوليد مدني .
 (٥٩٦) يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه .
 (٥٩٧) يوسف بن السفر أبو الفيض عن الأوزاعي روى عنه عبد الله بن عمران
 العابدی فقال يوسف بن الفيض شامي (١) .
 (٥٩٨) يوسف بن خالد السمطي بصرى .
 (٥٩٩) يوسف بن عطية الصفار أبو سهل بصرى .
 (٦٠٠) يوسف بن عطية الوراق كوفي أبو المنذر .
 (٦٠١) يوسف بن ميمون الصباغ كوفي . عن عطاء .
 (٦٠٢) يونس بن خباب كوفي سىء المذهب (٢) .
 (٦٠٣) يعلى بن الأشدق .
 (٦٠٤) ياسين بن معاذ أبو خلف الزيات كوفي .
 (٦٠٥) يمان بن المغيرة أبو حذيفة العنزي بصرى (٣) .
 (٦٠٦) يمان أبو حذيفة . وقيل ابن حذيفة . بصرى .
 (٦٠٧) يمان بن سعيد . أبو رضوان شامي .
 (٥٠٨) يمان بن عدى أبو عدى الحضرمي ضعيف .
 (٦٠٩) يمان بن رثاب خراساني يرى رأى الخوارج .

الكنى

(٦١٠) أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبره مديني (٤) .

(١) أنظر ميزان الاعتدال ٤/٤٦٦ .

(٢) ما بين القوسين كلمة غير واضحة وقد وجدت ترجمة هذا الرجل في ميزان الاعتدال وتهذيب التهذيب وعثرت فيها على قول الدارقطني ونصه : «كان رجل سوء فيه شيعية مقرطه كان يسب عثمان» أنظر ميزان الاعتدال ٤/٤٧٩ ، تهذيب التهذيب ٤٣٨/١١ .

(٣) جعل الذهبي هذه الترجمة وما بعدها لرجل واحد . ميزان الاعتدال ٤/٤٦٠ .

(٤) قيل اسمه عبد الله وقيل محمد . تقريب التهذيب ٣٩٦ .

- (٦١١) أبو حامد الحنفى مجهول .
- (٦١٢) أبو داود النخعي كذاب رماه أحمد بن حنبل بالكذب .
- (٦١٣) أبو كرز القرشى مجهول^(١) .
- (٦١٤) أبو ناشرة مجهول .
- (٦١٥) أبو سورة مجهول يروى عن أبي أيوب الأنصارى^(٢) .
- (٦١٦) أبو ادم كوفي سليمان بن زيد المحاربى عن ابن أبى أوفى ضعيف .
- (٦١٧) أبو همدان . القاسم بن بهرام قاضى هيت متروك .
- (٦١٨) أبو توبة القاص بصرى ضعيف .
- (٦١٩) أبو سفيان الصوفى . ويقال العوفى . قال الدارقطنى ليس أعرفه .
- (٦٢٠) أبو حماد الكوفى الحنفى المفضل بن صدقه ليس بالقوى .
- (٦٢١) أبو حفص العبدى عمر بن حفص ضعيف .
- (٦٢٢) أبو أمية بن يعلى الثقفى ضعيف^(٣) .
- (٦٢٣) أبو سفيان السعدى طريف ضعيف .
- (٦٢٤) أبو عبد السلام مجهول^(٤) .
- (٦٢٥) أبو صفوان عبد الله بن سعيد بن عبد الملك بن مروان من الثقات عن يونس ابن مالك .
- (٦٢٦) سعيد بن مسلمه بن هشام بن عبد الملك ضعيف يعتبر به .
- (٦٢٧) ومسلمه بن سعيد بن عبد الملك يعتبر به ضعيف .
- (٦٢٨) بقيه يروى عن قوم متروكين مثل .
- (٦٢٩) مجاشع بن عمرو^(٥) .
- (٦٣٠) وعبيد الله بن يحيى لا أعرفه ولا أعلم روى عنه غير بقيه .

(١) عبد الله بن كرز القرشى لسان الميزان ٩٨/٧ .

(٢) قال الذهبى : يقال أنه ابن أخى أبى أيوب . ميزان الاعتدال ٥٣٥/٤ .

(٣) قال الذهبى : هو اسماعيل . ميزان الاعتدال ٤٩٣/٤ .

(٤) قال الذهبى : قيل اسمه الزبير وقيل أيوب . ميزان الاعتدال ٥٤٨/٤ .

(٥) انظر ميزان الاعتدال ٤٣٦/٣ .

(٦٣١) وعبد الحميد بن السرى الغنوى يروى عن عبيد الله بن عمر يقال له أبو اليسر ضعيف^(١).

(٦٣٢) الوليد بن مسلم يرسل، يروى عن الأوزاعى أحاديث الأوزاعى عن شيوخ ضعفاء عن شيوخ قد أدركهم الأوزاعى مثل نافع وعطاء والزهرى فيسقط أسماء الضعفاء ويجعلها عن الأوزاعى عن عطاء يعنى مثل عبد الله بن عامر الأسلمى واسماعيل بن مسلم^(٢).

(آخر الكتاب والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً) . . . وهو حسبنا ونعم الوكيل . بلغ العرض .

كان الحسن البصرى رحمه الله يقول :

لا يستحق أحد حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس
بعب هو فيه ولا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح ذلك
من نفسه فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيباً إلا وجد في نفسه
عيباً آخر ينبغى له أن يصلحه فإذا فعل ذلك شغل نفسه
بخاصة نفسه من عيب غيره . . .

وإنك ناظر إلى عمك يوزن خيره وشره، فلا تحقرن
شيئاً من الخير وإن صغر، فإنك إذا رأيت سريراً مكانه، ولا
تحقرن شيئاً من الشر وإن صغر، فإنك إذا رأيت ساءك
مكانه . . .

(١) قال الذهبى : من المجاهيل . ضعفه الدارقطنى . ميزان الاعتدال ٥٤١/٢ .

(٢) قال الذهبى : إذا قال الوليد بن مسلم عن ابن جريج أو عن الأوزاعى فليس بمعتمد لأنه يدل على كذاين فإذا قال حدثنا فهو حجة . ميزان الاعتدال ٣٤٨/٤ .

الملك عبد العزيز آل سعود

بين

نصره لله ونصر الله

لشيخ إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن

المرضى بالعمى الثانوى التابع للجماعة

(٣)

كان الملك عبد العزيز دائم الشكر لله سبحانه وتعالى على تأييده له في كل موقفه، وكان دائما يفيض في الحديث بنعمة الله عليه، وبتوفيقه في جميع أموره، قال رحمه الله :

«التوفيق . . . والتوفيق لا يكون إلا بالله . . . ﴿وما توفيقى إلا بالله﴾ . (هود : ٨٨) .
والإنسان بلا توفيق لا يستطيع أن يعمل شيئا . . . نسأل الله أن يوفقنا لما فيه الخير لهذا الوطن العزيز . . . إن توفيق الله هو المقدم والنافذ . . . وأمره بين الكاف والنون ﴿كن فيكون﴾ .
(يس : ٨٢) والقدرة وحدها لا تنفع ما لم تكن مؤيدة من الله سبحانه وتعالى . . . نسأل الله التوفيق، وأن ينصر دينه، ويعلى كلمته، ويعز الإسلام والمسلمين .
ونسأله تعالى العناية والتوفيق وإصلاح النية، وأن يوفقنا إلى ما فيه الخير والفلاح»^(١) .

ولقد قالوا :

«التوفيق قوة من عالم الغيب، يؤمن بها من تتبع أمثال سيرة عبد العزيز . خطط الحرب فن، والتغلب أو بسط السيطرة فن، والسياسة والإدارة وما إليها من شئون المجتمع، كل منها فن له قواعده ومدارسه . ومن المدارس التجارب والمران وطول الممارسة . أما «التوفيق» فأمر فوق ذلك كله . لا فائدة له، ولا مدرسة، ولا سابقة ينسج على منوالها .
وفي الناس من يُسَعَف بالحظ مرة أو مرات، فيقال : قد وُقِّعَ، ولكنه لا يكون «موفقا»

(١) مختارة من كلمات وخطب الملك عبد العزيز (أنظر المصحف والسيف .

مادام يتأرجح أحيانا بين التوفيق ونقيضه . أما الموفق - حقا - فذلك الذى تجرى الأحداث ،
أو تكاد تجري متتابعة متجانسة ، على وفق غرضه ، وعلى مدى مصلحته»^(١) .

وإن جليل توفيق الله على الملك عبد العزيز ، أن أيده فى كل ما قام به من عمل ؛ فهو
سبحانه وتعالى موفقه ومؤيده ، ومؤازره فى كل خطوة خطاها ، فقد فتح الرياض ، وضم
الخرج ، والمحمل ، والشعيب ، والوشم ، وأنتصر على الأعداء فخلّص القصيم ، وفتح
الأحساء ، وضم عسير ، وفتح حائلا ، والجوف ، وكان توفيق الله فى أسمى صورة حينما ضم
الحجاز ، ووجه كل اهتمامه وعنايته إلى الحرمين الشريفين .

وهكذا فقد خلّص - رحمه الله - البلاد والعباد مما دهاهم مئات السنين ، واجتمع
الناس عليه ، فأصبح مسئولا عنهم أمام الله سبحانه وتعالى ، فعليه أن يرمى الله فيهم ،
فيسلك بهم طريق النجاة للدنيا والآخرة .

كان الملك عبد العزيز آل سعود صادقا مع نفسه ، وما عاهد الله عليه من التمسك
بالمنهج الإلهى ، والدستور السهاوى القرآن الكريم ، وسنة رسول الله ﷺ ، وطريق السلف
الصالح من الصحابة والتابعين بلا تأويل ، أو ابتداع ، أو تغيير .

كان أول ما نادى به ، إخلاص التوحيد لله ، ومما علق به من كل شائبه ، وجعله لله
وحده ، فلا يشرك به ، منفردا بالعبادة والقصد .

وهذا هو الأساس المتين الذى يجتمع عليه المسلمون ، حتى يثبت الإيمان ، ويرسخ فى
الصدور ، وبعده يهون كل شىء .

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ . (النساء : ٦١) .

وما ترك - رحمه الله - مناسبة ولا اجتماعا ، دون أن يذكر الناس بالتوحيد الخالص لله ،
فهو يعرف أن التوحيد إذا علق به شىء ضعفت النفوس ، وأصبح من السهل أن تنقاد لغير
الله ، قال رحمه الله :

«هذه هى العقيدة التى قام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب يدعو إليها ، وهذه هى
عقيدتنا ، وهى عقيدة مبنية على توحيد الله عز وجل خالصة من كل شائبة ، منزهة من كل
بدعة ، فعقيدة التوحيد هذه ، هى التى ندعو إليها ، وهى التى تنجينا مما نحن فيه من محن
وأوصاب»^(٢) .

(١) شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز . ج ٢ ص ٥٨١ .

(٢) من خطبة ألقاها جلالتة بمكة فى ذى الحجة ١٣٤٧هـ (المصحف والسيف ص ٨٥-٨٦) .

«إن المسلمين في خير ماداموا على كتاب الله، وسنة رسوله، وما هم ببالغين سعادة الدارين إلا بكلمة التوحيد الخالصة»^(١).

«وقد نصرنا الله بقوة التوحيد الذي في القلوب، والإيمان الذي في الصدور، ويعلم الله أن التوحيد لم يملك علينا عظامنا وأجسامنا فحسب، بل ملك علينا قلوبنا وجوارحنا، ولم نتخذ التوحيد آلة لقضاء مآرب شخصية، أو لجر مغنم، وإنما تمسكنا به عن عقيدة وإيمان قوى، ولنجعل كلمة الله هي العليا»^(٢).

ثم ينطلق الملك عبد العزيز بالدعوة إلى التوحيد من محيط الجزيرة العربية، فيتخذ موقف الداعى إلى الله، ليلبغ ما يجب عليه تجاه نشر الدعوة، فيدعو المسلمين جميعا في أنحاء الأرض إلى التوحيد الصحيح، وينطلق بهم إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وحينما يرى المسلمين قد نفذوا ذلك، واتحدوا على العمل بما يدعو إليه، سيجدون أنه واحد من المسلمين يسعى لخيرهم، ويسهر على راحتهم، لا بصفته ملكا أو زعيما أو أميرا، بل فردا من عامة المسلمين، وليس هو وحده فحسب بل ومعه أولاده وجيشه وقومه، ثم يشهد الله على قوله وتبليغه للمسلمين فيقول :

«إن المسلمين بخير إذا اتفقوا، وعملوا بكتاب الله وسنة رسوله . . . ليتقدم المسلمون للعمل بذلك، فيتفقوا فيما بينهم على العمل بكتاب الله وسنة نبيه، وبما جاء فيهما، والدعوة إلى التوحيد الخالص فإننى - حينذاك - أتقدم إليهم فأسير وإياهم جنبا إلى جنب في كل عمل يعملونه، وفي كل حركة يقومون بها . . . والله إنى لا أحب الملك وأبته، ولا أبغى إلا مرضاة الله، والدعوة إلى التوحيد . . . ليتعاهد المسلمون فيما بينهم على التمسك بذلك، وليتفقوا، فإننى أسير وقتئذ معهم لا بصفة ملك أو زعيم أو أمير، بل بصفة خادم . . . أسير معهم أنا وأسرتى وجيشى وبنو قومي؛ والله على ما أقول شهيد، وهو خير الشاهدين»^(٣).

ثم يذهب رحمه الله إلى أبعد من ذلك، فيرى أن كلمة التوحيد الصحيحة ونشرها، والعمل بها بين المسلمين، لو تمت على يد أعدائه، لكان فرحا بذلك، ولا تحمد معهم، وسار في طريقهم، وإن تمت على يده اعتبر ذلك منة، وفضلا من الله سبحانه وتعالى .

(١) من خطبة ألقاها جلالته بمكة في ذى الحجة ١٣٤٧ هـ (المصحف والسيف ص ٨٥-٨٦).

(٢) من خطبة ألقاها جلالته بمكة بمناسبة سفره إلى المنطقة الوسطى من المملكة في محرم ١٣٤٨ هـ (المصحف والسيف

ص ٨٩).

(٣) المصحف والسيف ص ٨٧ .

«وإني أجاهد لإعلاء كلمة التوحيد، والحرص عليها، وأحب أن أراها قائمة ولو على يد أعدائي، وإن تمت على يدي فذلك من فضل الله»^(١).

كان رحمه الله في كل اجتماعاته الخاصة والعامة، بين أهله وخاصته، أو بين أهل البلاد، حينما يلتقى بهم في كل مناسبة، أو في اجتماعاته الدولية بين عامة المسلمين، يوصى بالتمسك بالكتاب والسنة، وأن يجتمع الناس عليهما وأن يعملوا بما فيهما، فليس في الحياة أمر إلا وتعرض له القرآن الكريم ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ والسنة الشريفة، وليس هناك خصلة مفيدة ونافعة إلا يدعوان إليها. خطب يوماً أهل مكة فكان مما قاله :

«ولكن هناك نعمة حقيقية لا تزول، وخزينة لا ينضب معينها، هي الاعتقاد بأن لا إله إلا الله، وهذه النعمة مشروعة في كل مكان، ولكنها هذه البقعة المباركة ألزم، لأن الحسنات والسيئات تتضاعف فيها، ولأن الله أختارها لتكون مهبطاً للوحى، وجعل زيارة حرمها من أركان الإسلام».

وقال رحمه الله حينما جاء إلى المدينة المنورة، وسلم على رسول ﷺ، وصلى بالمسجد النبوي، ثم خطب الناس فكان مما قاله :

«وإن خطتى التي سرت، ولا أزال أسير عليها، هي إقامة الشريعة السمحاء، كما أننى أرى من واجبي ترقية جزيرة العرب، والأخذ بالأسباب التي تجعلها في مصاف البلاد الناهضة، مع الاعتصام بحبل الدين الإسلامى الحنيف».

وخطب يوماً في حجاج بيت الله الحرام فقال في خطبة طويلة :

«والمقصود من هذا الاجتماع هو أن نحدد اسم الإسلام، ونعمل بمعناه، والإسلام معناه : الاستسلام لله تعالى، والطاعة له، والإيمان بكتابه ورسوله، وقواعد الإسلام قائمة على كتاب الله، وسنة رسوله، وأعمال الخلفاء الراشدين، وما اتفق عليه الصحابة الكرام، وما جاء به فيما بعد الأئمة الأربعة فهو حق لا نعيد عن ذلك قط»^(٢).

ولقد ظهر جماعة من المتفرنجين من المسلمين، يدعون إلى ما يسمونه بالتجديد، وإلى الأخذ بكل ما فى الغرب، ونادوا بالخروج على تقاليد الدين الإسلامى الحنيف، ودعوا

(١) الإمام العادل ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) المصحف والسيف ص ٩٣ .

الشرق بأن يسير وراء الغرب، وكانوا مغرضين في ذلك، فانبرى لهم الإمام رحمه الله، ففند مزاعمهم، وسفه أحلامهم، ورد عليهم بالحجة والدليل والمنطق في كثير مما قاله في خطبه ومجالسه ومنتداه .

قال رحمه الله :

«يقول كثير من المسلمين : يجب أن نتقدم في مضمار المدنية والحضارة، وإن تأخرنا ناشىء من عدم سيرنا في هذا الطريق، وهذا إدعاء باطل، فالإسلام قد أمرنا بأخذ ما يفيدنا ويقويننا على شرط أن لا يفسد علينا عقائدنا وشيئتنا، فإذا أردنا التقدم يجب أن نتبع الإسلام، وإلا كان الشر كل الشر في اتباع غيره»^(١).

« يقولون : (الحرية) ويدعى البعض أنها من أوضاع الأوربيين، والحقيقة أن القرآن الكريم قد جاء بالحرية التامة الكافلة لحقوق الناس جميعا، وجاء بالإخاء والمساواة المطلقة التي لم تحلم بها أمة من الأمم، فأخى بين الصغير والكبير، والقوى والضعيف، والغنى والفقير، وساوى بينهم»^(٢).

ويقولون التمدن والمدنية الأوربية هي الغاية القصوى، وهذا وهم باطل، فإن الله جعل من كل شيء أفضله مباحا لنا، وأحب شيء إلينا هو العمل الخالص، والنية الحسنة»^(٣).

«إننا لا نبغى التجديد» الذي يفقدنا ديننا وعقيدتنا . . . إننا نبغى مرضاة الله عز وجل، ومن عمل ابتغاء مرضاة الله، فهو حسبه، وهو ناصره، فالمسلمون لا يعوزهم التجديد، وإنما تعوزهم العودة إلى ما كان عليه السلف الصالح»^(٤).

ولقد بدأ رحمه الله بالدور العملى في تنفيذ حدود الله في جميع مناحى الحياة، وعلى الجميع، لا فرق بين غنى وفقير، وأمير وغير أمير، وأصبح الناس كلهم سواء أمام القانون السماوى، وهدد أولئك الذين قد تحدثهم أنفسهم بالفوضى، والمضاربة بالأقوال، والتلاعب بالكلمات والألفاظ، ويظهرون الأمور على ما ليست عليه، لقد حذرهم فكان مما قاله :

«إن البلاد لا يصلحها غير الأمن والسكون، لذلك أطلب من الجميع أن يخلدوا

(١) المصحف والسيف ص ١٢٣ .

(٢) (٣، ٢) المصحف والسيف ص ٩٣ .

(٤) المصحف والسيف ص ٨٦ .

للراحة والطمأنينة، وإني أحذر الجميع من نزعات الشيطان، والاسترسال وراء الأهواء التي ينتج عنها إفساد الأمن في هذه الديار، فإنني لا أراعى في هذا الباب صغيراً أو كبيراً، وليحذر كل إنسان أن تكون العبرة فيه لغيره»^(١).

لقد شغل بال الملك عبد العزيز الأمن والسكينة في هذه البلاد المترامية الأطراف، الواسعة المساحة، وللبادية وسكانها خطرهم، فهم منتشرون في مساحات شاسعة بين الخليج العربي والبحر الأحمر، وما بين خليج عدن، وما يقابله في الشمال.

هذه المساحة الكبيرة لم تر الأمن والسكينة من زمن بعيد، فقد رجعت عناصر الشر إلى عاداتها وطبائعها، إذا استثنينا فترات قصيرة، كانت بمثابة هدنة. وفي العهد التركي وعهد الشريف أصبحت أشد خطراً، وأعظم فتكاً، فليس هناك ما يردعهم، أو يقلم أظافرهم؛ ولأن البلاد ممزقة بسبب الثارات بين القبائل، فكانت الإغارة والسلب والنهب والقتل من المهن المعترف بها، وكان أهل البادية دائماً يتربصون بالقوافل وقطعان الماشية الدوائر.

ولكى يأمن التاجر على نفسه وما معه إذا كان يجتاز الصحراء، عليه أن يدفع الإتاوات على طول الطريق الذي يمر به، فالتاجر الذي يجيء من البحرين مثلاً يدفع قبل أن تطأ رجله العقير إتاوة للعجمان، ومن العقير إلى النخل خمسة أميال، إتاوة للمناصر، وكذلك أم الذروبني هاجر...

وإذا فاز التاجر بحياته وبقي شيء في كيسه فمن المؤكد أن أحماله لا تصل كلها إلى المكان الذي يريده. وكان في عهد الترك إذا خرج العسكر لتأديب جماعة من هؤلاء البدو، يطاردهم البدو، فيغلبونهم، ويأخذون خيلهم وثيابهم، ويرجعونهم إلى مكان إقامتهم حفاة عراة.

والأدهى والأمر ما كان يصنع بحجاج بيت الله الحرام، كانوا عرضة للسلب والنهب والقتل، وكان الحجاج يخرجون من بلادهم، ولا أمل لهم في العودة، وقد حملوا معهم أكفانهم، فكانوا في جهاد وقتال مع أهل البادية الذين يأخذون منهم ما يطلبون، ولم يكونوا يكتفون بما أخذوا بل كانوا يغيرون على مؤخرات القوافل يسلبون ويقتلون، ولا أحد يستطيع أن يغير شيئاً مما كان يحدث.

(١) المصحف والسيف ص ٢١٧.

حتى أرض الحجاز لم تسلم من بطش أهل البادية في معظم جهاتها، والعلة في ذلك أن حكام الحجاز لم يكونوا على كثير من الحكمة والسياسة التي تلائم العرف عند القبائل، أو لم يكونوا متفرغين للأمن، ولم يكن يجدى ما يدفعون من أموال، فقد كانت القبائل تأخذ الأموال، ولا تمتنع عن السلب والنهب، ولم يخطر على بال أحد منهم أن يحكم الشريعة الإسلامية، لذلك فإن الفوضى الأمنية قد عمت جل البلاد، فمثلا طرق المدينة المنورة لم يكن في الاستطاعة أن يقام فيها الأمن وأن يستتب، فكانت مسرحا لحوادث جسام، فالقبائل تعتدى على الحجاج، وتسلب ما معهم، وقد تفرض عليهم إتاوات كبيرة .

يقول الصحفى المصرى محمود أبو الفتح - رحمه الله - في صحيفة الأهرام عام

١٩٣٠م :

« كان بعض الأعراب يذبحون الحاج وإن كان فقيراً لإستلاب ما معه، وكانوا يذبحون الحاج في رابعة النهار، ولم يسلم من أذاهم أحد، ولم يجدوا من يردعهم، فعاثوا فساداً، حتى كان المسلم يخرج وهو لا يدرى أيعود إلى وطنه أم يقتله السفاحون»^(١).

وحتى أهل البادية، لم يكونوا في صفاء مع أنفسهم، كانوا متفرقين مختلفين، تزداد العداوة والبغضاء بينهم نموا يوماً بعد يوم، يقتل بعضهم بعضاً لأتفه الأسباب، ويأكل القوى منهم الضعيف، تنشب المعارك الضاربة، فيقتل منهم العشرات، لا ينامون على خير، بل يعدون للشر والإنتقام، ويندفعون للتخريب لذلك لم يهدأوا ولم يأمنوا، وكانوا يسرون في جماعات حاملين السلاح، وكأنها رجعت الجاهلية الأولى فاشتعلت نار الفتن، وتقطعت الأرحام وتواثبوا في الأسواق، وعلى حدود القبائل، وخاف بعضهم بعضاً، فحملوا السلاح ليلاً ونهاراً .

يقول صاحب كتاب « عنوان المجد » :

« كانت الفتن مستمرة، والغارات دائمة بين القبائل ففي ١٢٣٩هـ وقعت فتن وقتل رجال، وأخذت أموال من كل بلد وناحية من القصيم والعارض والخرج والجنوب وغير ذلك .

وكان بعض القبائل يغير على القرى والمدن ففي ١٢٣٧هـ مثلاً أغارت بوادى سبيع على - قرية - منفوحة، وأخذوها عنوة ونهبوا وسلبوا النساء، وقطعوا الشار واستولوا على البلد... وعم القتل في هذه السنة في القصيم وسدير والوشم والعارض والخرج والجنوب»^(٢).

(٢) عنوان المجد لعثمان بشرح ١ ص ٢٧٧ .

(١) صحيفة الأهرام في ١٦/١١/١٩٣٠م .

وهكذا فقد ساد الجزيرة فوضى، رجع الناس بسببها إلى ما كان قبل بعثة الرسول ﷺ .

استرشد الملك عبد العزيز برأى الدين في معالجة كل أمره، وبها هداه الله إليه من عمل، ووهبه من ذكاء وخبرة، لم يلجأ رحمه الله في أول الأمر إلى القوة واستخدام السيف للخارجين على الدين، والعاثين في الأرض فسادا، وكان الخطر الداهم على البلاد من البادية، لأن أهلها جبلوا على عادات وطباع خاصة، هم في حاجة إلى علاج ناجع يحسم الداء، ويجعل منهم مجتمعا صالحا للحياتين .

لقد رأى أن هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، وأن لهذا الدين سحراً عجيباً في قيادة الناس على اختلاف مشاربهم وحياتهم، وأنه هو الذي صنع من أهل البادية أعظم أمة عرفها التاريخ، وأن الناس حينما تخلوا عن مبادئ هذا الدين الحنيف، تخلى الله عنهم فتأهوا في الظلمات سنين طويلة، أما وقد وفق الله لإقامة شعائر هذا الدين، فقد رأى الإمام والملك المصلح - رحمه الله - تبصير أهل البادية بأمر دينهم، وجمع كلمتهم على هدى الإسلام .

لقد أرسل إليهم من يبصرهم بأمر دينهم، ويرشدهم إلى الطاعات، فكان في كل قبيلة من قبائل البدو الرحالة والمستقرة من يعلم الناس أصول هذا الدين القويم، ويوجههم إلى ما ينفعهم في حياتهم، ويحجب عما يسألون عنه في أمور الدنيا والآخرة، فالتفوا حوله، وشغلوا بالعمل الصالح، وأصبح له مكانة كبيرة في نفوسهم، وصار يخاطبهم يوم الجمعة وكل المناسبات الدينية كالعيدين والاستسقاء وغيرهما، ويصلى بهم، ويعلم أبناءهم، ويفتي كبارهم، ويعقد الزواج، ويقسم الموارث، ويتوسط في حل المشاكل .

ورأى الملك عبد العزيز - رحمه الله - أن عامل الحالة الاجتماعية يساعد كثيرا على الاستقرار ويقوى الناحية الدينية، ويسد الطريق على من تحدثه نفسه بأن يسلك طريقا غير مشروع لجلب الرزق، فأراد أن ينتقل بالبدو من حياة البادية المتنقلة، إلى حياة الهجر، ليركوا حياة السفر والتنقل من مكان إلى آخر قد يجدون فيه ما يسد رمقهم، وقد لا يجدون، فيميلون إلى السطو والنهب أراد أن ينتقل بهم إلى حياة السكون والاستقرار، وليركوا حياة الرعى إلى حياة الزراعة والرعى . وانشئت الهجرة الأولى على آبار الأرتاوية على طريق بين الزلفى والكويت عام ١٣٣٠هـ، وأصبحت خلال بضع سنوات مدنا فيها من السكان ما يزيد على العشرين ألفاً، ثم تلى الأرتاوية حركة عامة بين البدو لترك حياتهم البدوية والسكنى في قرى جديدة، كانوا ينشئونها بمعونة من بيت مال المسلمين، تحفر البئر ويبني

المسجد الذى هو مجتمع القرية ومدرستها، وكانت السرعة هى الرائد فى كل ما يقومون به من أعمال .

وهكذا فقد أصبحت المساجد غاصة بأهلها ممن تركوا الخرافات والبدع وعادات الجاهلية، وواظبوا على الصلاة فى أوقاتها، وتواصوا بالأخلاق الإسلامية الصحيحة التى تحث على الفضيلة والإيمان .

وأصبحت الزراعة هى موردهم الذى منه يأكلون ويتاجرون ويربحون، فتكونت عندهم الثروات والمال الكثير، وفى نفس الوقت فقد انتشرت المعسكرات، ليكونوا من الشباب أمة مسلمة تدافع عن مبادئها، وترد كيد كل من يحاول أن ينال من دولتهم الفتية بقيادة قائدهم الأعظم عبد العزيز آل سعود، وهم على استعداد للقتال معه فى أى وقت .

لقد كانت خطة الإمام عبد العزيز منذ تولى إمارة الرياض، أن ينفذ حكم الله فى كل من خرج على حدوده، فكان يتتبع الجرائم الكبيرة بنفسه، ويتعقبها، ويحث جهات الاختصاص على رفع نتائج الحوادث وتطورها إليه أولاً فأولاً، ويصدر أوامره بشأنها، ويشفع كل ذلك بالحزم والدقة حتى تنكشف الجناية، وكان إذا عرضت عليه قضية درسها من جميع الوجوه بما له من علم ومعرفة وخبرة وذكاء مبينا ما جاء فى الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ثم يصدر حكمه .

وكان كثيرا ما يقرأ ظروف وملابسات كل قضية يطلب منه التصديق عليها، وقد يعيد الحكم فيها، من ذلك ما رفع إليه من قضية طلب منه التصديق على حكم أصدرته إحدى المحاكم الشرعية، بإعدام جندي قتل زوجته وجنديا آخر، وكان تنفيذ الحكم معلقاً على موافقة الإمام .

درس - رحمه الله - القضية، فظهر له أن الزوجة كانت قد غابت عن بيتها أياما، وبحث عنها زوجها فوجدها عند أحد الجنود، فأطلق عليها الرصاص وسألته المحكمة، فأقر بالقتل، ولم يحسن الدفاع عن نفسه فحكمت المحكمة بإعدامه .

ولم يكذب ينتهى من القضية، حتى دعا رئيس المحكمة إليه فقال له :

«ألم تقرأ الحديث الذى فيه إننى أغيركم، والله أغير منى»^(١).
ثم أطلق القاتل لأنه كان يدافع عن عرضه. وهذا من توفيق الله^(٢).

ولما اتسعت البلاد، جعل لكل ناحية أميراً، وكان على كل أمير أن يجمع رؤساء القبائل والعشائر، ويؤمنهم على أنفسهم ومعيشتهم، ويشترط عليهم أن يكونوا قادرين على حفظ الأمن فى حدود أراضي قبيلتهم، وكل حادثة تحدث فى منطقة أحدهم يكون مسئولاً عنها هو وقبيلته، سواء أكانت بين بعضهم أو حوادث لأجانب من التجار أو الحجاج أو غيرهم.

علم أمير الطائف فى أوائل ضم الحجاز أن البدو اختطفوا اثنين من حجاج الهند وقتلوهما، وأخذوا أمتعتهما، فأمر باحضار كبار القبيلة التى حصل فى حدودها الحادث، وحدد لهم ثلاثة أيام لاحضار المسروقات، والإرشاد عن جثث القتلى، وأقسم أنه إذا انقضى الميعاد المضروب دون نفاذ المطلوب، لبيدن القبيلة بأكملها، وقبل مضى الميعاد، أحضر رجال القبيلة المسروقات، وأرشدوا إلى جثث القتيلين، وأخيراً أرشدوا إلى اثنين اعترفا بالقتل، فأمر بقطع رقبتهم.

وفى هذه المرة اعتداء على السعوديين فقد جاء إلى القصر فى الرياض بضعة رجال من إحدى القبائل، يطلبون عيشاً وكسوة، فكان لهم ما ابتغوه، ثم ارتحلوا، فمروا فى طريقهم ببعض الجمال والنوق، فساقوها أمامهم، فشكاهم أصحابها إلى السلطان عبد العزيز، فبعث السلطان من يحمل الخبر إلى أمير الاحساء، فما وصل إليه الخبر، حتى تحرك رجال الدولة يبحثون عن اللصوص، وما هى إلا أربع وعشرون ساعة حتى جىء بهم وبالمسروقات ولقوا جزاءهم.

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾. (المائدة : ٣٣).

لقد ألقى الله فى قلب كل من تسول له نفسه السير فى طريق العدوان والفساد وسادت

(١) عن أبى هريرة قال : قال سعد بن عباد بن عباد يارسل الله لوجدت مع أهلى رجلاً لم أمسه حتى أتى بأربعة شهداء . قال : نعم . قال : كلا الذى بعثك بالحق إن كنت لأعجله بالسيف قبل ذلك . قال رسول الله ﷺ : اسمعوا إلى ما يقول سيدكم إنه لغير وأنا أغير منه والله أغير منى - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٠ ص ١٣١ . باب اللعان . المطبعة المصرية .
(٢) شبه الجزيرة ج ٢ ص ٤٥٢ .

الرغبة في الحفاظ على حقوق الله وحقوق العباد، فكان يُردّد في كل مكان : «الحكم للشرع»، «السارق تقطع يده»، «القاتل يقتل» «عدل عبد العزيز»، «التمسك بشريعة الإسلام»، «الصلاة الصلاة» .

كلمات تسمع في البادية، وفي القرى والمدن، وفي البر والبحر، وفي الأماكن المقدسة، يرددها الناس فتزلزل القلوب، وتخيف النفوس المريضة، وتزيد المؤمنين إيماناً وطمأنينة .

بل لقد انتقلت هذه الكلمات إلى عامة المسلمين في جميع البلاد الإسلامية، في الصحراء وفي المدن والداكر، في أعماق بلاد المسلمين، يهنيء بعضهم بعضاً، بسبب ما وصل إليه الأمن والأمان في البلاد المقدسة، وبنجاح التجربة الإسلامية، وعودة بلد من بلاد المسلمين إلى الحكم بكتاب الله، ويتمنى أن تنال هذه التجربة الناجحة بلاد المسلمين فيرجعوا إلى كتاب الله .

لقد شجع بعضهم بعضاً على أداء الحج والعمرة، وغاب عامل الخوف والرعب، فكانوا يقولون :

هيا إلى الحج، هيا إلى العمرة، إلى الأماكن المقدسة، إلى مكة وإلى المدينة، الطريق آمن، ابن سعود يحكم بالشرع، عبد العزيز قضى على القتلة والسفاحين، سنرجع بسلامة الله .

كلمات لا يزال يحكيها المعمرون في أقاصي البلاد الإسلامية، الذين رأوا بأعينهم الأعمال العظيمة التي قام بها عاهل الجزيرة الملك عبد العزيز آل سعود، فكانت خير شاهد على توفيق الله له .

ولقد جاء في الحديث الصحفي الذي نشره محمود أبو الفتح - رحمه الله - وقد زار البلاد، ورأى بعينه ما وصلت إليه البلاد منذ أكثر من خمسين سنة ما يأتي :

«وجاء ابن سعود، فضرب أمثلة . . . كان يأمر بالسارق فتقطع يميناه، وبالقاتل فيجز رأسه في السوق العامة . . . تلك أمثلة . . . ولكنها كانت درسا نافعا، فقد قطع ابن سعود عشرات من رءوس اللصوص والقتلة، وأنقذ بذلك رءوس الألوف من حجاج بيت الله الحرام» .

ثم يكمل حديثه فيقول :

والآن تسير الفتاة من طرف الجزيرة الغربي إلى طرفها الشرقي، تحمل الذهب، فلا

يتطلع إليها أحد، بل يرى الناس قطعة الذهب أو الفضة ملقاة على الأرض، تسقط من بعض المارة، فلا يقربونها، وإنما يبلغون عنها الشرطة .

ويحدثني المعتمد البريطاني في جدة عن حالة الأمن فقال :

«إنها إن دامت سنوات بلغت البلاد درجة عظيمة من الرقى . إن الأمن في الحجاز، لا مثل له في أى بلد من بلاد العالم الآن»^(١) .

وقال محمد بن عبد الله الأنصارى الاحسائى :

«والمملكة العربية السعودية تتقدم من حسن إلى أحسن، قد عمها الأمن، وشملها العدل، واتسع الرزق، وكثرت موارده، وعم اليسار معظم طبقات الشعب بما أجرى الله في جهات الاحساء من ينابيع الزيت بحكمة هذا الملك المصلح فقد طبق في مملكته الأحكام الشرعية التي جاء بها القرآن ونطقت به سنة النبي الكريم محمد بن عبد الله ﷺ، فقتل القاتل، وقطع يد السارق، وجلد شارب الخمر، ورجم الزانى المحصن، وشدد العقاب على المعتدين والعاثين بالأمن، فنعمت البلاد بأمن لم تكن تحلم به، ولم يحصل لغيرها من رعايا الدول الكبيرة المتمدينة، وأقام الدليل الواضح على أن شريعة الإسلام هى الشريعة الكفيلة لسيادة البشر في كل زمان ومكان، فجزاه الله عن المسلمين خيرا»^(٢) .

والحمد لله ، لقد أصبحت حدود الله ، والمحافضة عليها قائمة إلى وقتنا هذا، وستظل دائما إن شاء الله ، بفضل الله ، ثم بفضل أولئك الذين وفقهم الله ، لإقامة حدود الله ، وإن شريعة الله تتفق مع فطرة الله التي فطر الناس عليها، ففيها الأمن والأمان والهدوء والأطمئنان .

لقد أرسى أساسا متينا للإصلاح الاجتماعى الذى هو الغاية العظيمة من جهاد تلك السنين الطويلة الشاقة، والمتاعب الجسام . التى وفقه الله فتغلب عليها، فلم يهن، ولم يضعف، بل ظل على حيويته ونشاطه، وابتساماته العريضة التى يقابل بها جميع الناس، وصدرة الذى شرحه الله دائما فهو الهاش الباش لجميع الذين يلقاهم ويلقونه، فإذا رأيت له لحظات غاضبا، فإنما غضبه الله وفى الله .

والحمد لله لقد تحطى عقبتين كؤدتين ومشكلتين عظيمتين هما الهجر والأمن والأطمئنان، فاستحق عن جدارة أن يلقب بالمصلح والرائد الاجتماعى فى العصر الحديث .

(١) صحيفة الأهرام فى ١٦/١١/١٩٣٠م .

(٢) تحفة المستفيد فى القديم والجديد ص ١٢٤-١٢٥ .

ولقد واصل الإصلاح بتفكيره المنطلق، وعقله الواعي، وإيمانه الأكيد، وآماله العريضة، لجلب كل ما يدخل السعادة على هذه الأمة التي قاست مئات السنين، فكانت ريادته للنهضة الاجتماعية والعمرائية والاقتصادية والثقافية .

كان - رحمه الله - في أول الأمر يفكر من أين يبدأ؟ وما الطريق الذي يسلكه؟ ومن أين له بالمال الكثير الذي به يبني وعليه يقيم ما يرجو ويتمنى .

لقد أدى ما وجب عليه تجاه الله سبحانه وتعالى، وأن الله لن ينساه أبداً، فقد كان دائم التوكل عليه، وسيظل مادام فيه عرق ينبض، وأنه مازال يذكر فضله ونعمته عليه، ولا ينسى حينما كان في مكة، وهو مخيم في محلة «الشهداء» وقد فقد ما أدرج من مؤن وأقوات، ولاح شبح الجوع أو كاد، وأحس من معه بما عليه الحال، فضاقت صدور الرجال، حين قلّ المال، أما عبد العزيز فكان مطمئناً إلى أن الله لن ينساه، وسيرزقه من حيث لا يعرف ولا يفكر، فكان حينما يسأل عن هذا، يقول :

المؤن متوفرة في نجد، غير أن الجمال مشيها وثيد . . . من شاء الرحيل فليرحل أما أنا فمقيم . والفرج من عند الله .

لقد كانت ثقته بالله عظيمة، وتوكله عليه أقوى وأشد، فلم يأت المساء، حتى وصلت قافلة يتقدمها اسماعيل بن مبيريك أمير رابع . وكان الشريف حسين قد قتل أخاه، فلما علم بما صارت إليه الأمور في مكة، وإقامة عبد العزيز بها، جاءه بفروض الطاعة، ومعه عشرون جملاً تحمل التمر والسمن والبر وكان هذا رزقاً ساقه الله إليه^(١).

إن الله لا ينسى عباده المخلصين، وقد كان عبد العزيز من أخلص الخلق لله تعالى، فهو يتوكل عليه حق توكله، ولا بد أن الله سيرزقه من حيث لا يعلم، وسوف تفتح له أبواب من الرزق ليس عليها بواب .

وقد كان، فقد فتحت له كنوز الأرض، على حين كان يشغله أمر البلاد والعباد .

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ . (الطلاق : ٢-٣) .

﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً . ذلك أمر الله أنزله إليكم . ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ . (الطلاق : ٤-٥) .

(١) شبه الجزيرة العربية ج ٢ ص ٥٨٤ .

﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله، لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاه سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾ . (الطلاق : ٧) .

فكانت سعادته الفائقة في أن يصرف كل ما يصل إليه على هذه الأمة، فقد زاد المال ونما، وأدخل الله الخير على هذه البلاد، وقد يكون كل هذا بسبب دعاء رجل واحد .
ولكن الملك عبد العزيز لم يغير شيئا من عاداته، ولا من مأكله ومشربه وملبسه حتى آخر نفس من حياته المباركة .

قال طيبه أمين رويحة : «لقد اشتدت عليه أزمة المرض في أواخر أيامه - رحمه الله - ورضى عنه : طلبنا إلى جلالته أن يستلقى في سريره للاستراحة، لأن بقاءه مستويا على الكرسي لا يؤمن له الراحة الضرورية للقلب .

أجاب ابن سعود على طلبنا بقوله : ما يخالف هاتوا السرير .

فتوجه الخادمان اللذان يتوليان خدمته الخاصة . . . فجلبا السرير . . . سرير الملك العظيم، فنصباه في الغرفة، وبالعظمة ما رأيت!! إنه سرير من خشب عادى متواضع، وفراش محشوب بالقش صلب قاسى، وفوقه غطاء صوفى، ووسادة من النوع ذاته .

ذلك هو مضع ذلك البطل الكبير الذى لا يكتسى إلا بثوب بسيط من القطن، وقد كان يستطيع بما وهبه الله من جاه ومال ومنزلة في القلوب ألا يكتفى بتوسد الفراش الوثير فحسب، بل حبات القلوب أيضا، وأن يحوط نفسه بالخدم والحشم والممرضات ليلا ونهارا، ولكنه عبد العزيز المتقشف الذى لا تأخذه بها رج الحياة^(١) .

راح - رحمه الله - يبحث عن وسائل الرقى والنهوض بهذه الأمة، فما عرف شيئا فيه مصلحة إلا دعا إليه، ولا عرض عليه أحد رجالته موضوعا صالحا إلا ناقشه ونفذه، ولم يكن متعجلا في طريقة الإصلاح، بل كان كعادته يفضل التؤدة والتأني وتعرف استعداد الشعب لما يريد من الإصلاح .

كان يعتقد أنه بهذه الطريقة سيأتى اليوم الذى تبلغ به الجزيرة أسمى آيات التقدم والرقى في ظل عقيدة التوحيد، وقد كان . . . فما نرى شيئا من النهضة العظيمة في جميع المجالات إلا وهو يدين بالفضل لبانيها ومؤسسها المصلح العظيم - رحمه الله - . إن النهضة

(١) عبد العزيز للمؤرخ الألماني الكبير (اكوبرت فون ميكوس). ترجمة أمين رويحة ص ٢٨٢ .

الإصلاحية التي قام بها هذا الرجل الكبير تحتاج إلى مجلدات ضخمة ولكن نورد بعضاً منها لنستدل به على العقلية الموهوبة، والمتفتحة على كل معالم الحياة بلا حدود، والضاربة بعمقها في كل المجالات، والمحوطة بالرعاية والتوفيق من الله .

كانت البلاد مترامية الأطراف، بعيدة الأماكن والبلاد، ووسائل الاتصال بها بطيئة، فأمر رحمه الله بربط أجزاء البلاد بعضها ببعض بشبكة من المحطات اللاسلكية فكانت وحدة متقاربة الأطراف والثغور، يستطيع أن يتصل بها في أي وقت بالليل أو النهار، وفي دقائق معدودة .

وقد سمح - وهو راض مسرور - للرعية بأن يستعملوا السيارات، وأن يقتنوها ويسيروا بها في طول البلاد وعرضها ولقد كانت من قبل ذلك محرمة، فلم يسمح لأحد من أفراد الرعية باقتنائها أو الاستفادة منها .

وكان - رحمه الله - قد ركب السيارة لأول مرة عام ١٣٤٤ هـ . ورأى فوائدها في تقريب المسافات، فلم يستقل بها، بل سمح لجميع أفراد الشعب باستخدامها، فدخل في البلاد السيارات بأنواعها وأحجامها .

ولقد أنشئت في عهده إدارات عامة للصحة والشرطة والأوقاف والبريد والبرق واللاسلكي، وأنشئت كذلك مديرية للشئون العسكرية، ومديرية للشئون الخارجية، والمديرية العامة للزراعة، وشكلت المحاكم الشرعية، وبيوت المال، وكتاب العدل، والمجالس التجارية وكذلك مؤسسة للنقد العربي السعودي .

أعفى جميع المواد الغذائية، ومواد البناء وغيرهما من الرسوم الجمركية، وقام بشراء الآلات الزراعية الحديثة، ووزعها على الفلاحين للنهوض بالزراعة، ولقد أهتم بالتعليم، ففتح كثيراً من المدارس المتنوعة، واهتم بالمعاهد الدينية، والمكتبات العامة، وأرسل البعثات العلمية إلى الخارج، للاسهام في النهضة التعليمية، وأنشأ - رحمه الله - المستشفيات والمستوصفات في المدن الكبيرة، وأنشأ المراكز الصحية في طريق الحجاج، وأدخل نظام التطعيم، وصرف الدواء بالمجان^(١) .

(١) تاريخ المملكة العربية السعودية للدكتور حسن سليمان محمود وسيد محمد إبراهيم ص ٨٤-٨٥، وكتاب التوكل على الودود عبد العزيز آل سعود لمحمد منير البديوي ص ٢٤٨-٢٤٩ .

هذا قليل من كثير في داخل البلاد، فقد عاش لخدمة شعبه ورعايته، ولم يمر يوم إلا وفيه جديد، مما يعود على البلاد بالخير العميم .

ولقد نادى الملك عبد العزيز بتأليف لجنة عام ١٩٣٧م تضم عدة شخصيات عربية مخلصه، تعمل على وضع الأسس لتوحيد الجهود لما فيه خير الأمة العربية، وطالب بإنقاذ فلسطين، وله في ذلك مواقف حاسمة، وآراء ناضجة، ووسائل سليمة .

ولقد أسهم في تأسيس جامعة الدول العربية، ونادى بالتضامن الإسلامي، واشترك في منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥م، وعاون كذلك في حل كثير من المشكلات في الشرق الأوسط .

هذه لمحات من حياة رجل من رجال الإسلام، ضرب الله لنا به مثلاً أعلى في عصرنا الحاضر، وبعد مضي أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان على رسالة سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، ضرب به المولى سبحانه وتعالى مثلاً على دوام صحة التمسك بشريعته الغراء، وعلى إمكان تنفيذ حق الله وحق العباد كما جاء به إمام المرسلين ﷺ، والله خلق عباده وهو أعلم بما ينفعهم، ويعود عليهم بالخير العميم، فكان ذلك خير شاهد، وانصع دليل على أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان .

وما زال - ولا يزال - إن شاء الله - ما وضع أساسه الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود واستمده من كتاب الله وسنة رسوله شامخ البنيان، واضح المعالم، جزل العطاء، مضاعف الثمرات، من الراحة والأطمئنان والهدوء النفسي والرزق الرغد، والتقدم في جميع المجالات، وفوق كل هذا، إخلاص العبادة لله ومضاعفة الشكر والحمد لله المنعم الوهاب .

فهلا قرأ حكام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تلك السيرة العطرة، ووعوا ما قام به صاحبها رحمه الله، وهلا تدبروا إخلاصه وحبه لله، فاقتدوا به في أقواله وأفعاله، وسلكوا طريقه، واهتدوا بما اهتدى به مما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى، وسنة رسوله ﷺ، وعمل به الصحابة والتابعون رضي الله عنهم أجمعين .

هلا عرفوا ذلك ؟ وفعلوا مثل ما فعل هو ومن سبقه على هذا الدرب !!
لوعرفوا ذلك، لكان فيه قوة للمسلمين في هذا الزمان المملوء بالكيء للإسلام،
ولأصبحنا قوة يقدرها الناس حق قدرها .

فبدل أن يشرق بعضنا، ويغرب آخرون . ونجرب وراء السراب ونتوه في دروب التبعية
والاستغلال، الأمر الذى جر علينا الوبال، وبؤنا فيه بالخسران، وأصبحنا قنطرة يعبر فوقها
أعداء الإسلام إلى ما يريدون تحقيقه، وهذا ضد أهدافنا وآمالنا وديننا ودياننا، بدل كل هذا
الضياع أمامنا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيها كل ما نريد، ولا فائدة أن نخترع كتباً تستمد
من الأفكار المجردة، البعيدة عن الكتاب والسنة، وليست إلا سراباً بقية يحسبه الظمان ماء
حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

لقد كان الملك عبد العزيز رحمه الله عنواناً لهذا الدين بما علم وعمل وقدم، فجزاه الله
خير الجزاء، ورفع منزلته مع النبيين والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقاً .

المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - مع عاهل الجزيرة لعباس محمود العقاد .
- ٣ - حياة محمد . لمحمد حسين هيكل دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة عشر .
- ٤ - سيرة الرسول ﷺ للإمام محمد بن عبد الوهاب .
- ٥ - شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز آل سعود لخير الدين الزركلى .
- ٦ - كتاب آل سعود لأحمد على . دار العباد بيروت ١٩٥٧ م :
- ٧ - صقر الجزيرة لأحمد عبد الغفور عطار .
- ٨ - المصحف والسيف جمع وإعداد محي الدين القابسى - الرياض المطابع الأهلية .
- ٩ - المتوكل على الودود عبد العزيز آل سعود . لمحمد منير البديوى . الرياض
١٣٩٧هـ .
- ١٠ - الإصلاح الاجتماعى في عهد الملك عبد العزيز . د . عبد الفتاح حسن أبو
عيلة . مطبوعات دار الملك عبد العزيز ١٣٩٦هـ .

- ١١ - الإمام العادل الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود - السيد عبد الحميد الخطيب . مصطفى البابي الحلبي مصر ١٩٥١م .
- ١٢ - نجد وملحقاتها . لأمين الريحاني .
- ١٣ - تاريخ الحجاز . لحسين محمد نصيف . القاهرة . مطبعة خضير .
- ١٤ - عنوان المجد في تاريخ نجد . لعثمان بن بشر . مطابع القصيم بالرياض .
- ١٥ - تحفة المستفيد في القديم والجديد . مطابع الرياض ١٣٧٩هـ .
- ١٦ - عبد العزيز للمؤرخ ا . افون ميكوس . ترجمة أمين رويحة .
- ١٧ - الأمن في المملكة العربية السعودية . لواء يحيى عبد الله المعلمي . ١٣٩٨هـ .
- ١٨ - تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها . ج ٢ بيروت مكتبة الحياة .
- ١٩ - المملكة العربية السعودية بقلم خالد السديري دار الكتاب العربي . بيروت ١٩٠٧م .
- ٢٠ - تاريخ ملوك آل سعود . . . سعود بن هذلول .
- ٢١ - تاريخ المملكة العربية السعودية للدكتور حسن سليمان محمود . دار الثناء للطباعة . مصر .

عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال :

كنا نسير مع رسول الله ﷺ في سفر فكنا إذا اشرفنا على واد هللنا وكبرنا وارتفعت أصواتنا .

فقال النبي ﷺ :

« يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنه معكم إنه سميع قريب » . . .

ظاهرة التقاص في النحو العربي

للكاتب الدكتور محمد أبو السعود
أستاذ مشارك بكلية اللغة العربية بالجامعة

التقاص أسلوب من أساليب العرب، وطرفة من طرفهم، وملحة من ملح كلامهم، فهو يكسب التراكم طلاوة، والقواعد دقة، والقياس شمولا، واتساعا، واللغة مرونة وتداخلا، والكلام إحالة وتبادلا، وقد أشار إليه بعض النحاة^(١) في مصنفاتهم، ولم يتناولوه تناول شمول وإحاطة، ولكن تعرضوا له تعرض إيماء وإشارة.

لذلك رأيت أن أعرض هذه الظاهرة عرضاً يوقفنا عليها، ويجليها ويطلعنا على دورها في الأساليب، ويجدر بنا أن نعرفها لغة واصطلاحاً ونستعين بالله تعالى فنقول:

التقاص لغة: مأخوذ من القص، والقصاص لغة فيه، وهو القتل بالقتل، أو الجرح بالجرح، أو القطع بالقطع. وفي القاموس^(٢) قاصصته مقاصة وقصاصا إذا كان لك عليه دين مثل ما له عليك، فجعلت الدين في مقابلة الدين، مأخوذ من اقتصاص الأثر، ومثل ذلك المعنى في المصباح والمختار.

وفي اللسان والتاج والمحكم^(٣): التقاص: هو التناصف في القصاص.

قال الشاعر:

فرمنا القصاص وكان التقا ص حكما وعدلا على المسلمينا

فالمادة تدور حول معنى القطع والتتبع.

(١) ابن جنى في سر الصناعة ص ٥٠، وابن الأنباري في مشور الفوائد ص ٧٥. والسيوطي في الأشباه ١/ ١٣٤ وغيرهم.

(٢) القاموس (قصص)، والمصباح ٥٠٥ والمختار ٥٣٨.

(٣) اللسان والتاج (قصص) والمحكم ٦/ ٦٦.

واصطلاحاً : هو أن تأخذ الكلمة حكماً من أخرى أخذت مثله منها تلك الكلمة الأخرى .

وبعبارة أخرى : أن تتبادل الكلمتان حكماً خاصاً بهما . بمعنى أن تعطى كل منهما الأخرى حكماً مساوياً لما أخذته منها .

وقد تتأتى هذه الظاهرة بين ألقاب الإعراب ، وفي إبدال بعض الحروف من بعض ، وفي زيادة بعض الحروف .

أولاً : تحقيقها بين ألقاب الإعراب :

أما ورودها بين ألقاب الإعراب فقد تحقق بين الجر والنصب حيث جاء الجر محمولاً على النصب فيما لا ينصرف لشبهه بالفعل في وجود العلتين الفرعيتين أو علة تقوم مقامهما .

كما حمل النصب على الجرفي جمع المؤنث السالم ، وفي التثنية ، وجمع المذكر السالم طلباً للمقاصة^(١) .

أما نصب جمع المؤنث بالكسرة فهو تابع للجر إجراء للفرع على وتيرة الأصل الذي هو جمع المذكر السالم ، فإن النصب فيه تابع للجر ، لأنه لو لم يحمل نصبه على جره للزم مزية الفرع على الأصل^(٢) .

وأما نصب المثني فقد جاء بالياء حملاً على الجر ، لأنه يجر بالياء .

وأما حمل النصب على الجرفي جمع المذكر السالم كما في التثنية فلأنك لو قلبت الواو ألفاً في النصب لأفضى ذلك إلى الالتباس بالمثني المرفوع^(٣) .

وإنما حمل النصب على الجر دون الرفع ، لوجود مناسبة بينهما في وقوع كل منهما فضلة في الكلام^(٤) ، ولأنه يشبهه في الافتقار إلى العامل اللفظي^(٥) ، ولأن الفتحة إلى الكسرة أقرب من الضمة إليها فحمل على الأقرب منه^(٦) .

وقد علل أبو علي الفارسي هذه الظاهرة في هذا المقام تعليلاً حسناً حيث بين أن

(١) الأشباه والنظائر ١/١٣٥ .

(٢) حاشية الصبان ١/١٠٣ .

(٣) شرح الألفية لابن الناظم ص ١٥ .

(٤) المسائل العسكرية للفارسي ١٥٣ وابن الناظم ١٣ ، والتصريح ١/٧٩ والجامي على الكافية ١٨ .

(٥) التوطئة للشلوبيني ١٣٠ .

(٦) التصريح ١/٨٤ .

موافقة الجر نصب فيما لا ينصرف ، كموافقة نصب الجر في التثنية والجمع فليس الاتفاق للبناء ، وإنما هو لاجتماع النصب والجر في كونها فضلتين ، وفي كونها كاملتين بعد استعمال الجملة المتضمنة للفعل ، أو معنى الفعل بجزئها اللذين هما الحدث والمحدث عنه ، ومن ثم اتفقا أيضا في باب الضمير (١) .

ومما يقوى هذه الظاهرة ويؤكد تحقيقها في هذا الموضوع وجود شبه بين علامة كل من النصب والجر . فالفتحة تشبه الكسرة وإن اختلف موضعها . كما أن الياء لا يتغير وضعها سواء أكانت علامة للجر ، أم علامة للنصب ، وإن اختلفت حركة ما قبلها وما بعدها في التثنية والجمع .

ثانيا : في إبدال بعض الحروف من بعض :

١ - إبدال الهمزة من الهاء :

من حروف الإبدال القياسى الهمزة والهاء ، لأنهما من حروف (هدأت موطيا) وهما يتبادلان الإبدال ، بمعنى أن الهاء قد تبدل همزة ، كما أن الهمزة قد تبدل هاء .

فإبدال الهمزة من الهاء يكون في الاسم والحرف .

فإبدالها من الهاء في الاسم جاء في قولهم : ماء وشاء (٢) . والأصل موه وشوه . قلبت الواو ألفا ، وأبدلت الهمزة هاء .

وكذلك جاء في الجمع . قالوا في جمع ماء : أمواء ، والأصل أمواه ، وإذا ثبت أن أصلها هاء ، ثبت أن الهمزة مبدلة عنها قال الشاعر :

وبلدة قالصة أمواؤها ما صحة رأد الضحى أفيأؤها (٣)

والدليل على أن هذه الهمزة مبدلة من الهاء ، رجوعها في التصغير والتكثير ، قالوا في تصغير ماء مؤيه ، وفي جمعه مياه وأمواه . والتصغير والتكثير يردان الأشياء إلى أصولها .

وقد أكد ابن عصفور إبدال الهمزة من الهاء بقوله : «وإنما جعلت الهاء هي الأصل ،

(١) العسكريات ١٥٣ .

(٢) انظر سر الصناعة ١١٣/١ . والتبصرة ٨١٥ وشرح المفصل لابن الحاجب ٣٩٦/٢ . والمتع ٣٤٨/١ وابن يعيش ١٥/١٠ والأشباه والنظائر ١٣٥/١ والأشمنوني والصبان ٢١٣/٤ ، ٢٢٣ .

(٣) سر الصناعة ١١٣/١ وشرح الشافية ١٠٨/٣ والمتع ٣٤٨/١ وابن يعيش ٣٩٦/٢ .

لأن أكثر تصاريف الكلمة عليها، قالوا : أمواه ومياه وماهت الركبية^(١). إلى غير ذلك من تصاريفها^(٢).

وكذلك ورد إبدال الهمزة من الهاء في قولك : (آل)^(٣)، وأصل آل : أهل فأبدلت الهاء همزة فقييل : آل، ثم أبدلت الثانية ألفا لسكونها إثر فتح فقييل : آل، كما قالوا آدم وآخر في الاسم، وآمن وآثر في الفعل، والأصل : آدم والآخر، وآمن وآثر .

والدليل على أن أصل آل : أهل قول الجماعة في التصغير : أهيل، ولو كانت الألف منقلبة عن غير هاء - أى عن واو - لقييل في تصغيره (أويل). وقد اختار هذا الرأي يونس^(٤).

ومما يؤكد أن الهمزة في (آل) أصلها هاء الإضافة إلى الضمير، فقد قالوا أهلك وأهله كثيرا، لأن الضمير يرد الأشياء إلى أصولها. ولا يقال : آلك وآله إلا قليلا، وذلك مثل قول عبد المطلب جد النبي ﷺ :

وانصر على دين الصلي ب وعابديه اليوم آلك^(٥)
وقول الآخر :

أنا الرجل الحامي حقيقة والدى وآلى كما تحمى حقيقة آلكا^(٦)
ونحو قول الكنانى : «رجل من آلك وليس منك»^(٧).

وجاء إبدال الهمزة من الهاء - أيضا - في اسم الإشارة حيث إنهم قالوا في هذا آذا . وجاء على ذلك قول الشاعر :

فقال فريق : آ آذا إذ نحوتهم نعم وفريق لا يئمن الله ما ندرى^(٨)
أراد : أهذا، فقلبت الهاء همزة، ثم فصل بين الهمزتين بألف، وأبدلت كذلك في غير اسم الإشارة، مثل قولهم : الأزل والهزل، وهو مأزول ومهزول^(٩).

وأما إبدالها في الحرف فقد ورد في : هل وهلا . فقالوا : أل فعلت كذا؟ يريدون هل

(١) ماهت : ظهر ماؤها وكثر .

(٢) الممتع ٣٤٨/١ .

(٣) انظر التصريف الملوكي ٣٩ . وسر الصناعة ١١٤/١ والإبدال والمعاقبة والنظائر للزجاجي ٢٩ والممتع ٣٤٨/١ .

(٤) التصريف الملوكي ٣٩ .

(٥) الممتع ٣٤٩/١ والدرر اللوامع ٦٢/٢ وتاج العروس (أهل) .

(٦) الممتع ٣٤٩/١ .

(٧) المصدر السابق ٣٥٠/١ .

(٨) الكتاب ١٤٧/٢ وسر الصناعة ١٣٠/١ والممتع ٣٥١/١ والإنصاف ٤٠٧ والإبدال والمعاقبة ص ٣٠ والمغنى ١٠١ .

(٩) الإبدال والمعاقبة ص ٣٠ .

فعلت كذا؟ حكى ذلك قطرب^(١) عن أبي عبيدة . وقالوا : ألا فعلت يريدون هلاً فعلت .
والإبقاء على الأصل في (هل) هو الأكثر، بيد أن الهمزة والهاء في ألا وهلا سواء .
وقد عدّهما بعض النحويين^(٢) من حروف التحضيض ، كما ذهب غيرهما إلى أنهما
مادتان مستقلتان^(٣) . فالهمزة أصلية في (ألا) كما أن الهاء أصلية في (هلاً) بخلاف (هل وأل)
فإن الاستفهام بهما ليس على درجة واحدة ، لكثرة الاستفهام ووضوحه بهل ، وندرته بأل .
وجاء إبدال الهمزة من الهاء - في غير ما تقدم - على قلة في اسم الفعل^(٤) . قالوا في
هيهات : أيها .

فإبدال الهمزة من الهاء إبدال قياسي ، وهما من مخرج واحد . وكونهما من مخرج واحد
جدير بأن يقوى هذا الإبدال ويؤكد .

قال الصيمري : «قلبت الهاء همزة ، لأنها من مخرج الهاء ، وهي أقوى منها في
الصوت»^(٥) .

ولكن ابن يعيش^(٦) ذهب إلى أن هذا الإبدال إنما تم لضرب من التقاص . وذلك
لكثرة إبدال الهاء من الهمزة على العكس .

وذلك أمر يقتضينا الإشارة إلى إبدال الهاء من الهمزة - عكس ما تقدم - حتى نلم
بأطراف المسألة . ونؤكد الظاهرة التي ارتضاها ابن يعيش .

٢ - إبدال الهاء من الهمزة :

ذهب ابن الأنباري وابن عصفور وابن يعيش إلى أن الهاء تبدل من الهمزة في مواضع
كثيرة من كلام العرب^(٧) . وهذا الإبدال وارد في الاسم والفعل والحرف .

(أ) إبدالها في الاسم :

أما إبدالها في الاسم فقد ورد في : إياك . قالوا : هياك . قال الشاعر :

فهيالك والأمر الذي إن توسعت موارده ضاقت عليك مصادره^(٨)

(١) الممتع ٣٥١/١ .

(٢) ابن النحويين في شرحه للمفصل ٣٩٦/٢ .

(٣) انظر حاشية الصبان ٢٢٣/٤ .

(٤) أمالي ثعلب ٥٤٧ وابن يعيش ١٥/١٠ والمزهر ٤٧٣/٢ والأشباه والنظائر ٣٩٧/١ .

(٥) التبصرة والتذكرة ص ٨١٥ .

(٦) شرح المفصل ١٥/١٠ .

(٧) انظر الإنصاف ١٣١ . والممتع ٣٩٧/١ وشرح المفصل ١١٨/٨ والأشباه والنظائر ١٣٥/١ .

(٨) التصريف المملوكي ٤٤ . والوجيز ٥٤ والإنصاف ١٣١ وشرح المفصل ١١٨/٨ والممتع ٣٩٧/١ .

وقال الآخر: (١)

يا خال هلا قلت إذ أعطيتنى هياك هياك وحنواء العنق^(٢)
كما ورد قولهم : هِبْرِيَّة، والأصل فيه : إِبْرِيَّة، وهو الحزاز في الرأس .
وقالوا في مهيمن، أصله : مؤيمن فأبدلت الهمزة هاء^(٣).

(ب) إبدالها في الفعل :

وأما إبدالها في الفعل فقد ورد في قولهم : أنرت الثوب، وأرحت الماشية وأرقت الماء،
وأردت الشيء، فأبدلوا في الجميع الهاء من الهمزة فقالوا : هنرت الثوب، وهرحت الماشية،
وهرقت الماء، وهردت الشيء. وذلك لاتفاقها مخرجا لأنها من أقصى الحلق^(٤).

(ج) إبدالها في الحرف :

وأما إبدالها في الحرف فقد ورد في همزة إنَّ المؤكدة، وإنَّ الشرطية، وأيا في النداء، وفي
همزة الاستفهام، وإليك بيان ذلك .

جاء إبدال الهاء من همزة إنَّ المشددة المكسورة مع اللام. وذلك على طريق اللزوم
حيث قالوا : يهَنَّك قائم، قال الشاعر :

ألياسنا برق على قُلِّلِ الحُمَى لَهْنِكَ من برق عَلَى كريم^(٥)

وكذلك أبدلت من همزة (إنَّ) الشرطية^(٦) مثل قولهم : هِنُ فعلت. تريد : إنَّ فعلت.
وهي لغة طيء^(٧).

وأما إبدالها من همزة (أيا) في النداء ففي قولهم : هيا وأيا، وإن كان أيا أكثر من هيا.
قال الشاعر :

وانصرقت وهي حَصَان مُغْضَبَه ورفعت بصوتها هَيَا أبه^(٨)

(١) انظر الإبدال السكيت ٢٥ والوجيز ٥٣ والإنصاف ١٣١.

(٢) حنواء العنق : التي تميل عنقها من الإبل والغنم.

(٣) التصريح ٣٦٨/٢.

(٤) الإنصاف ١٣٢.

(٥) انظر مجالس ثعلب ١١٣ والخصائص ٣١٥/١ والمتع ٣٩٨/١ وابن يعيش ٤٢/١٠ واللسان (لهن).

(٦) أنظر شرح الشافية ٢٢٢/٣ والمتع ٣٩٧/١.

(٧) الفصل للزحشري ص ٣٧٠.

(٨) المتع ٣٩٩/١.

وإبدالها من همزة الاستفهام في مثل قولهم : هَزَيْدٌ منطلقٌ . يريدون : أزيد منطلق .
وأنشد الفراء :

وأتى صواحبها فقلن : هذا الذى منح المودة غيرنا وجفانا^(١)
يريدون : إذا الذى . بإبدال الهاء من الهمزة . فإبدال الهاء من الهمزة مقصور على
السمع - كما بينا - غير أن ابن يعيش^(٢) جعله كثيراً ، وقاس عليه إبدال الهمزة من الهاء ،
وجعله ضرباً من التقاص . أى أن كل واحد منهما أخذ حكماً أخذه منه الآخر . فإبدال الهمزة
من الهاء ، تم لأن الهاء أبدلت من الهمزة . فكل منهما فعل بالآخر مثل ما فعل الآخر به ، وهذا
الضرب هو الذى عرف لدى النحاة بالتقاص ، وارتضوه سمة لهذه الظاهرة ، ومصطلحاً لهذه
القاعدة .

٣ - قلب الهمزة واواً :

تبين لنا مما تقدم أن ظاهرة التقاص تتأتى في إبدال الهمزة من الهاء ، وإبدال الهاء من
الهمزة . ونبين الآن ورودها بين الواو والهمزة ، ويتحقق ذلك في إبدال كل منهما من الآخر .
فالهمزة تقلب واواً ، كما أن الواو تقلب همزة ، ويتضح ذلك على النحو التالي :

(أ) قلب الهمزة واواً :

تبدل الهمزة واواً في عدة مواضع هي (٣) :

١ - أن تكون الهمزة للتأنيث ، فإنها تبدل واواً باطراد على سبيل اللزوم في التثنية
والجمع بالألف والتاء والنسب . فتقول في صحراء وعشراء ونفساء : صحراويين وعشراويين
ونفساويين ، وصحراوات وعشراوات ونفساوات ، وصحراويّ وعشراويّ ونفساويّ .

٢ - أن تكون الهمزة قبل الألف في الجمع الذى لا نظير له في الأحاد ، بشرط أن
يكتنف ألف الجمع همزتان ، وذلك نحو : ذوائب في جمع ذؤابة . أصله ذائب ، فأبدلت
الهمزة واواً هروياً من ثقل اجتماع الهمزتين والألف ، وهذا الإبدال اطرادى لازم .

٣ - أن تقع الهمزة لأمّاً لجمع على مفاعل وقد سلمت في المفرد ، وذلك مثل : هراوة ،
قالوا في جمعه هراوى ، بإبدال الهمزة واواً ليشاكل الجمع مفرده .

٤ - أن تلتقى همزتان في كلمة وتسكن الثانية بعد ضم . فإنها يجب إبدالها واواً . وذلك

(١) انظر ابن يعيش ٤٣/١٠ وشرح الشافية ٢٢٤/٣ والممتع ٣٩٩/١ .

(٢) ابن يعيش ٤٣/١٠ .

(٣) انظر سر الصناعة ١٠٤ وما بعدها والتصريف الملوكى ٣٨ والتبصرة ٨١٤ والإنصاف ٤٧٧ والممتع ٣٦٣/١ والتصريح

٣٧٢/٢ والأشباه والنظائر ١٣٥/١ والأشمونى ٢١٤/٤ .

نحو: أو من وأوثر. والأصل: أو من وأوثر. إلا أنه رفض الأصل هروبا^(١) من اجتماع همزتين .

٥ - أن تكون الثانية مضمومة مطلقا. أى سواء انضم ما قبلها أو انفتح أو انكسر، أو تكون مفتوحة بعد فتح أو ضم. وذلك مثل: أوْمٌ، وأوْمٌ وإوْمٌ. والأصل: أوْمٌ، وأوْمٌ، وإوْمٌ. ومثل أوَيْدِم تصغير آدم. وأوادم جمع آدم. والأصل: أوَيْدِم وأوادم. فأبدلت الثانية في الجميع واواً. وهذا الإبدال قياسى مطرد لازم .

(ب) قلب الواو همزة :

تقدمت مواضع قبل الهمزة واواً، وأمر هذه المسألة يحتم علينا ذكر المواضع التى تبدل فيها الواو همزة حتى ينكشف وجه هذه الظاهرة، ونصل إلى النتيجة التى نرجوها .

ومن المقرر فى هذا الباب^(٢) أن الواو تقلب همزة فى خمسة مواضع :

١ - أن تتطرف إثر ألف زائدة مثل: كساء وسماء ودعاء. والأصل: كساو وسماو ودعاو .

٢ - أن تقع عينا لاسم فاعل فعل ثلاثى أعلنت عين فعله نحو: صائم وقائم، والأصل: صاوم وقاوم .

٣ - أن تقع مدة ثلاثية زائدة فى المفرد إذا كان جمعه على مثال مفاعل . نحو: عجائر ورعائف جمعى عجوز ورعوفة، والأصل عجاوز ورعاوف .

٤ - أن تقع ثانى لينين اكتنفها ألف مفاعل مثل: أوائل وسيائد. والأصل: أواول وسياوود فى جمع أول وسيد .

٥ - أن تتصدر فى الكلمة واوان . فإن الأولى منها تقلب همزة بشرط أن لا تكون الثانية منها مدة غير أصلية، أى: أن تكون الثانية غير مدة وذلك نحو قولك فى جمع الأولى أنثى الأول أوّل. والأصل: وُوّل ونحو ذلك فى جمع واصلة وواقية تقول: أواصل وأواق، والأصل: وواصل، ووواق .

أو تكون الثانية مدة أصلية نحو: الأولى أنثى الأول. أصلها وولى بواوين أولاهها فاء، والثانية عين ساكنة .

(١) ينظر الممتع ١/ ٣٦٦ .

(٢) أى باب الإبدال والإعلال .

هذه هي مواضع قلب الواو همزة، وقد تقدمت مواضع قلب الهمزة واواً .
وقد تم هذا القلب المتبادل بين الواو والهمزة على طريق المقاصة . لأن الهمزة وإن لم تكن من حروف العلة، فهي شبيهة بالألف، ولهذا عدها بعض الصرفيين (١) من حروف العلة .

وأيا ما كان فإن الألف أخف حروف العلة، وكذلك ما أشبهها وهو الهمزة بخلاف الواو فإنها أثقلها .

فاللجوء - حينئذ - إلى قلب الواو همزة لجوء إلى التخفيف، لأنه انتقال من الثقل إلى الخفة . بخلاف العكس، وهو قلب الهمزة واواً . لأنه انتقال من الخفيف إلى الثقيل .

لهذا كان قلب الهمزة واواً في نحو صحراء وعشراء ونفساء في التثنية والجمع بالألف والتاء، والنسب (٢)، انتقال من الخفة إلى الثقل، لأن الهمزة أخف من الواو - كما علمنا - ولكن ذلك تم على سبيل التقاص .

فكما أن الواو قلبت همزة . كذلك أبدلت الهمزة واواً على طريق المبادلة والمقاصة، نظراً لتحقيق الشبه بينهما، بسبب أن الهمزة شبيهة بالألف وهي حرف علة .

بيد أن ابن «فلاح» جعل هذه الظاهرة (٣) متحققة بإبدال الهمزة واواً في الجمع بالألف والتاء فقط . في مثل صحراء وصحراوات . أى أنه قصر المقاصة على جمع المؤنث السالم، اقتصاصاً من قلب الواو همزة .

ونحن إذ نقدر لابن فلاح جهده في الإشارة إلى هذه الظاهرة، وفيما ذهب إليه . نرى أنه لا ضير من جعل المقاصة شاملة لكل المسائل التي تقلب فيها الهمزة واواً، اطراداً للقاعدة، وشمولاً للظاهرة، وتثبيتاً للقياس، وتعميماً للمصطلح، وتوسعاً في أساليب اللغة، لأنها - بلاشك - تقبل ذلك ولا تضيق به .

(١) رضي الدين الإستراباذي في شرحه للشافية أول باب الإعلال ٣ / ٧٩ .

(٢) المتع ٣٦٣ / ١ .

(٣) الأشباه والنظائر ١ / ١٣٥ .

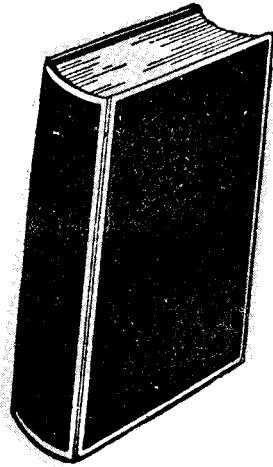
ثالثاً : في زيادة بعض الحروف :

من المقرر أن - اللام ألف - أصلها الألف التي هي مَدَّة ساكنة ، ولكنها دُعِمَت باللام قبلها متحركة ليتمكن الابتداء^(١) بها ، وليصح النطق كما صح بسائر الحروف غيرها . لأن الساكن لا يمكن الابتداء به .

وإنما دُعِمَت باللام قبلها ولم تُدَعَمْ بهمزة الوصل التي يؤتى بها توصلاً إلى النطق بالساكن ، لأنه لا يمكن الإتيان بها قبل الألف ، ولأن ذلك يؤدي إلى نقض الغرض الذي قصدوا له ، لأن همزة الوصل قد تأتي مكسورة ، ولو كسرت لانقلبت الألف ياءً مكسورة لانكسار ما قبلها .

فيقال : (أى) فلا تصل إلى الألف التي اعتمدت^(٢) عليها ، فلما لم يجز ذلك ، عدلوا إلى اللام دون غيرها ، لأن العرب توصلوا إلى النطق بلام التعريف بزيادة الألف قبلها ، توصلاً إلى النطق بها ، فحركوا الألف فصارت همزة ، وجعلوها همزة^(٣) وصل نحو : الغلام والفرس والجارية . فلما افتقرت الألف إلى حرف جىء باللام قبلها في (لا) توصلاً إلى النطق بالألف الساكنة ليكون ذلك ضرباً من التقاص والتعويض بين الحرفين فصار لا .

وبالله التوفيق . . .



(١) سر صناعة الإعراب ٤٨ / ١ ومنتور الفوائد لابن الأنباري ص ٧٥ .

(٢) سر الصناعة ٤٩ / ١ .

(٣) منتور الفوائد ٧٥ .

عُقُودُ الرَّبِّ جَدَّ عَلِيٍّ مُسْتَدْرَأًا لِمَا أَمَدَّ

فِي إِعْرَابِ الْحَدِيثِ

تأليف:

تحقيق:

الدكتور حسن موسى الشاعري

جلال الدين السيوطي

أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية بالجامعة

(١)

تمهيد :

أولاً : جلال الدين السيوطي (١) :

لقد أعاننا السيوطي في معرفة سيرة حياته وشيوخه ومؤلفاته ؛ إذ ترجم لنفسه في كتابه حُسن المحاضرة، عند الكلام على من كان بمصر من الأئمة المجتهدين . قال : « وإنها ذكرت ترجمتي في هذا الكتاب اقتداء بالمحدثين قبلي ، فقل أن ألف أحد منهم تاريخاً إلا ذكر ترجمته فيه . . . » .

(١) انظر ترجمة السيوطي ومؤلفاته : حسن المحاضرة للسيوطي ١/٣٣٥-٣٤٤ .

ترجمة جلال الدين السيوطي لتلميذه الداودي / مخطوطة بمكتبة عارف حكمت رقم ١٧٣ مجاميع .

البدر الطالع للشوكاني ١/٣٢٨ .

الضوء اللامع للسخاوي ٤/٦٥ .

الكواكب السائرة للغزالي ١/٢٢٦ .

شذرات الذهب لابن العماد ٨/٥١ .

السيوطي وجهوده في الدراسات اللغوية- رسالة ماجستير أعدها الأستاذ محمد يعقوب تركستاني بجامعة أم القرى .

فهرست مؤلفات السيوطي / مخطوطة بمكتبة عارف حكمت رقم ١٧٣ مجاميع .

مكتبة الجلال السيوطي - تأليف أحمد الشرفاوي جلال الدين السيوطي - بحوث أقيمت في الندوة التي أقامها المجلس الأعلى

لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية / الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٨ م .

الأعلام للزركلي ٤/٧١ .

معجم المؤلفين - عمر كحالة ٥/١٢٨ .

تدريب الراوي للسيوطي / المقدمة .

حياته وشيوخه :

هو أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد بن سابق الدين . . . الخضيرى الأسيوطى الشافعى .

نسب إلى أسيوط، مدينة معروفة بمصر. وأما نسبة «الخضيرى» فيرجح السيوطى أنها نسبة إلى محلة ببغداد، وقد قيل إن جدّه الأعلى كان أعجمياً أو من الشرق .

ولد السيوطى بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة ٨٤٩هـ وتوفي والده سنة ٨٥٥هـ وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر، وكان قد وصل في حفظ القرآن الكريم إلى سورة التحريم، فنشأ يتيماً، وأسندت وصايته إلى جماعة منهم كمال الدين بن الهمام . حفظ القرآن الكريم وله دون ثماني سنين، ثم حفظ العمدة، ومنهاج الفقه والأصول، وألفية ابن مالك .

وشرع يشتغل بالعلم من مستهل سنة ٨٦٤هـ فلزم كثيراً من شيوخ عصره، وأجيز بتدريس العربية في مستهل سنة ٨٦٦هـ وبدأ بالتأليف في هذه السنة، فكان أول شيء ألفه شرح الاستعاذة والبسملة، وأوقف عليه شيخه علم الدين البلقيني فكتب عليه تقریظاً، ولزمه في الفقه إلى أن مات سنة ٨٦٨هـ ولزم في الفقه أيضاً شيخ الإسلام شرف الدين المناوي آخر علماء الشافعية المتوفى سنة ٨٧١هـ وقرأ على الشمس السيرامي صحيح مسلم إلا قليلاً منه، والشافا، وألفية ابن مالك، وقطعة من التسهيل وأجازه بالعربية وغيرها .

ولزم في الحديث والعربية شيخه تقى الدين الشمني الحنفي المتوفى سنة ٨٧٢هـ فواظبه أربع سنين وكتب له تقریظاً على شرح ألفية ابن مالك «البهجة المرضية» وعلى تأليفه «جمع الجوامع في العربية» .

ولزم شيخه العلامة محيي الدين الكافيجى أربع عشرة سنة حتى مات وذلك من سنة ٨٦٥-٨٧٩هـ وأخذ عنه التفسير والأصول والعربية والمعاني .

وقد سافر السيوطى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب، ولما حجّ شرب من ماء زمزم لأمر : منها أن يصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر .

ولما بلغ السيوطى أربعين سنة ترك التدريس والإفتاء وتجرّد للعبادة، وشرع في تحرير مؤلفاته، ثم قطع صلته بالحياة العامة واعتكف بمنزله في جزيرة الروضة بالمنيل، ولم يتحول

عنها إلى أن مات في سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ رحمه الله تعالى .

مصنفاته :

قضى السيوطى حياته في تحصيل العلم والدرس والتصنيف ، وتنوعت ألوان ثقافته حتى صار إماماً في كثير من العلوم .

قال في كتاب حسن المحاضرة^(١) : «ورزقت التبهر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنقول التي اطلعت عليها فيها ، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخي ، فضلاً عن دونهم . وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شيخي أوسع نظراً وأطول باعاً . ودون هذه السبعة في المعرفة : أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الإنشاء والترسل والفرائض ، ودونها القراءات - ولم أخذها عن شيخ - ودونها الطب . وأما علم الحساب فهو أعسر شيء عليّ وأبعده عن ذهني ، وإذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنها أحاول جبلاً أحمله .

«وقد كملت عندي آلات الجهاد بحمد الله تعالى ، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً ، وأي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيله بالفخر ، وقد أزعج الرحيل ، وبدأ المشيب ، وذهب أطيب العمر . ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرتُ على ذلك من فضل الله ، لا بحولي ولا بقوتي فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله .

«وقد كنت في مبادئ الطلب قرأت شيئاً في علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهته في قلبي ، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك ، فعوضني الله تعالى عنه علم الحديث الذي هو أشرف العلوم» .

وقد ترك السيوطى عدداً ضخماً من المصنفات في أكثر الفنون ما بين مجلدات ورسائل صغيرة وقد ذكر في كتابه حسن المحاضرة أن مؤلفاته إلى ذلك الوقت بلغت ثلاثمائة كتاب سوى ما غسله ورجع عنه^(٢) .

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٣٨ .

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٣٣٨ .

وللسيوطي رسالة خاصة فهرس فيها مؤلفاته ورتبها على الفنون^(١). وقد أحصيت مؤلفاته فيها فبلغت ٥٥٢ مؤلفاً .

وقد عمل الأستاذ أحمد الشرقاوي إقبال كتاباً ضخماً لمؤلفات السيوطي رتبه على حروف المعجم وسماه «مكتبة الجلال السيوطي» قال في مقدمته : أحصيت في هذا الفهرست التأليف السيوطية، فكانت ٧٢٥ عدداً، أخرجت منها الطباعة نيفاً ومائتين . . .

ثانياً : الكتب المصنفة في إعراب الحديث :

النحاة والحديث :

الحديث النبوي أصل من أصول النحو، ومصدر من مصادره السماعية، ولكن الناظر في كتب النحو يملكه العجب وهو يرى قلة احتجاج النحاة بالحديث وكثرة استشهادهم بالشعر. وقد غلب هذا الاتجاه على النحاة الأوائل، وقلدهم من جاء بعدهم. ثم اختلف موقف النحاة بعد؛ فمنهم من قويت عنايته بالحديث والاحتجاج به كابن الطراوة (٥٢٨ هـ) والزخشي (٥٣٨ هـ) والسهيلي (٥٨١ هـ) وابن خروف (٦١٠ هـ) وابن يعيش (٦٤٣ هـ)، وبلغ الأهتمام بالحديث أوجه عند ابن مالك الأندلسي (٦٧٢ هـ) الذي يعدّ إمام الاحتجاج بالحديث النبوي .

وقد لخص السيوطي مذهب ابن مالك في الاحتجاج فقال : «كان أمة في الاطلاع على الحديث، فكان أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى أشعار العرب»^(٢).

وهكذا مهّد ابن مالك السبيل لمن جاء بعده، فسار على دربه ابن هشام (٧٦١ هـ) والدماميني (٨٢٧ هـ) والأشموني (٩٢٩ هـ) وغيرهم .

ومن النحاة من تزعم منع الاحتجاج بالحديث، وأشهرهم اثنان : ابن الضائع (٦٨٠ هـ) وأبو حيان الأندلسي (٧٤٥ هـ)، وذلك لأمرين : أحدهما أن الرواة جوّزوا نقل

(١) فهرست مؤلفات السيوطي / مخطوط بمكتبة عارف حكمت رقم ١٧٣ مجاميع .

(٢) بغية الوعاة بتحقيق محمد أبو الفضل ١٣٤/١ .

الحديث بالمعنى ، والثانى أن كثيراً من رواية الحديث كانوا غير عرب بالطبع فوقع اللحن فى نقلهم^(١) .

وقد رجح معظم المتأخرين مذهب ابن مالك فى الاحتجاج بالحديث ، وذلك لشدة عناية المحدثين برواية الحديث وورعهم فى نقله ، وتمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها ، بعد الجهد العظيم الذى بذله علماء الحديث .

ومن العجيب أن الإمام السيوطى ، وهو صاحب المصنفات الكثيرة فى الحديث ، ذهب إلى عدم الاحتجاج بالحديث فيما خالف القواعد النحوية ، وصحح مذهب ابن الضائع وأبى حيان . فقال فى كتابه الاقتراح : وأما كلامه ﷺ فيستدل منه بما ثبت أنه قاله على اللفظ المروي ، وذلك نادر جداً ، إنما يوجد فى الأحاديث القصار على قلة أيضاً» فإن غالب الأحاديث مروى بالمعنى ، وقد تداولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها ، فرووها بما أدت إليه عباراتهم ، فزادوا ونقصوا ، وقدموا وأخروا ، وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ . ولهذا ترى الحديث الواحد فى القصة الواحدة مروياً على أوجه شتى بعبارات مختلفة ، ومن ثم أنكروا على ابن مالك إثباته القواعد النحوية بالألفاظ الواردة فى الحديث»^(٢) .

وكرر السيوطى هذا الرأي فى كتابه همع الهوامع فقال :

« . . . وقد بينت فى كتاب أصول النحو من كلام ابن الضائع وأبى حيان أنه لا يستدل بالحديث على ما خالف القواعد النحوية ، لأنه مروى بالمعنى لا بلفظ الرسول ، والأحاديث رواها العجم والمولدون لا من يحسن العربية ، فأدوها على قدر ألسنتهم»^(٣) .

كما ذكر السيوطى هذا الرأي أيضاً فى كتابه عقود الزبرجد حيث قال :

«اعلم أن كثيراً من الأحاديث روتها الرواة بالمعنى ، فزادوا فيها ونقصوا ، ولحنوا وأبدلوا الفصيح بغيره ، ولهذا تجد الحديث الواحد يروى بألفاظ متعددة ، منها ما يوافق الإعراب والفصيح ، ومنها ما يخالف ذلك» .

ثم ينقل السيوطى كلام ابن الضائع وأبى حيان فى هذا المجال .

(١) راجع موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث - فى الفصل الثانى من كتابنا النحاة والحديث النبوي .

(٢) الاقتراح ص ١٦ .

(٣) همع الهوامع ٤٢/٢ بتحقيق د . عبد العال سالم .

التصنيف في إعراب الحديث :

لقد كان لهذه المواقف المتضاربة من النحاة أن قلّ التصنيف في إعراب الحديث، فلا نجد كتباً متخصصة في إعراب الحديث غير ثلاثة كتب : الأول للعكبري، والثاني لابن مالك، والثالث للسيوطي .

قال السيوطي في مقدمة كتابه «عقود الزبرجد» :

« . . . وبعد فقد أكثر العلماء قديماً وحديثاً من التصنيف في إعراب القرآن ولم يتعرضوا للتصنيف في إعراب الحديث سوى إمامين : أحدهما الإمام أبو البقاء العكبري . . . والثاني الإمام جمال الدين بن مالك . . . وقد استخرت الله تعالى في تأليف كتاب في إعراب الحديث مستوعب جامع . . . »

وفيما يلي وصف لهذه المصنفات :

(١) إعراب الحديث النبوي - للإمام العكبري (٥٣٨-٦١٦ هـ) :

أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين العكبري الأصل، البغدادي المولد والدار، الفقيه الحنبلي الحاسب الفرضي النحوي الضرير^(١).

برع أبو البقاء في فنون كثيرة وله مصنفات عديدة منها : إعراب القرآن واللباب في علل البناء والإعراب، وشرح الإيضاح والتكملة لأبي علي الفارسي، وشرح المفصل للزمخشري وغيرها .

وقد صنف أبو البقاء العكبري أول كتاب في إعراب الحديث^(٢)، وأعتمد في أخذ الأحاديث على كتاب جامع المسانيد لابن الجوزي (٥٩٧ هـ) الذي جمع فيه مصنفه غالب مسند أحمد وصحيح البخاري ومسلم والترمذي .

قال أبو البقاء في مقدمته :

« أما بعد فإن جماعة من طلبة الحديث التمسوا مني أن أملي مختصراً في إعراب ما يشكل من الألفاظ الواقعة في الأحاديث، وأن بعض الرواة قد يخطيء فيها، والنبوي ﷺ

(١) أنظر ترجمته في : الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١٠٩/٢، نكت الهميان للصفدي ١٧٨، الذيل على الروضتين لأبي شامة ١٩٩، انباه الرواة للقفطي ١١٦/٢، وفيات الأعيان لابن خلكان ١٠٠/٣، بغية الوعاة ٣٨/٢، شذرات الذهب ٦٧/٥ معجم الأدباء ٤٦/٦، البداية والنهاية ٨٥/١٣، الأعلام ٢٠٨/٤ .

(٢) حققت هذا الكتاب مع دراسة بعنوان «النحاة والحديث النبوي» وحصلت بهما على درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر بإشراف أستاذنا الدكتور أحمد كحيل . وقد طبعت الكتابين في عمان .

وأصحابه بريئون من اللحن، فأجبتهم إلى ذلك، واعتمدت على أتمّ المسانيد وأقرها إلى الاستعياب وهو جامع المسانيد للإمام الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، رحمه الله، مرتبة على حروف المعجم، والله الموفق للصواب .

ومجموع الأحاديث التي تعرّض العكبري لإعرابها نحو ٤٣٠ حديثاً، كان يستشهد عليها بالقرآن والشعر، وقد يتعرض للخلافات النحوية، وقد يذكر العكبري للرواية أكثر من إعراب. وإذا خرجت الرواية عن المؤلف في كلام العرب ولم يجد لها وجهاً في قواعد النحاة حكم العكبري عليها باللحن .

(٢) إعراب الحديث - للإمام ابن مالك الأندلسي (٦٠٠-٦٧٢هـ):

أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجبلي النحوي اللغوي المقرئ المحدث الفقيه الشافعي^(١). من أشهر مصنفاته: الكافية الشافية وشرحها، التسهيل وشرحه - لم يتم، الخلاصة الألفية في النحو والصرف، شرح عمدة الحافظ وعمدة الالفاظ .

وقد صنف ابن مالك كتاباً في إعراب الحديث سماه: «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح»^(٢). وهو يقوم على إعراب مشكلات وقعت في صحيح البخاري. ويتضح فيه منهج ابن مالك في الاحتجاج بالحديث النبوي، واستنباط القواعد النحوية منه، ويستدل للأحاديث بالقرآن والشعر، ويخطئ النحويين في عدد من المسائل. وهو بذلك يتميز عن منهج العكبري الذي كان يلحن الرواية أحياناً لمخالفتها قواعد النحاة .

(٣) إعراب الحديث - للإمام السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ):

صنف السيوطي كتاباً ضخماً في إعراب الحديث سماه: «عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد» اعتمد فيه غالباً على مسند الإمام أحمد، وضم إليه كثيراً من كتب الحديث. قال في مقدمته:

«... وقد استخرت الله تعالى في تأليف كتاب في إعراب الحديث، مستوعب جامع... وأجعله على مسند أحمد مع ما أضمه إليه من الأحاديث المزيّدة، وأرتبه على حروف المعجم في مسانيد الصحابة، وأنشئ له من بحار كتب العربية كل سحابة...»

(١) أنظر ترجمته في: بغية الوعاة ١/١٣٠، البداية والنهاية ١٣/٢٦٧، نفع الطيب بتحقيق محمد محي الدين ٢/٤٢١، طبقات النحاة واللغويين لابن قاضي شهبة ١٣٣، التسهيل / التمهيد.

(٢) حققه محمد فؤاد عبد الباقي، وطبع في القاهرة ١٣٧٦هـ ١٩٧٧م.

وهكذا رتب السيوطي كتابه على الطريقة التي رتب فيها العكبري كتابه . والسيوطي مطلع على إعراب الحديث للعكبري وإعراب الحديث لابن مالك فينقل أقوالهما في إعراب الحديث ويزيد عليها بما يعن له وما يراه من الأقوال الأخرى . فيقول :

«قد أوردت جميع كلام أبي البقاء معزواً إليه ، ليعرف قدر ما زده عليه ، وتتبع ما ذكره أئمة النحو في كتبهم المبسوطة من الأعراب للأحاديث فأوردتها بنصها معزوة إلى قائلها» .

والسيوطي - كعادته - جماعة للآراء لا يكاد يغفل عن نقل رأي منها له قيمته في إعراب الحديث ، ولا نكاد نجد له دوراً في الإعراب إلا نادراً .

وأهم المصادر التي اعتمد عليها السيوطي في إعراب الحديث :

١ - إعراب الحديث للعكبري ، وقد صرح بنقله جميع كلامه .

٢ - إعراب الحديث لابن مالك .

٣ - شرح الطيبي على مشكاة المصابيح للتبريزي .

٤ - شروح صحيح البخاري للكرماني ، والزرکشي ، والخطابي ، وابن حجر .

٥ - شروح صحيح مسلم للقاضي عياض ، والقرطبي ، والنووي .

٦ - شرح الكافية الشافية لابن مالك .

٧ - أقوال النحاة واللغويين في مصنفاتهم كالزنجشيري في المفصل ، والرضي في شرح الكافية ، والأندلسي في شرح المفصل ، وابن يعيش في شرح المفصل ، والجوهري في الصحاح ، والزنجشيري في الفائق ، وابن الأثير في النهاية في غريب الحديث .

وقد اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب على ثلاث نسخ خطية ، الأولى في دار الكتب المصرية ، والثانية في أيا صوفيا ، والنسخة الثالثة في الخزانة العامة بالرباط . وقد بذلت جهداً كبيراً في تقويم النص والتعليق عليه ، وتوثيق الآراء والنقول ، وتخريج الأحاديث .

وقد آثرت تقديم مادة الكتاب على طريقة النص المختار ، واستبعدت الفروق بين النسخ ، لعدم حاجة القارئ إليها ، إلى أن يأذن الله بإتمام الكتاب ، وإعادة طبعه كاملاً .
ومن الله العون وبالله التوفيق . . .

كتاب

عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد

في إعراب الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة الكتاب]

رَبِّ يَسَّرْ وَأَتَمِّمْ بِخَيْرٍ فَأَنْتَ كَرِيمٌ . . .

الحمد لله الذي خصَّ هذه الأمة بالإِسْنَادِ وَالْإِعْرَابِ، وَصَلَّى اللهُ عَلَيْنَا مُحَمَّدٍ

وَالْأَلِّ وَالْأَصْحَابِ .

وَبَعْدُ :

فقد أكثر العلماء قديماً وحديثاً من التصنيف في إعراب القرآن، ولم يتعرضوا للتصنيف في إعراب الحديث سوى إمامين : أحدهما الإمام أبو البقاء العكبري، فإنه لما أَلَّفَ إعراب القرآن المشهور^(١) أَرَدَفَهُ بِتَأْلِيفٍ لَطِيفٍ فِي إِعْرَابِ الْحَدِيثِ، أورد فيه أحاديث كثيرة من مسند أحمد وأعرابها، إلا أنه لاختصاره، ونزرة ما أورد فيه من النزر القليل، لا يروى الغليل، ولا يشفى الغليل .

والثاني الإمام جمال الدين بن مالك، فإنه أَلَّفَ فِي ذَلِكَ تَأْلِيفاً خَاصاً بِصَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، يَسْمَى «التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح» .

وقد استخرت الله تعالى في تأليف كتاب في إعراب الحديث، مستوعب جامع، وغيث على رياض كتب المسانيد والجامع هامع^(٢)، شامل للفوائد البدائع شافٍ . كافلٍ بالنقول والنصوص كاف، أنظم فيه كلَّ فريدة، وأسفر فيه النقاب عن وجه كل خريدة^(٣) وأجعله على مسند أحمد مع ما أضَمَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَزِيدَةِ، وَأَرْتَبَهُ عَلَى حُرُوفِ الْمَعْجَمِ فِي مَسَانِيدِ الصَّحَابَةِ، وَأَنْشَأَ لَهُ مِنْ بَحَارِ كِتَابِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّ سَحَابَةٍ .

واعلم أن لي على كلِّ كتاب من الكتب المشهورة في الحديث تعليقة؛ وهي الموطأ^(٤)،

(١) مطبوع باسم «إملاء ما من به الرحمن» . وقد حققه على الجاوى وطبعه باسم «التبيان في إعراب القرآن» .

(٢) هامع أي ماطر .

(٣) الخريدة : البكر التي لم تُمَسَسَ . (القاموس) .

(٤) للسيوطي «تنوير الحوالك على موطأ الإمام مالك» مطبوع .

ومسند الشافعي (١)، ومسند أبي حنيفة (٢)، والكتب الستة (٣) ولم يبق إلا مسند أحمد. ولم يمنعني من الكتابة عليه إلا كبر حجمه جداً، وعدم تداوله بين الطلبة كتداول الكتب المذكورة، وقدّرت التعليقة عليه تجيء في عدة مجلدات، والتعليق التي كتبها لا تزيد التعليقة منها على مجلد.

فلما شرح الله صدرى لتصنيف هذا الكتاب، عرّفته بمسند أحمد، عوضاً مما كنت أرومه عليه من التعليقة، ولكونه جامعاً لغالب الحديث المتكلم على إعرابه. فإن شئت فسّمه «عقود الزبرجد على مسند أحمد» وإن شئت فقل «عقود الزبرجد في إعراب الحديث» ولا تتقيّد.

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، موجباً للفوز بجنات النعيم، إنه البرّ الرحيم . . .

مقدمة

[في الاستشهاد بالحديث]

اعلم أن كثيراً من الأحاديث روتها الرواة بالمعنى، فزادوا فيها ونقصوا، ولحنوا، وأبدلوا الفصيح بغيره، ولهذا تجد الحديث الواحد يروى بألفاظ متعددة، منها ما يوافق الإعراب والفصيح، ومنها ما يخالف ذلك (٤).

وقد قال الحافظ فتح الدين بن سيد الناس (٥): إذا ورد الحديث على وجهين ما يوافق الفصيح وما يخالفه، فالموافق للفصيح هو لفظ النبي ﷺ لأنه لم يكن ينطق إلا بالفصيح.

(١) للسيوطي «الشافعي على مسند الشافعي».

(٢) للسيوطي «التعليقة المنيفة على مسند أبي حنيفة».

(٣) للسيوطي عليها: التوشيح على الجامع الصحيح، والديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، ومرقاة الصعود إلى سنن أبي داود، وقوت المغتذي على جامع الترمذي، وزهر الربى على المجتبى، ومصباح الزجاجية على سنن ابن ماجه.

(٤) ذكر السيوطي رأيه هذا في كتابه الاقتراح، ثم نقل فيه كلام ابن الضائع وأبي حيان. أنظر الاقتراح ص ١٦-١٩. وراجع هذه المسألة بالتفصيل في كتابنا «النحاء والحديث النبوي».

(٥) فتح الدين بن سيد الناس: الإمام العلامة فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الأندلسي المصري الشافعي، ولد سنة ٦٧١ هـ لازم ابن دقيق العيد وتخرج عليه وأخذ العربية عن البهاء النحاس. صنف السيرة الكبرى والصغرى. مات فجأة سنة

وقد نقل هذا الكلام عن المزمى (١).

قال أبو عاصم العبادي (٢) - من متقدمى أصحابنا - فى طبقاته : قال المزمى : لا يروى فى الحديث خطأ ، فإن النبى ﷺ أفصح العرب ، فلا يجوز أن يروى خطأ .

وقال أبو الحسن بن الضائع (٣) - بالضاد المعجمة - فى شرح الجمل (٤) :

«تجوز الرواية بالمعنى هو السبب عندى فى ترك الأئمة كسيبويه وغيره الاستشهاد على إثبات اللغة بالحديث ، واعتمدوا فى ذلك على القرآن وصریح النقل عن العرب . ولولا تصریح العلماء بجواز النقل بالمعنى فى الحديث لكان الأولى فى إثبات فصیح اللغة كلام النبى ﷺ ، لأنه أفصح العرب» .

قال : «وابن خروف (٥) يستشهد بالحديث كثيراً فإن كان على وجه الاستظهار والتبرك بالمرورى فحسن ، وإن كان يرى أن من قبله أغفل شيئاً وجب عليه استدراكه فليس كما رأى .»

وقال أبو حيان (٦) فى شرح التسهيل (٧) :

«قد أكثر ابن مالك من الاستدلال بما وقع فى الأحاديث على إثبات القواعد الكلية فى لسان العرب ، وما رأيت أحداً من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره . على أن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو بن

(١) أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزمى المصرى (١٧٥-٢٦٤هـ) كان إماماً ورعاً زاهداً ، معظمها بين أصحاب الشافعى ، حدث عن الشافعى ونعيم بن حماد وغيرهما . من مصنفاته : المبسوط ، الجامع الكبير ، الجامع الصغير ، المختصر . أنظر : طبقات الشافعية للسبكي ٩٣/٢ ، طبقات الشافعي للأسنوي ٣٤/١ .

(٢) محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن عباد (٣٧٥-٤٥٨هـ) كان إماماً مفنناً مناظراً . من تصانيفه : المبسوط ، طبقات الفقهاء . أنظر : طبقات الشافعية للسبكي ١٠٤/٤ ، طبقات الشافعية للأسنوي ١٩٠/٢ .

(٣) أبو الحسن على بن محمد المعروف بابن الضائع ، بلغ العناية فى النحو ولازم الشلوين ، وفاق أصحابه بأسرهم . ومن مصنفاته : شرح جهل الزجاجي . توفى سنة ٦٨٠هـ . أنظر بغية الوعاة ٢٠٤/٢ .

(٤) أنظر شرح الجمل لابن الضائع / مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٩ نحو ج ٢ ورقة ٧٢ .

(٥) أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن خروف الأندلسي ، أخذ النحو عن ابن طاهر المعروف بالحدب . أقرأ النحو بعدة بلاد . من مصنفاته : شرح كتاب سيبويه ، شرح الجمل توفى سنة ٦٠٩هـ . أنظر بغية الوعاة ٢٠٣/٢ .

(٦) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطى ، نحوى عصره ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه . من مصنفاته : البحر المحيط ، التذييل والتكميل فى شرح التسهيل ، ارتشاف الضرب من لسان العرب ، توفى سنة ٧٤٥هـ . أنظر بغية الوعاة ٢٨٠-٢٨٥/١

(٧) أنظر التذييل والتكميل / مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦٢ نحو ج ٥ ورقة : ١٦٨-١٧٠ .

العلاء^(١)، وعيسى بن عمر^(٢)، والخليل، وسيبويه من أئمة البصريين، والكسائي^(٣)، والفراء^(٤)، وعلى بن المبارك الأحمر^(٥)، وهشام الضرير^(٦) من أئمة الكوفيين، لم يفعلوا ذلك. وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الأقاليم، كنحاة بغداد وأهل الأندلس. وقد جرى الكلام في ذلك مع بعض المتأخرين الأذكياء فقال: إنما ترك العلماء ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ﷺ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن في إثبات القواعد الكلية. وإنما كان ذلك لأمرين:

أحدهما: أن الرواة جوّزوا النقل بالمعنى فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه ﷺ لم تقل بتلك الألفاظ جميعها. نحو ما روى من قوله «زوجتكها بما معك من القرآن» «ملككتها بما معك» «خذها بما معك» وغير ذلك من الألفاظ الواردة في هذه القصة، فعلم يقيناً أنه ﷺ لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ، بل لا نجزم أنه قال بعضها. إذ يحتمل أنه قال لفظاً مرادفاً لهذه الألفاظ غيرها، فأنت الرواة بالمرادف، ولم تأت بلفظه ﷺ، إذ المعنى هو المطلوب، ولا سيما مع تقادم السماع، وعدم ضبطه بالكتابة، والاتكال على الحفظ، والضابط منهم من ضبط المعنى، وأما ضبط اللفظ فبعيد جداً، لا سيما في الأحاديث الطوال. وقد قال سفيان الثوري: إن قلت لكم إني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني، إنما هو المعنى. ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين أنهم إنما يروون بالمعنى.

الأمر الثاني: أنه وقع اللحن كثيراً فيما روى من الحديث، لأن كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطبع، ولا يعلمون لسان العرب بصناعة النحو، فوقع اللحن في كلامهم، وهم لا يعلمون ذلك. وقد وقع في كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب، ونعلم قطعاً غير شك أن رسول الله ﷺ كان أفصح الناس، فلم يكن ليتكلم إلا بأفصح اللغات وأحسن

(١) أبو عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة المشهورين، كان إمام أهل البصرة في القراءات والنحو واللغة مات سنة ١٥٤هـ. أنظر بغية الوعاة ٢/٢٣١.

(٢) عيسى بن عمر الثقفي مولى خالد بن الوليد إمام في النحو والعربية والقراءة، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق. وصنف في النحو الإكمال والجامع، توفي سنة ١٤٩هـ. أنظر بغية الوعاة ٢/٢٣٧.

(٣) علي بن حمزة الكسائي، إمام الكوفيين في النحو واللغة، وأحد القراء السبعة المشهورين توفي سنة ١٨٢هـ أنظر بغية الوعاة ٢/١٦٣.

(٤) يحيى بن زياد أبوزكريا الفراء، كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، أخذ عنه وعن يونس. من مصنفاته: معاني القرآن، المقصور والممدود، المذكر والمؤنث. مات سنة ٢٠٧هـ. بغية الوعاة ٢/٣٣٣.

(٥) علي بن المبارك الأحمر صاحب الكسائي، كان متقدماً في النحو، واسع الحفظ. مات سنة ١٩٤هـ. بغية الوعاة ٢/١٥٨.

(٦) هشام بن معاوية الضرير النحوي الكوفي أحد أصحاب الكسائي. صنف مختصر النحو، الحدود، القياس. توفي ٢٠٩هـ. بغية الوعاة ٢/٣٢٨.

التركيب وأشهرها وأجزؤها، وإذا تكلم بلغة غير لغته فإنها يتكلم بذلك مع أهل تلك اللغة على طريق الإعجاز، وتعليم الله ذلك له من غير معلم.

وابن مالك قد أكثر من الاستدلال بما ورد في الأثر، متعقباً بزعمه على النحويين، وما أمعن النظر في ذلك.

(وابن المصنف رحمه الله كأنه موافق لأبيه في استدلاله بما روي في الحديث، فإنه يذكره على طريقة التسليم).

وقد قال لنا قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة. وكان ممن أخذ عن ابن مالك - قلت له : ياسيدي هذا الحديث رواية الأعاجم، ووقع فيه من روايتهم ما يعلم أنه ليس من لفظ الرسول. فلم يجب بشيء.

قال أبو حيان : وإنما أمعنت الكلام في هذه المسألة لثلاثي يقول مبتدئ : ما بال النحويين يستدلون بقول العرب وفيهم المسلم والكافر، ولا يستدلون بما روي في الحديث بنقل العدول كالبخاري ومسلم وأصراهما. فمن طالع ما ذكرناه أدرك السبب الذي لأجله لم يستدل النحاة بالحديث». انتهى كلام أبي حيان.

وقال القاضي عياض^(١) في شرح مسلم : قال الشعبي^(٢) : إذا وقع في الحديث اللحن البين يعرب. وقاله أحمد بن حنبل. قال : لأنهم لم يكونوا يلحنون. وقال النسائي^(٣) إن كان شيئاً تقوله العرب فلا يغير، وإن لم يكن من لغة قريش، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يكلم الناس بألسنتهم، وإن كان لا يوجد في كلام العرب فرسول الله ﷺ لا يلحن.

(١) القاضي عياض بن موسى اليحصبي عالم المغرب ولد بسنة ٤٧٦هـ. قال ابن خلكان : إمام الحديث في وقته وأعرف الناس بعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. ومن تصانيفه : «إكمال في شرح مسلم»، مشارق الأنوار في اقتفاء صحيح الآثار من الموطأ والصحيحين توفي سنة ٥٤٤هـ. أنظر تذكرة الحفاظ للذهبي ص ١٣٠٤-١٣٠٧.

(٢) الشعبي علامة التابعين، عامر بن شراحيل الهمداني الكوفي، مولده في أثناء خلافة عمر، كان إماماً حافظاً فقيهاً متقناً. . . أنظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٧٩/١.

(٣) الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن بن شعيب الخراساني صاحب السنن، ولد سنة ٢١٥هـ وتوفي سنة ٣٠٣هـ. برع في الحديث وتفرد بالانتقان وعلو الاسناد. سكن مصر، وكان أفقه مشايخ مصر في عصره وأعلمهم بالحديث والرجال. . . أنظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٦٩٨/٢.

فصل [في عزو الأقوال إلى أصحابها]

قد أوردت جميع كلام أبي البقاء معزوًا إليه، ليُعرف قدر ما زدته عليه، وتتبع ما ذكره أئمة النحو في كتبهم المبسوطة من الأعراب للأحاديث، فأوردتها بنصها معزوةً إلى قائلها، لأن بركة العلم عزو الأقوال إلى قائلها، ولأن ذلك من أداء الأمانة، وتجنب الخيانة، ومن أكبر أسباب الانتفاع بالتصنيف، لا كالسارق الذي خرج في هذه الأيام فأغار على عدة كتب من تصانيفي، وهي المعجزات الكبرى، والخصائص الصغرى، ومسالك الحنفاء، وكتاب الطيلسان وغير ذلك، وضم إليها أشياء من كتب العصرين، ونسب ذلك لنفسه من غير تنبيه على هذه الكتب التي استمد منها، فدخل في زمرة السارقين، وانطوى تحت ربة المارقين، فنسأل الله تعالى حسن الإخلاص والخلاص، والنجاة يوم يقال للمعتدين لات حين مناص .

وقد رمزت على كل حديث رمز من أخرجه من أصحاب الكتب الستة المشتهرة، وإن لم يكن فيها ولا في المسند صرحت بذكر من أخرجه من أصحاب الكتب المعتمدة .

فائدة

[هل يتعدى «سمع» إلى مفعولين؟]

يتكرر كثيراً في الحديث قول الراوي «سمعت رسول الله ﷺ يقول» وقد اختلف هل يتعدى «سمعت»^(١) إلى مفعولين؟

فجوزه الفارسي^(٢)، لكن لا بد أن يكون الثاني مما يُسمع، نحو: سمعت زيداً قال كذا. فلو قلت: سمعت زيداً أخاك، لم يجز .

(١) فصل البغدادى القول في استعمالات سمع في خزنة الأدب جـ ٩ ص ١٦٧-١٧٣ بتحقيق هارون .

(٢) أبوعلي الفارسي : الحسن بن أحمد عالم مشهور أخذ عن الزجاج وابن السراج، وعنه أخذ ابن جني، له مصنفات كثيرة منها: الإيضاح والتكملة، والحجة، والبغداديات والتذكرة. توفي سنة ٣٧٧ هـ. أنظر بغية الوعاة ١/٤٩٦-٤٩٧ .

والصحيح تعديّه إلى مفعول واحد، وما وقع بعده منصوباً فعلى الحال، والأول على تقدير مضاف، أي سمعت قول رسول ﷺ، لأن السمع لا يقع على الذوات، ثم بين هذا المحذوف بالحال المذكور، وهي يقول، وهي حال مبيّنة، ولا يجوز حذفها .

وقال الزمخشري^(١) في قوله تعالى : ﴿سمعنا منادياً﴾^(٢) : تقول سمعت رجلاً يتكلم، فتوقع الفعل على الرجل، وتحذف المسموع، لأنك وصفته بما يسمع، أو جعلته حالاً منه، فأغناك عن ذكره. ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بدّ وأن يقال : سمعت كلامه .

وقال الطيبي^(٣) : الأصل في «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول» : سمعتُ قول رسول الله، فأخر القول وجعل حالاً ليفيد الإبهام والتبيين. وهو أوقع في النفس من الأصل .

فائدة

[في قولنا «رضى الله عنه» و «رضوان الله عليه»]

سئل الإمام أبو محمد بن السيد البليوسي^(٤) عن قولنا : «رضى الله عنه ورضوان الله عليه» هل (عليه) هنا مبدلة من (عنه) كما يتبدل بعض الحروف من بعض، فيسوغ فيها على وعن، أم ليست مبدلة ؟

فأجاب : ليست (على) هاهنا ببدل من (عن) التي حكم (رضى) أن يتعدى بها، بدليل أن (عليه) قد صارت خبراً عن المبتدأ، ولو كانت بدلاً من (عن) لكانت من صلة الرضوان، ولم يصح أن يكون خبراً عنه، وعن مضمّن في الكلام، كأنه قال : رضوان الله عنه سابغ عليه، أو واقع عليه، ونحو ذلك .

(١) محمود بن عمر أبو القاسم جار الله وفخر خوارزم ولد سنة ٤٩٧هـ . وجاور بمكة، من مصنفاته : الكشاف في التفسير، المفصل في النحو، الفائق في غريب الحديث، أساس البلاغة . توفي سنة ٥٣٨هـ . أنظر بغية الوعاة ٢/٢٧٩-٢٨٠ .

(٢) آل عمران آية ١٩٣ . أنظر تفسير الكشاف ١/٤٨٩ .

(٣) الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبي : كان آية في استخراج الدقائق من القرآن والسنن، مقبلاً على نشر العلم . من

مصنفاته : شرح الكشاف، شرح مشكاة المصابيح . توفي سنة ٧٤٣هـ . أنظر بغية الوعاة ١/٥٢٢ .

(٤) عبد الله بن محمد بن السيد عالم باللغة والنحو والأدب . ومن مصنفاته : شرح أدب الكاتب، شرح الموطأ، شرح ديوان

المتنبي، إصلاح الخلل الواقع في الجمل . مات سنة ٥٢١هـ . بغية الوعاة ٢/٥٥ .

فائدة

[في إعراب غير]

سئل ابن الحاجب^(١) عن إعراب (غير) في قولهم: هذا الحديث لا نعلم أحداً رواه عن فلان غير فلان؛ أينصب غير أم يرفع؟.

فأجاب بما نصّه: إن جعلت (نعلم) متعدياً إلى مفعولين أحدهما (أحداً) والثاني (رواه)، كما نقول: ما أظن أحداً رواه غير فلان، وهو الظاهر، فالفصيح الرفع على البدل من الضمير المرفوع المستتر في (رواه) العائد على أحد، لأنه المنفى في لا نعلم.

ويجوز نصبه على الاستثناء، وهي قراءة ابن عامر^(٢)، ولا يجوز أن يرفع على أن يكون فاعلاً برواه، لأن في (رواه) ضمير فاعل عائد على أحد، فلا يستقيم أن يرفع به فاعل آخر.

فإن جعلت (نعلم) بمعنى نعرف المتعدي إلى واحد، كان (رواه) صفة له، كأنك قلت: لا نعرف راوياً غير فلان؛ تعين النصب، جعلته بدلاً أو استثناءً، كقولك: ما أكرمت أحداً راوياً غير زيد. فلا يجوز في (غير) إلا النصب.

نقلته من خط ابن الضائع في تذكّره، وهو نقله من خط ابن الحاجب.



(١) العلامة عثمان بن عمر المقرئ النحوي المالكي الأصولي الفقيه، من مصنفاته النحوية: الكافية وشرحها ونظمها، وفي التصريف الشافية وشرحها، وله الإيضاح في شرح المفصل، والأمال في النحو. توفي سنة ٦٤٦ هـ. أنظر بغية الوعاة ٢/١٣٤.

(٢) في قوله تعالى ﴿ما فعلوه إلا قليل منهم﴾ (سورة النساء ٦٦). قرأ السبعة غير ابن عامر بالرفع، وقرأ ابن عامر بالنصب «قليلًا»... أنظر التصريح ١/٣٥٠، تفسير القرطبي ٥/٢٧٠.



أختي العزيزة : « هل » :

هذه هي الرسالة الثالثة عشرة، وسوف أحدثك فيها عن همزة الاستفهام الداخلة على أداة الشرط «إن» في القرآن الكريم، لقد وردت هذه الهمزة في ثلاث آيات :

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾ . (الآية ١٤٤ من سورة آل عمران) .

تتضمن هذه الآية الكريمة أن محمداً ﷺ ما هو إلا رسول كغيره من الرسل الذين أرسلهم الله عز وجل إلى خلقه دعاة إليه وإلى طاعته ثم ماتوا وقبضهم الله إليه حين انقضت آجالهم، وبقي أتباعهم من بعدهم يلتزمون بما دعوا إليه، ومحمد مثله مثل أولئك الرسل جاء مبلغاً عن الله تعالى داعياً إليه وإلى طاعته، وسوف يموت ويقبضه الله إليه حين ينتهي أجله، وعلى أتباعه أن يلتزموا بما دعا إليه الجهاد في سبيل الله تعالى، والصبر على طاعته، فلا ينبغي لأولئك الذين آمنوا به وبصدق ما دعاهم إليه، لا ينبغي لهم أن يصيبهم الفرع والهلع فينكصوا على أعقابهم فراراً من المعركة حين قيل في معركة أحد إن محمداً قتل .

والله سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع، ولا تضره معصية من عصى، فالله جلّ وعلا غني عن العالمين، فمن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، وسيجزى الله الشاكرين الذين شكروا الله على نعمته عليهم بالإسلام، فجاهدوا في سبيله، وصبروا على طاعته، وصدقوا الله في الدفاع عن دينه، فثبتوا حتى انتهت المعركة أو استشهدوا فيها .

والشاكرون لفظ عام يندرج فيه كل شاكر فعلاً وقولاً وإن فُسر هنا بالمجاهدين الثابتين في معركة أحد .

وجاء الاستفهام في قوله تعالى : ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ جاء مفيدا العتب والإنكار : فقد عتب الله سبحانه وتعالى على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ أن يصيبهم الفزع والهلع وأن يفروا من المعركة حين قيل لهم في معركة أحد إن محمدا قتل ، عتب عليهم ذلك وأنكره ، فما كان ينبغي لهم أن يفعلوا ما فعلوا ، كان يجب عليهم أن يثبتوا في المعركة وأن يدافعوا عن هذا الدين الذي آمنوا به وبرسوله ، سواء أكان حيا أم ميتا ، فشرية الله لا تموت بموت الرسول الذي بلغها عن ربه ، ودعا الناس إليها ، فهي باقية إلى يوم القيامة يدافع عنها أتباعها الذين يؤمنون بها صادقين ، ويجاهدون في سبيلها حتى النصر أو الشهادة .

وإعراب هذا الاستفهام : ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ سهل واضح : فالفاء عاطفة ، عطفت الجملة الشرطية التي بعدها على الجملة الخبرية التي قبل الهمزة (مات) فعل الشرط فهوفي محل جزم بـ (إن) و(انقلب) جواب الشرط فهوفي محل جزم أيضا ، والجار والمجرور (على أعقابكم) في محل نصب حال من فاعل انقلبتم ، والتقدير انقلبتم راجعين .

وهذا الذي تقدم من أن همزة الاستفهام قد دخلت على «إن» الشرطية وقد استوفت شرطها وجزاءها هو مذهب سيبويه .

وذهب يونس إلى أن فعل (انقلبتم) ليس جواب الشرط ، وإنما هو الفعل المستفهم عنه ، فهو مدخول الهمزة فينوي به التقديم ، وتقدير الكلام عند يونس : أتقلبون إن مات أو قتل ، وجواب الشرط عنده محذوف دلّ عليه مدخول الهمزة المتأخر لفظا المتقدم تقديرا ، وعلى مذهبه تكون (إن) مع شرطها معترضة بين الهمزة ومدخولها ، ويرأي يونس أخذ كثير من المفسرين في هذه الآية .

ولكن أبا البقاء العكبري ذكر في كتابه «إملاء ما من به الرحمن» عند إعرابه هذه الآية أن مذهب سيبويه هو الحق لوجهين :

أحدهما : أنك لو قدمت الجواب لم يكن للفاء وجه ، إذ لا يصح أن تقول أتزورني فإن زرتك ، ومنه قوله تعالى : ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ .

والثاني : أن الهمزة لها صدر الكلام ، وإن لها صدر الكلام ، وقد وقعا في موضعها ، والمعنى يتم بدخول الهمزة على جملة الشرط والجواب لأنها كالشيء الواحد اهـ .

وقال الزركشي في كتابه البرهان : «وقد ردّ النحويون على يونس بقوله : (أفإن مت

فهم الخالدون)، ولا يجوز في (فَهُمْ) أن ينوى به التقديم لأنه يصير التقدير : «أفهم الخالدون فإن مت»، وذلك لا يجوز لئلا يبقى الشرط بلا جواب، إذ لا يتصور أن يكون الجواب يدل عليه ما قبله، لأن الفاء المتصلة بأن تمنعه من ذلك، ولهذا يقولون : «أنت ظالم إن فعلت»، ولا يقولون : «أنت ظالم فإن فعلت» فدل ذلك على أن أدوات الاستفهام إنما دخلت لفظاً وتقديراً على جملة الشرط والجواب». اهـ.

وجاء في شرح الرضي لكافية ابن الحاجب في النحو ما يؤيد قول العكبري وقول الزركشي .

وبناء على رأي سيبويه ومن ذهب مذهبه يكون مصبّ الاستفهام ومورده هو جملة الشرط والجواب معاً، وعلى رأي يونس يكون مصبّ الاستفهام ومورده هو جواب الشرط وإن لم يسمه يونس جواباً .

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ . الآية (٣٤) من سورة الأنبياء .

تتضمن هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه محمد ﷺ : لم نخلد أحداً من بني آدم قبلك يا محمد فنخلك أنت، فلا بدّ من أن تموت كما مات من كان قبلك، ولن يخلد الله أحداً في هذه الدنيا، فكل نفس ذائقة الموت، وهؤلاء المشركون الذين يتمنون موتك ليشتمتوا به هم ميتون على كل حال، فلا شهادة في الإمامة .

وهذا الاستفهام : ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ يفيد النفي والاحتقار : النفي على معنى لن يخلد الله تعالى هؤلاء المشركين في هذه الحياة الدنيا، فكل نفس ذائقة الموت . ويفيد الاحتقار على معنى إذا كنت أنت يا محمد على علو منزلتك وعظيم قدرك عند الله تعالى سوف تموت، أفيخلد الله تعالى هؤلاء المشركين وليس لهم من الفضل ما يزن مثقال ذرة!!

وإعراب هذا الاستفهام : ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ سهل واضح . فالفاء عاطفة عطفت الجملة الشرطية التي بعدها على الجملة الخبرية التي قبلها، و(مت) مؤلفة من (مات) وهو فعل ماضٍ في محل جزم فعل الشرط، ومن التاء ضمير المخاطب المبني على الفتح في محل رفع على الفاعلية، وجملة (فهم الخالدون) المؤلفة من الفاء الواقعة في جواب الشرط ومن المبتدأ أو الخبر في محل جزم جواب الشرط وقد قرئ فعل الشرط السابق (مت)

بضم الميم وكسرهما : فعلى قراءة الضم يكون الفعل على لغة مات يموت مثل صام يصوم وقام يقوم، وأصله : مَوْتٌ يَمُوتُ (بفتح الواو في الماضي وضمها في المضارع) من باب نصر ينصر.

وحيث أسند الفعل الماضي (مات) على هذه اللغة إلى ضمير الرفع المتحرك سُكِنَ آخره وحذفت الألف لالتقاء الساكنين، وُضِّمَت الميم للدلالة على أن الألف المحذوفة من هذا الفعل الماضي منقلبة عن واو .

وعلى قراءة كسر الميم (مِت) يكون الفعل على لغة مات يمات مثل خاف يخاف ونام ينام، والأصل : مَوْتٌ يَمُوتُ (بكسر الواو في الماضي وفتحها في المضارع) من باب علم يعلم، وحيث أسند هذا الفعل الماضي على هذه اللغة إلى ضمير الرفع المتحرك سُكِنَ آخره وحذفت الألف لالتقاء الساكنين، وكسرت الميم للدلالة على أن حركة الحرف الأصلي الذي انقلبت عنه الألف في الماضي كانت كسرة .

الآية الثالثة : في قوله تعالى : ﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون(١٣) إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون(١٤) قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون(١٥) قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون(١٦) وما علينا إلا البلاغ المبين(١٧) قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم(١٨) قالوا طائركم معكم أين ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون(١٩)﴾ . (الآيات : ١٣-١٩) من سورة يس .

تتضمن هذه الآيات الكريمة حواراً بين رسل أرسلهم الله تبارك وتعالى إلى أهل قرية لم يسمها كانوا يعبدون غيره، وبين أهل تلك القرية، وفي آخر هذا الحوار قال أهلها لأولئك الرسل : لقد كنتم شؤماً علينا ولأن لم تنتهوا عما تدعوننا إليه لنرجمنكم بالحجارة وليصينكم منا عذاب أليم، فقال لهم الرسل شؤمكم معكم وفيكم، فهذا الضلال الذي أنتم فيه هو شؤمكم، إن دعوناكم إلى الهدى ونهيناكم عن الضلال وبينا لكم فساد ما أنتم عليه، تشاءتمم بنا وتوعدتم وتهددتم؟! بل أنتم قوم مسرفون في الضلالة معنون في الغي .

وهذا الاستفهام : ﴿أإن ذكرتم﴾ يفيد الإنكار والتوبيخ : فقد أنكر الرسل على أهل القرية أن يتشاءموا منهم وأن يجعلوا من دعوتهم إلى عبادة الله وحده ونهيمهم عن عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، أن يجعلوا من ذلك طيرة وشؤماً، وكان ينبغي بدلاً من ذلك أن يفرحوا بقدومهم وأن يستجيبوا إلى ما دعواهم إليه، وأن يشكروا الله تعالى أن هداهم للإيمان .

لقد أنكر الرسل على أهل القرية ذلك ووبخوهم عليه ، وقالوا لهم في نهاية إنكار والتوبيخ : بل أنتم قوم مسرفون قد تجاوزتم الحد في الضلال والظلم والعدوان ، ومن هنا جاءكم الشؤم وأنزل الله بكم المصائب .

وإعراب هذا الاستفهام : ﴿أَنَّ ذُكِّرْتُمْ﴾ سهل واضح : ف (ذُكِّرَ) من ذُكِّرْتُمْ فعل ماض مبني للمجهول ، ولك أن تقول في إعرابه مبني على فتح مقدر منع من ظهوره السكون العارض لأجل اتصاله بضمير رفع متحرك ، ولك أن تقول مبني على السكون لاتصاله بضمير رفع متحرك ، والفعل على الإعرابين في محل جزم بإن الشرطية و (تم) ضمير في محل رفع نائب فاعل ، وجواب الشرط محذوف دل عليه الكلام السابق ، وقد قدره العكبري : كفرتم ، فيكون تقدير الكلام عنده : إن ذُكِّرْتُمْ كفرتم . وقدّره أبو السعود في تفسيره : إن ذُكِّرْتُمْ تطيرتُم وتوعدتُم بالرجم والتعذيب .

أختى العزيزة « هل » :

بهذا تنتهى رسالتى إليك عن همزة الاستفهام الداخلة على (إن) الشرطية ، وسوف أحدثك فى الرسالة القادمة إن شاء الله تعالى عن همزة الاستفهام الداخلة على (إذا) الشرطية ، وأسأله تعالى أن يعين ويسدد ويوفق .
والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، ، ،

أختك
همزة الاستفهام

مراجع هذه الرسالة

(أ) المراجع على وجه الإجمال :

- ١ - تفسير أبى جعفر بن جرير الطبرى / الطبعة الثالثة / الناشر : شركة الحلبي بمصر .
- ٢ - تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى / الناشر : مكتبة ومطابع النصر الحديثة بالرياض .
- ٣ - تفسير أبى السعود / الناشر : مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد بالقاهرة .
- ٤ - الفتوحات الإلهية المعروفة بحاشية الجمل على الجلالين / الناشر : الحلبي بمصر .

- ٥ - تفسير ابن كثير / الناشر : الحلبي بمصر .
- ٦ - تفسير القرطبي / الطبعة الثالثة المصورة عن طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .
- ٧ - الكشاف للزمخشري / الناشر : الحلبي بمصر .
- ٨ - إملأ ما منَّ به الرحمن للعكبري / الطبعة الأولى / الناشر : الحلبي بمصر .
- ٩ - شرح الرضي على الكافية في النحو / طبعة مصورة / الناشر : دار الكتب العلمية بيروت .
- ١٠ - البرهان في علوم القرآن للزركشي / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / الطبعة الثانية / الناشر : عيسى الحلبي وشركاه بمصر .

(ب) المراجع على وجه التفصيل :

- ١ - الآية الأولى : (١٤٤) من سورة الأنعام :
- الطبري : (ج٤ ص ١١٠) - البحر المحيط : (ج٣ ص ٦٨) - أبو السعود : (ج٢ ص ٩٢) - الفتوحات : (ج١ ص ٣١٩) - ابن كثير : (ج١ ص ٨٨) - الزمخشري : (ج١ ص ٤٦٨) - القرطبي : (ج٤ ص ٢٢٦) - العكبري : (ج١ ص ١٥١) - الزركشي : (ج٢ ص ٣٦٦) - شرح الكافية : (ج٢ ص ٣٩٤) .
- ٢ - الآية الثانية : (٣٤) من سورة الأنبياء :
- الطبري : (ج١٧ ص ٢٤) - البحر المحيط : (ج٦ ص ٣١٠) - أبو السعود : (ج٦ ص ٦٦) - الفتوحات : (ج٣ ص ١٢٧) - ابن كثير : (ج٣ ص ١٧٨) - الزمخشري : (ج٢ ص ٥٧٢) .
- ٣ - الآية الثالثة : (١٩) من سورة يس :
- البحر المحيط : (ج٧ ص ٣٢٧) - ابن كثير : (ج٣ ص ٥٦٧) - العكبري : (ج٢ ص ٢٠٢) - أبو السعود : (ج٧ ص ١٦٣) - تفسير الجلالين : (هامش الفتوحات) : (ج٣ ص ٥٠٧) .



محتويات العدد

الصفحة

الموضوع

.....	— قبس من كتاب الله
.....	— حكمة العدد
١١	— كلمة العدد
١٣	— آية العدد
.....	— أول واجب على المكلف عبادة الله تعالى ...
١٨	وضوح ذلك من كتاب الله ودعوات الرسل
٢٣	— منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل
٧١ ..	— دفاع عن العقوبات الإسلامية
٨٨	— الإمداد بأحكام الحداد
١٠٩	— نظام الإثبات في الفقه الإسلامي
١٢٧	— تحقيق جزء الضعفاء والمتروكين
١٤٠	— الملك عبدالعزيز آل سعود بين نصره الله ونصر الله له
١٥٨	— ظاهرة التقاص في النحو العربي
.....	— عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد في اعراب الحديث
١٦٨	— رسائل لم يحملها البريد
١٨٤



مطابع الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

Journal of

**THE
ISLAMIC
UNIVERSITY**

**OF
MADINAH MONAWWARAH
RAJAB — DHU AL-HEJJAH
1404 H.**

[QUARTERLY]

16th Year

63 - 64